

السَّامِرُ بِزَمَانِهِ

بَطْلٌ

الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ

تأليف

جمال الدين اللواتي

الْبَيْتُ بِمَنْ قَدْ

بَطُلَ

الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ

تأليف

جمال الدين اللدوي



مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

ذكر السيد قاسم الرجب في مذكراته عن سوق السراي كتاب « الاعتبار » فراح الكثيرون يتساءلون عن الكتاب ومؤلفه بينهم قراء عرفوا بالاطلاع ولا أدري أكان الذي أثار تساؤلهم أعجاب ذلك « الباشا » الذي ذكره صاحب المذكرات وقال عنه أنه كُنْ معجباً بكتاب (الاعتبار) أعجابا كان يدفعه ان يتابع منه اعداداً يوزعها على أصدقائه! لا أدري؟ وقد تكون الانارة التي أحدثها رجوع الصدى لذلك الباشا في النفوس ، هي الباعث للتساؤل : أو طريقة العرض الدعائية للكتاب التي يحسنها قاسم الرجب وقد قنم بطبعه مجدداً ، فأثارت فضول المتأدبين ان يعرفوا كنه الكتاب وسعى عدد منهم الى شرائه بينهم اثنان من رؤساء الوزارات ، وسمعت من بعضهم احكاما كانت نتيجة القراءة السطحية والنظرة الخاطفة لعناوين الكتب وسمعت من قارىء وصحفي يرمي الكتاب بالعامية وضمني مجلس حضره عدد من المتأدبين ذكر فيه الامير اسامة بن منقذ فاذا بالكثرة الكاثرة منهم لم يقرأ عنه شيئاً ولم يعرف عن سيرته لا قليلاً ولا كثيراً .

وخاب عن هؤلاء واولئك ان كتاب الاعتبار انما هو ذكريات حكايها صاحبها بلغة القصص وبالكلام الطبيعي الدارج وما أراد ان يكون كتاب أدب وان جاء من امتع كتب الادب ، كان صدى الماضي الذي عاناه البطل يتردد في صدره فحكايها لنا ، « والذكريات صدى السنين الحاكي » كما يقول احمد شوقي رحمه الله دفعني ما سمعت وما خبرت من تطلع القراء والمتأدبين من أبنائنا الى المعرفة ان أبعث سيرة ذلك الامير العربي الذي سماه الذهبي « أحد أبطال الاسلام » وان اجلو حياته وبطولاته وثقافته وشعره واتخذ من ديوان شعره مفتاحاً لشخصيته ثم أتطرق الى مؤلفاته وما طبع منها حتى اليوم ، وما كان مطبوعاً منها في شرقنا العربي قبل ثلاثين سنة الى سنة ١٩٣٠ غير كتاب الاعتبار ، وان من كتب عنه من الكتاب وجعل اعتمادهم على الاعتبار وعلى مقدمته للدكتور الفاضل فيليب حتي ،

أما وقد تيسر طبع ديوانه وتم طبع كتاب المنازل والديار وكتاب اللباب ، والبديع وكتاب العصا ومراجع شتى أهمها الخريدة للعماد الكاتب والروستين لأبي شامة ومفرج الكروب ومعجم الادباء فالبحث عن اسامة يختلف اليوم كل الاختلاف عما عهدنا من مقالات أو تراجم ليس فيها إلا بلة الصادي •

سيطلع القارئ على سيرة بطل محبوب ، نجب فيه الصدق والصراحة وخفة الروح والنجدة ، والفروسية بأدابها المتعارف عليها يومها ، نجب فيه شاعراً يجري شعره كجري النسيم في النفس وتشربه وكأنه الجلاب •

وسأعرض الواحاً من كتابه « الاعتبار » الذي هو بحق كتاب عبرة واقتداء سيقراً قصصاً ممتعاً فيه وقائع تجلتي تلك المعارك التي خاضها اسامة فيها الفروسية وآدابها وفيه نظرات اجتماعية تحليلية لذلك المجتمع المصطرع وسيسمع اخباراً عن تلك الحروب التي أهاجها الطمع والتعصب وشهوة الاستعمار ، لم تفصل اخبارها كتب التاريخ التي سجلت احداث الحروب الصليبية ، سيقراً القراء أحكاماً بناها اسامة على تجربته وكانت وليدة تجاربه ومعانته لها ، من سيرته سنعلم الصلات التي كانت تقوم بين المسلمين والافرنج ولا سيما - المتبلدين - على حدّ تعبير اسامة ممن صقلهم الاختلاط بالمسلمين وهذبتهم البيئة العربية الاسلامية •

وقد تطبع امرأهم وفرسانهم بطباع المسلمين حتى جفوا حياة التوحش وأخذوا بأسباب الحضارة العربية التي قد بلغت أوج ازدهارها فراح بعضهم يتشبهون بالمسلمين ويحبون حياتهم وادخلوا الى مطبخهم المآكل الاسلامية واستخدموا الطباخين من أبناء المنطقة وأخذوا بوسائل الطب السائدة عند العرب واستعانوا بأطبائنا ، وفي سيرته نماذج المترية الرياضية السليمة والتنشئة المبنية على الاعتماد على النفس وغرس روح الشجاعة والفروسية عملياً في نفوس ابنائهم ليشبوا أكفاء يقدرون على تحمل الحياة الصاخبة التي ابتلوا بها من غارات متلاحقة وحروب طاحنة وكرّ وفرّ ، التربية التي تعدهم للحرب والنضال والدفاع عن النفس والشرف والكرامة •

بَنُو مُنْقِذٍ

« كانوا من أهل بيت المجد والحسب ، والفضل والادب ، والسماحة والحصافة ، والفصاحة والفروسية ، والامارة والرئاسة ، اجتمعت فيهم أسباب السيادة ولاحت من اساريهم امارات السعادة يُخْلِفون المجد أولاً لآخر ، ويرثون الفضل كبراً عن كابر ، أما الادب فهم شموعه المشرقة ، ورياضه المونقة ، وحياضه المغدقة ، واما النظم فهم فرسان مِيدَانِه وشجعان فرسانه ، وأرواح جثمانه ، قال مجد العرب العامري بأصفهان سنة نيف واربعين وخمس مئة وهو يشي عليهم ويشي عنان مجده اليهم : أقمّت في جنابهم مدة واتخذتهم في الخطوب جُنَّةً وللأمور عدة ولم القَ في جوارهم جوراً ولا شدة ومدوحه منهم عماد الدولة أبو العساكر سلطان بن علي بن منقذ وما زالوا مالكي شيزر ومُعْتَصِمِينَ بحصانها ممتنعين بمناعتها حتى جاءت الزلزلة في سنة نيف وخمسين (٥٥٢) هـ فخربت حصنها وأذهبت حسننها .

نسبهم :

بنو منقذ عرب من كنانة وهي قبيلة قحطانية كثيرة العدد كانت مساكنها قبل الاسلام حول مكة تمتد من تهامة في الجنوب الغربي من مكة يجاورون هذيل والى الشمال الشرقي منها حيث يحاددون بني أسد .

ودخلوا الاسلام وظهر منهم كثيرون عرفوا بالشعر والحرب فمنهم الشُدَاخ ابن عوف الذي كان على مُجَنَّبَةِ أَبِي عبيدة عامر بن الجراح يوم « اليرموك » ومنهم نصر بن سيار امير خراسان والذي نبه الامويين والعرب المتنازعين للخطر المحقق بهم من تجمع أصحاب الرايات السود ، أصحاب الدعوة العباسية ، ومنهم حفيده رافع بن الليث بن نصر بن سيار الذي ثار على الرشيد ومنهم أبو الاسود الدؤلي

الشاعر العالم ، ومنهم أبو ذر الغفاري الثائر على معاوية وقد خلفوا مفاخر ومناقب
كان يتداولها أبناء العشيرة كابرآ عن كابر ويرثها الأبناء عن الآباء •
وانساحت افخاذ من القبيلة فبعضها سكن العراق وبعضها سكن أعالي
سوريا ومنهم بنو منقذ •

حصن شيزر :

اقطع صالح بن مرداس حاكم حلب رئيس آل منقذ مدينة شيزر وقلعتها ،
وهو الذي خلف الحمدانيين على حلب والذي حاصر معرة النعمان حين انتقضت
عليه وشدد الحصار على أهلها حتى اشرفوا على الهلاك فأرسلوا اليه أبا العلاء
المعري متشفعاً ، فأحسن صالح وفادته ووهب المعرة وأهلها للشيخ المعري رهين
المحبسين وفي ذلك يقول أبو العلاء في لزومياته :

تغيَّبْتُ في منزلي بُرْهَةً ستيرَ العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمرُ الا الأقل وحممٌ لروحي فراق الجسد
بُعْتُ شفيحاً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام واسمع منه زئير الأسد

وقبل أن يملكوا شيزر « كانوا ملوكا في اطراف حلب بالغرب من قلعة شيزر
عند جسر بني منقذ المنسوب اليهم وكانوا يترددون الى حماة وحلب وتلك
النواحي ولهم بها الدور النفسية والاملاك الثمينة وذلك كله قبل أن يملكوا
شيزر وكان ملوك الشام يكرمونهم ويجلون اقدارهم وشعراء عصرهم يقصدونهم
ويمدحونهم وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء أجلاء علماء » (١) •

وحصن شيزر قلعة قريبة من حماة على بعد خمسة عشر ميلاً منها ولم يزل
قائماً الى اليوم معروف باسم « سيجر » تصحيف « شيزر » (٢) •

(١) ابن خلكان ٢ : ١٥٥ •

(٢) مقدمة الاعتبار للفليب حتي •

وكان الحصن « لآل منقذ الكنعانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس،^(١) وصالح حكم حلب سنة ٤١٧ هـ .

وخرج الحصن والبلدة من ايديهم الى الروم واسترده سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد جد اسامة رجب ٢٧ منه سنة ٤٧٤ هـ بأمان بذله للاسقف الذي كان قد استولوا عليه فيما استولوا من بلاد المسلمين وتحكموا به في المواقع التي حوله .

علي بن مقلد بن نصير :

كان علي بن مقلد بن نصير بن منقذ رأس آل منقذ رجلاً مقداماً قوي النفس كريم الصفات احبه قومه واطاعوه لما كان يتصف به من صفات الشجاعة والعدل والكرم والتجرد من الانانية ، فأعدّ عدته وسلح قومه فأخذ الروم على غرة منهم فلما رأوا انهم لا طاقة لهم بالجيش العربي الزاحف عليهم طلبوا الامان وسلموا الحصن وخرجوا آمنين فأسترد ملك آبائه وراح يعمل جاهداً في تحصينه حتى صار امنع من عقاب الجو ومن حوله واد عميق والنهر يحيط به من اطرافه الثلاثة ، ولقب بـ « سديد الملك » وعاش يرد عادية الحشاشين والاعراب وقصده الشعراء والادباء امثال ابن الخياط وابن سنان الخفاجي فكان يغرهم بأمواله وكرمه والشعر متأصل بأبناء هذه الاسرة يحفظون عيونه ويحيدون نظمه ، وظهر من بني منقذ امراء أبطال ضموا الى شيزر قرى واسعة وحكموا اللاذقية وجزماً من الجزيرة ، واشادوا فيها ذلك الحصن وكان له مركزه الحربي في الحروب الصليبية فكان مطمح الطامعين من الافرنج والحشاشين والاعراب لان من يملك هذه القلعة الحصينة يتحكم بالقسم الداخلي من سوريا وصد بنو منقذ غارات الصليبيين ووقفوا كالطود الشامخ يردون هجماتهم ويفيرون على قلاعهم ومدنهم فيقتلون ويأسرون ويضمون ، وقاومت قلعتهم زحف الروم وصدت لحصارهم ولم يكثرثوا لتلك الوسائل المخربة التي نصبها ملك الروم لحصار القلعة وبقيت صامدة لا تترك له مجالاً للنفوذ الى الداخل وكان عماد الدين زنكي يمدّها

(١) عن ابن الاثير ج ١١ ، ٨٨ والروضتين ١ : ١١١ .

بمعونته ويدافع عنها بجيوشه حتى يش ملك الروم فترك الحصار وترك
المنجنيقات بمكانها ، وقفل الى انطاكية يجبر أذبال الخيبة^(١) .

مرشد بن علي :

وبعد وفاته تولى الحكم ابنه مرشد بن علي الملقب بمجد الدين (٤٦١ -
٥٣١ هـ) وكان فارساً شجاعاً ثابت الجنان عند البأس لا يعرف الخوف نهاره
للحرب وليله للعبادة ونسخ المصحف الشريف وتلاوة كتاب الله ، وحكي أنه
نسخ للقرآن أكثر من ثلاثين نسخة وكان ذا خط جميل وزهد عن الحكم
وتنازل لآخيه ابي العساكر سلطان بن علي وكان اصغر منه ، وعني بتربية اولاده
ومنهم اسامة فكان يصحبه في الحرب والغارات على الاعداء فاذا لم يكن قتال
فيصحبه في القص والصيد ومطاردة الوحش والاحراش ؛ والغابات كثيرة من حول
شيزر ، وكان مغرماً بالصيد لهجاً به له فيه ترتيب لا نظير له « وحضر وقائع كثيرة
وفى بدنه جراح هائلة ومات على فراشه وأبو العساكر سلطان لم يرزق أولاداً
فأصطفى لنفسه ابن أخيه اسامة بن مرشد واولاده عناية وتربيته وكان يعهد اليه
بالمهام من أمور الادارة والحرب والسياسة يعدّه لامرة القلعة ولرأسة الاسرة
فلما رزق الاولاد داخله الحسد من ابن اخيه واختلفت نظرتة اليه واظهر التجني
على اولاد اخيه ابعاداً لهم عن منافسة اولاده وبعد وفاة أخيه مرشد جاهر اسامة
البغضاء وطلب اليه ان يهجر الحصن ، وكان هذا من قدر الله وقضائه لينجو
اسامة وأخوته من تلك الكارثة التي قضت على آل منقذ .

اسامة بن منقذ :

هو اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن
منقذ بن نصر بن هاشم بن سوار بن زياد بن رغب بن مكحول بن عمرو بن

(١) أنظر الروضتين ١ - ١١٢ وفي أماكن مختلفة من الجزء الحادي

عشر من الكامل .

الحارث بن عامر بن مالك بن ابي عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن ربيعة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان « قال ياقوت هكذا ذكر هو نسبه وفيه اختلاف يسير عند ابن الكلبي » .

نشأته ومولده :

ولد اسامة يوم الاحد ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ تموز (١٠٩٥م) بقلعة شيزر كما حكاه في الاعتبار وكما ذكره للعماد الكاتب وكنيته « أبو المظفر » وحكى ياقوت الحموي كنية اخرى له هي (أبو اسامة) ولم أر من خاطبه أو كناه بها ولكن له كنية هي (أبو الفوارس) والكنية الاولى اكثر شيوعاً واستعمالاً ولقب ب (بمؤيد الدولة ومجد الدين) .

نشأ اسامة في كنف أبويه وعمه وفي وسط اسيرة من اشهر الاسر العربية محافظة على تقاليدها ومن تقايدها الموروثة الفروسية والعلم والادب وبعد ولادته بستين بدأت الحروب الصليبية وبدأ الاعصار الغربي المدمر ، ومن يحيى في شيزر وحصنها المنيع وحوله الاعداء من كل جانب لا بد له ان يكون جندياً مدرباً وينشأ على الفروسية لا مفر له منها تلزمه عليها طبيعة وطنه وما يحفه من اخطار ، والضعيف لا يعيش له ولا حياة بمثل هذا الحصن وفي وسط هذه الاسرة افرادها من اثناب الى الشيخ من البنت والزوج والام يمرنون على القتال والحرب والفرد على استعداد كل لحظات حياته يلقي اعداءه نهاره وليله وربما فرغ من نومه على الصائح ، وقد يخرج احدهم من بيته فيلقاه افرنجي او يصادفه احد الخشاشين ليقته ويسلبه سلاحه ولباسه وفي ضواحي الحصن احراش وغابات يعمرها الوحوش ومنها الاسود تهاجم الناس كل وقت تسمع الصايح كما يعبر اسامة ، فيهرع الفرسان يلبون النداء ليدفعوا عن أنفسهم واهليهم عادية المهاجمين والطامعين ولا حديث لهم في اسمارهم الا انباء الحرب والغزو وحكايات الابطال وقصص الفتاك وترديد الاشعار والقصائد الحماسية التي تثير فيهم النخوة والقوة والعزيمة

وتربي في نفوسهم الشجاعة والاقدام ويقصون على ناشئتهم بطولات اجدادهم من آل منقذ ويروونهم اشعارهم ويلزمونهم حفظها ويذكرون لهم مشاهير الفرسان الذين عرفوا بالفتك ومقارعة الاقران ويختارون لهم القصائد الحماسية وكانت سيرة خالد بن الوليد ومقامه على مقربة منهم يذكرون لهم مواقفه الحربية وما في جسمه من ندوب الطعن وجراح السيوف ومع ذلك يموت حتف أنفه على فراشه فلا نامت عين الجبان ، في مثل هذا الوسط ربي اسامة نشأه أبوه على الفروسية ومرنه على القتال ويدفع به بين لهوات الاسود فأخرج منه بطلا فارسا ، ورجلا تابتا قوى الجنان لا تزعزع الاغصير ولا تهيض جناحه الملمات •

ثقافته :

وعني الاب بثقافته فأحضر له الشيوخ العلماء ليعلموه هو واخوته وبني عمومته فسمع الحديث من الشيخ الصالح ابي الحسن علي بن سالم السنبسي سنة ٤٩٩ هـ وكان يؤدبه الشيخ العالم أبو عبدالله محمد بن يوسف بن المنيرة وقرأ النحو على الشيخ ابي عبدالله الطليطلي الذي كان يلقب بملك النحو وبسيويوه زمانه ، والتوسع بالنحو يستدعي كثرة الاطلاع على الشعر القديم وعلى الغريب وعلى تفسير القرآن وعلى علوم البلاغة ، وكان الامراء من بني منقذ يقصدهم الشعراء والادباء يمدحونهم ويسترفدونهم فأقتبس اسامة من هذا المجتمع الادبي ادبا جما وعلماء واسعا وحفظ كثيراً من الشعر القديم فقد نقل الحافظ الذهبي عن أبي سعيد السمعاني قال : (قال لي أبو المظفر - يعني اسامة - احفظ أكثر من عشرين الف بيت من شعر الجاهلية ، فلا عجب ان ينشأ شاعراً فحلا ويحيا رجلا فارسا تابتاً لا تزعزع الاغصير ولا تضعف عزماته الرزايا والاهوال ، يقول عن نفسه بعد ان جاوز التسعين) فهذه نكبات تززع الجبال وتُفني الاموال والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته وتلك وقعات كبار شاهدها مضافة الى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الاجال واجحفت بهلاك المال^(١) •

فلا يظن ظان ان الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر

(١) الاعتبار ص ٣٥ •

ففى بقائى اوضح معتبر ، فكم لقيت من الاهوال ، وتقحمت المخاوف والاطار ،
ولاقيت الفرسان وقتلت الاسود وضربت بالسيوف و'طعنت' بانرماع وجرحت
بالسهام وانا من الاجل فى حصن حصين الى ان بلغت تمام التسعين
فأنا كما قلت :

مع الثمانين عاث الدهر فى جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
اذا كتبت فخطي جدٌ مضطرب
كخط مرتعش الكفين مُرتعدٍ
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً
من بعد حطم القنا فى لبّة الأسد
وإن مشيت وفى كفي العصا ثقُلْتُ
رجلي كأنني أخوض الوحل فى الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد (١)

فى هذا الوسط المحموم عاش الامير اسامة ولم يمضِ على ولادته عامان
وأشهر حتى هبت اعاصير الحقد والتعصب والاطماع هبت رياح هوج تحمل
الدمار والخراب دبت زحوف من الكتل البشرية تدفقت كالانبي الزاخر ووجهتها
بلاد الشام وشيزر فى طريق تلك الجيوش الجرارة التي أولها حطّ فى انطاكية
وآخرها فى أوروبا ولا آخر لها •

(١) الاعتبار ١٦٣ - ١٦٤ •

الحَرْبُ بِالصَّلَاةِ

لا مندوحة لمن يريد ان يؤرخ سيرة اسامة بن منقذ من ان يتفهم مدى هذه الحروب الطاحنة المجنونة التي هبّ اعصارها على الشرق العربي سنة ٤٩٠ هـ أي بعد مولده بستين فصلي نازها منذ ان كان يافعا وخاض معامعها ولما يتجاوز الخمس عشرة سنة وبقي يجالذ فرسانها حتى جاوز الثمانين ، وتناقل أحاديث بطولاته المسلمون والأفرنج واعجب بشجاعته ومهارته اعداؤه قبل افراد أسرته ، وذاع صيته واشتهر أمره شرقا وغربا ، وتنافس الامراء والملوك على اصطفاؤه وتقريبه واحبه الفرسان من الداوية^(١) الأفرنج لشهامته ، هبت اعاصير هذه الحرب الضروس ودافعها عاملان ديني اثاره التعصب والحقد وعامل دنيوي هو الطمع وحب التملك والتتعم بخيرات الشرق العربي حين تناقل اليهم حجاجهم وصف البلاد الاسلامية وما كانت تزخر به من خير ونعمة كانوا بها فاكهين ، وما كانت عليه من خصب وغنى وعمران فكانت المطامع وحب السيادة تجيش في صدور أهل الغرب لغزو هذه البلاد التي يمتلكها الكفار على زعمهم ، فهبت زحوف مسعورة كأنما مسها الجنون فهي هائجة مائجة تركت اوطانها جماعات ووحدا نا تجد فيها الطفل الرضيع تحمله أمه الشابة والشيخ الفاني يقوده ابنه الشاب المتحمس ترى المرأة العجوز والشابة الرعبوبة يحملون اثقالمهم ويجرون كلابهم اندفعوا من كل صوب وانحدروا من كل جانب ، ترى الفارس والراجل والاعزل والغارق بالسلاح ترى اسرا بقبضها وقضيضها ركانهم في رحلة الى وطن جديد تسمع لهم دويأ يصك الاذان وجلبة تخنق الانفاس وتشم منهم روائح تزكم الاناف ، يرددون شعارا (هذه ارادة الله) لقنهم هذه الكلمات رجال ملاء قلوبهم الحقد والكراهية للاسلام وما كان الله يريد ظلما للعباد ، انه الجهل والهوى وانه الطمع دفع ابناء الغرب ليغزوا الارض الطيبة ارض السلام ارض الخير والبركة ليقنلوا ابناءها ويستعبدوا نساءها وينعموا بخيراتها ، وما لانباء هذه المنطقة المهاجمة من ذنب ، فتحوا بلادهم تستقبل حجاج ارضهم المقدسة لمن قصد

(١) الداوية هم من فرسان المعبد .

زيارتها من الافرنج ومنحوم الحرية فى اداء طقوسهم ، وانزلوهم على الحب والكرامة فكان جزاء هذا التسامح من المسلمين ان غزوا فى عقر دارهم وشن الغرب عليهم حربا لا تبقي ولا تذر تحرق الاخضر واليابس بتحريض رجال الدين الذين راحوا يشرون بين حشود أوروبا أكاذيب ليس فيها اثاره من صدق فحواها ان المسلمين قد اهانوا قبر المسيح ومنعوا الحجاج من اداء طقوسهم وانزلوا بهم العذاب الاليم والحقوا بهم الاهانات وان المسيحيين يلاقون الاضطهاد ويمنعون من زيارة اماكنهم المقدسة ، وتعالت اصوات الرهبان تدعو اتباع المسيح الى انقاذ اخوانهم وتخليص قبر المسيح من يد الكفرة ، وصدق المتعصبون هذه الدعوى وأمنوا بما قاله الخطباء وروجه الواعظون ، فزحفت جموعهم لتصد تيار الاسلام الذي قال لهم البابا أنه يهدد أوطانهم ، ولم يكن لما أشاعوه وافتروه ظل من الحقيقة وانما العكس كان يحصل فقد كان حكام فلسطين وسكانها من عرب وغير عرب يعاملون الحجاج بكل رعاية ويمنحوم الحرية والعون لما فى ذلك من مصلحة اقتصادية وتجارية فكانوا فى الواقع بشجعون حركة هذه الزيارات ، اقيمت لهم المنازل وبنيت الاسواق من أجلهم يديرها تجار من ابنائهم وتسامح المسلمون مع الحجاج وشاركوهم فى زياراتهم ، والبيت المقدس له حرمة قدسية فى قلوب المسلمين ولكن هو الحقد ملاً صدور المتعصبين والطمع الذى كان يعمر قلوب الامراء والتجار لامتلاك هذه البلاد العامرة الغنية ، فاندفعوا فى جموع لا عدداً لها وارثال لا انقطاع لتدفقها لا يلوون على شئ تركوا اوطانهم وديارهم واندفعوا باتجاه الشرق ، منهم من سلك البر وهم فى مسيرهم يستحقون كل ما يمرون به ينهبون القرى الرومية وغير الرومية ولا يتركون خلفهم غير الدمار والخراب ، ومنهم من سلك طريق البحر اتخذه سيلاً ومنطلقاً وفى نفوسهم آمال تداعبهم واطماع تساورهم لعلمهم بغزوهم هذا يتخلصون من الحياة المضنية والفقر الذى كان يعيشه اكثر سكان اوربا الوسطى والشمالية والجذب والقحط قد عم ربوعهم بسبب الحروب المتلاحقة بين امرائهم والجماهير الجاهلة هى وقودها ، فوجدت الدعوة الصليبية نفوساً متهيئة لتليتها فاستغلتها لعلمهم يحققون لهم حياة أفضل مما كانوا يحيون ، واخبار الغنى قد ملأت اذانهم وخضب المنطقة قد

اسال لعابهم ، هذا السيل الجارف المتلاحق يتقدمهم والهدف يوحد كلمتهم ويقرب ما بينهم ويقضي على خلافاتهم ولو الى حين •

وشرقنا العربي الاسلامي تمزقه الخلافات والحروب بين امرائه وحكامه والحكم لملوك السلجوقيين سواء في بغداد أو في سوريا أو آسيا الصغرى أو ايران ، والخليفة العباسي مسلوب الارادة ليس له من الامر شيء والخليفة الفاطمي وبلاطه في شغل بأنفسهم الخليفة يدبر الدسائس لكيد الوزير والوزير يدبر المكائد لاسقاط الخليفة او قتله وهم في غفلة عما سيحل بهم وفي بلادهم يسمعون بهذا الغزو وكأنه لا يعينهم ولم يحنزمهم لتهيئة وسائل الدفاع على أقل تقدير وما يعينهم وسوريا هي المهاجمة وأمر دفاعها مسؤول عنه غيرهم ، ونجد في سوريا التي هي الهدف الاول من هجوم تلك الجموع الزاحفة قد تقسمها حكام يتنازعون السلطة بأسهم بينهم شديد يغزو بعضهم البعض الآخر وقد حكم كل حاكم ولاية أو مقاطعة مستقلا عن المركز ولم يكنف بما يملك وانما راح يطمع ان يزيد املاكه بالاستيلاء على جيرانه هذا حال البلاد الشامية ، في دمشق حاكم وفي حلب حاكم وفي حما حاكم وفي بعلبك حاكم وهكذا في كل مدينة مثل هذا والكل عدو لبعضهم بعضا ، واهل البلاد لا سلطان لهم يتحكم فيهم حكام مهمهم التسلط والابهة وما يجبي من المال ينفق في هذا الغزو المتلاحق وعلى ملاذهم واعوانهم ، وما حالنا اليوم عنهم بعيد •

جاءتهم النذر وسرت اليهم انباء الزحوف تقطع الارضين وتتهب القرى وتدمر ما تمر به من عمران فلم تهزهم الانباء ولم يفزعهم الخطر ولم تروعهم كثرة هذه الجموع المهاجمة ولم تثر حتى مجرد الرغبة في المصير الذي ينتظرهم وينتظر ابناءهم واطوانهم ، لم تثر فيهم هذه الانباء الرغبة في وقف خلافاتهم والعمل لتضافر القوى لصد هذا الاعصار المدمر ، ولم يحركهم الخطر الداهم ليعدوا للحرب عدتها ومن عدتها الاساسية ازالة انقساماتهم وتوحيد كلمتهم وتجميع قواهم وحشد جيوشهم متساندة لصد هذا العدوان والعدو ماضٍ يسرع في الزحف وينشر الرعب ويخلف الخراب حيث حل ونصيب الارض التي يمر بها القتل والسلب والتخريب والتدمير فهام الناس على وجوههم وتعال صيحات الاستجداد

من بغداد والقاهرة والموصل والجزيرة ويرسل الخليفة العباسي الى الاخوين المتقاتلين من سلاطين السلاجقة ويعرفهما بالخطر فلا يأبهان لرجاء الخليفة ويمضيان فى القتال على الحكم ، ولجأ العلماء والصلحاء الى الحكام والامراء يستجدونهم فلم يحرك نداؤهم احداً وخطة احدهم ان يدفع عن نفسه وقلعته او مدينته •

ولكن هذا الحال لم يدم طويلا فقد هيا الله للمسلمين اميراً قوياً فتياً هباً من الموصل والجزيرة يجمع القوى ليقف فى وجه الغزاة ويهاجمهم فى قلاعهم ذلك هو البطل عماد الدين زنكي وراح يسترجع المدن والقلاع من ايدي الافرنج وساعده الايمن وفارسه المغوار اسامة بن مرشد القائد العربي الذى طارت شهرته فى حرب الافرنج فى شيزر وكفرطاب وانطاكية ، وكان لقيام عماد الدين فى تجميع القوى الممزقة وتوحيد الامراء أثره الفعال فى توقيف الزحف الصليبي عن داخل سوريا وقد نهج على خطته ولده نور الدين محمود الذى هاجم الافرنج فى مدنهم واستخلص منهم الكثير من المدن واسامة بن منقذ من ابطال هذه الحروب ، فلما تولى أمر المسلمين صلاح الدين واتم توحيد الشام ومصر وقضى على بقية الامراء الذين عادوا الى الظهور بعد وفاة نور الدين بذلك التوحيد قدر له ان ينتصر على الصليبيين فى حطين وعسقلان والكرك وتم له النصر المين بأستخلاص القدس من يد الصليبيين بعد حكم لها دام زهاء تسعين سنة واقضى خلفاؤه من بعده وسار على دربه من جاء من بعدهم من حكام مصر المماليك فأولوا حرب الصليبيين غايتهم ووالوا هجماتهم حتى رموا بهم الى البحر وانهارت مقاومتهم على يد بيبرس الجندي المحنك والمسلم الغيور هذا وبطلنا اسامة بن منقذ قد كان له القدح المعلى والنصيب الاوفر فى هذه الحروب حروب الدفاع والهجوم خاض غمار القتال فى جهات مختلفة بفرسانه تارة ومع اعمامه وأهله أخرى ومع الامراء عماد الدين ومعين الدين أنر ونور الدين وابن السلار وشهد النصر المين وقرت عينه قبل وفاته بعام بفتح فلسطين على يد صديقه صلاح الدين الذى كان يمدد بنصحه ومشورته وينتفع بتجاربه وآرائه السديدة •

ان حياة اسامة تمثل الفروسية ومن اجلى مظاهر الفروسية النجدة والكرم والشجاعة والشعر يمثله قول طرفه :

اذا القوم قالوا من فتىً خلت انى
عنت فلم اكسل ولم أتبد

والفتى هو الفارس الذى يخف لنجدة قومه بسيفه يحمى ذمارهم وبرمحه يرد اعداءهم وبماله يواسي عائلهم وهكذا كان الامير اسامة يرد غارات الافرنج عن شيزر ويخف لفك الحصار عن القلاع الاسلامية ويتطوع فى جيوش الامراء الذين ندبوا انفسهم ل حرب الصليبيين مرة مع عماد الدين واخرى مع معين الدين وتارة يقود الفرسان مع الملك العادل ابن السلار واخرى مع نور الدين ولا يتخلف عن زحف فيه قتال فى سبيل اعلاء كلمة الاسلام قاتل وهو ابن خمس عشرة سنة وابى فى الحرب بلاء أعجب الاعداء وفى ذلك يقول مفتخرا وحق له الفخر :

لخمس عشرة نازلت الكماة الى
ان شبت فيها وخير الخيل ما قرحا
اخوضها كشهبا القذف مبتسماً
طلقَ المحيا ، ووجه الموت قد كلحا
بصارم من رآه فى قتام وغيً
أفري به الهام ظن البرق قد لمحا
اغدو لنار الوغى فى الحرب ان خمدت
بالبيض فى البيض والهجمات مقتدحا
فسل كماء الوغى عنى لتعلم كم
كرب كشفت وكم ضيق بي انفسحا

فى يوم الجمعة خامس جمادى الاولى سنة ٥١٣هـ كان قد خرج مع عمه ورجال من عسكره وبني قومه فالتقوا بجيش كبير للافرنج ووقع بينهم قتال

يُشيبُ له الاطفال واستمر القتال وأخذ الموت يحصد رجال اسامة وقد هان عليه الموت وراح يقاتل وتحت فرس مثل الطير يهاجم يمنة ويسرة ويلاحق الأبطال يطعن هذا ويضرب ذاك ويحمي اصحابه فاذا اصاب البهر فرسه ركب غيره حتى انتهت الموقعة ورجع اسامة ظافرا يتحدث عن بطولته كل من شهد الواقعة ، وفي هداة من الليل يأتيه من يناديه ان اجب عمك أبا الفوارس فاذا عند عمه فارس من عظماء قادة الافرنج فقال له عمه « هذا الفارس اعجبه اليوم قتالك فجاء يهنئك بموقفك ويبدى اعجابه من طعناتك وشجاعتك » هذه روح الفروسية تملي على صاحبها أن يعجب بالشجاعة والبطولة ولو صدرت من خصمه وكان هذا التقدير من الفارس له أثره وقيمته في نفس بطلنا ومما زاده ثقة بنفسه وايمانا بشجاعته واعتماداً على ربه فقال في ذلك :

سَلْ كَمَا الْوَعَى فِي كُلِّ مَعْرَكٍ
يَضِيقُ بِالنَّفْسِ فِيهِ صَدْرُ ذِي الْبَاسِ
يُنْبِئُوكَ بِأَبِي فِي مَضَائِقِهَا
ثَبَّتْ إِذَا الْخَوْفُ شَقَّ الشَّاهِقَ الرَّاسِي
أَخْوَضَهَا كَشَهَابِ الْقَذْفِ يَصْجُبِنِي
عَضْبٌ كَضَوْءِ سَرَى أَوْ ضَوْءِ مِقْبَاسِ
إِذَا ضَرَبْتَ بِهِ قِرْنَأً أَنَاذِلَهُ
أَوْجَاهُ عَنِ عَائِدِ يَغْشَاهُ أَوْ آسِي (١)

هذا ديدنه وهكذا كان ينفق أيامه بين حرب وضرب وقصص وصيد يوم يغير على أعدائه ويوم يرد غاراتهم وينازل الافرنج في معاقلمهم وتارة يقاتل فيقتل واخرى ينهزم ويجرح يطاردهم على خيله التي كان يتخيرها وله سياس ركابي يخدمها ويشد سرجها يفر يوماً على حصان قد طال قتاله عليه وقد جرح حتى تدلت أمعاؤه والحصان يجري به كالريح حتى اذا نجا صاحبه ووصل الى موطن أمانه وقع ميتاً ، فيعجب لشجاعة جواده ويخرج باعتبار ذلك هو : ان الخيل

(١) أوجاه ، دفعه ونحاه ، والآسى الطبيب الذي يأسو الجراح .

فيها انشجاع وفيها الجبان وفيها القوي وفيها الخوار ، فيها الوفي لصاحبه وفيها
البليد ، هذا اسامة في شيزر غزو وقتال وصيد ومكاسرة للوحش ينفق ماله في
اكتساب المكارم ويسعى الى الهيجاء في سبيل المحمدا لا يرهب الردى وفلسفته
ان الموت سبيل الاحياء فاذا عاش عاش ماجداً محمداً واذا مات خلف ثناء مؤبداً ،
ويعرب عن احساسه هذه بشعر صادق جميل يقول :

سأنفق مالي في اكتساب مكارم
أعيش بها بعد الممات مخلدا
وأسعى الى الهيجاء لا أرهب الردى
ولا أتخشى عاملاً ومهندا
فان نلت ما أرجو فللمجد ثم لي
وإن مت خلّفت الثناء المؤبدا

وخفق قلبه للحب ونعم بالوصال وتصاعدت أنفاسه اقباساً من ألم الفراق
وتسعرت بين ضلوعه لواعج الشوق الى المحبوب فقال :

شكا ألم الفراقِ الناس قبلي
ورَوَّعَ بالنوى حي وميت
وأما مثل ما ضمَّتْ ضلوعي فاني ما سمعت ولا رأيت

أبو العساكر يمهد لاولاده :

كان اسامة أثيراً لدى عمه أمير الحصن (سلطان) وكان ينزله منزلة ولده
ويعده بمنابة صديقه وأخيه وكان يرى فيه الاميرَ الذي سيخلفه على الحكم يوم
لم يكن لابني العساكر « عمه » ولد أو عقب ، فكان يكل اليه المهام التي تتطلب
الجرأة والاقدام ويشركه في الجليل من الاعمال التي تتطلبها امور الحكم وكان
العم تعجبه شجاعة أسامة وترضيه رصاته وتعقله فيما يفعل وكلما أتى عملاً
جليلاً اهتز له فرحا وتوسم في مخايله الرجل الحامي للعشيرة والفارس الذائد
عن حمى الحصن والحاكم الناجح الصالح لادارة المملكة ، خاض الحروب

بجنب عمه وكثيرا ما كان يقود الفرسان بمفرده وعمه يلاحظ تصرفه فكان ينمي في نفس اسامة روح القيادة ويعده ويتعهد ويمتحنه في الملمات ليرى حضور ذهنه ساعة الروع ، كل هذا كان من عمه لابن أخيه يوم كان عمه لم ينجب ولدا اما وقد رزق محمداً وشبَّ واصبح في عداد الفرسان فقد فتر حب العم لاسامة واختلفت نظرتة اليه وصار ما يعجبه من بطولاته يؤذيه ويرمض عينه ويملاً قلبه خوفاً على ولده وحسداً لمواهبه وكلمه جاء اسامة بعمل باهر بحدث ثناء الناس كلما أحسَّ العم بالنفرة والكرهية ويأتي اسامة يوماً برأس أسد كبير قتله بسيفه وحسب ان هذا مما يقربه من عمه فتقول له جدته التي كانت تلاحظ تغير الامير على حفيدها فتوبخه وتحذره وتقول له « لا والله ما يقربك هذا من عمك وانما يزيدك منه بعداً ووحشة » فلما لمس هذا التغير من عمه حاول أن يرضيه بكل وسيلة وفعل من البطولات ليلفت اليه قلب عمه وليحصل على رضاه فما كانت هذه الفعلات تزيد الا نفورا فراح يفكر بارتحال الى ميدان آخر من ميادين الجهاد مع أمير يقدر له شجاعته ومفاداته •

رحلة اسامة الاولى :

رحل اسامة بحدود سنة ٥٢٥ هـ وكان الدافع له على رحلته هذه عن سيزر أول أرض مس جلده ترابها احتمال فراق أهله وأمه وزوجه وأصدقائه يوم لم ير بدأ من الرحلة لما رآه من كراهية عمه له وقد عملت عقارب الحسد في قلب المرأة زوج الامير التركية وكيد النساء عظيم خافت على ولدها أن يحرم من الحكم ان بقي اسامة على ما هو عليه من مركز مرموق ولما كان يتمتع به من حب ومكانة لدى الجند والأتباع وما يمتاز به من شجاعة واقدام وشهرة مما كان يزيد من نفرة العم الحاكم تخوفاً منه على ولده وحب الولد غريزة لا تقهر فراح يهيء نفسه للسفر والالتحاق بأحد الامراء الاقوياء الذين ندبوا أنفسهم للذود عن الثغور ومحاربة الأفرنج ورد عاديتهم وكان أقواهم يومئذ عماد الدين زنكي حاكم الموصل والعمادية والذي كان من أعظم أبطال المسلمين في الحروب الصليبية راح يعد العدة لهذه الرحلة ولسانه يردد :

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى
وفيهما لمن خاف القلى 'متعزّل'
واني كفاني فقد من ليس جازيا
بحسنى ولا في قربه متعلل

ضاق ذرعاً بحياته المنغصة بالكيد والبغض وهو الذي ما تعود غير الحب
والتقديم والثقة فعول على الارتحال ولو فى ذلك فراق الاحبة وفراق الوالد
الشيخ الذي كان لا يرتضي مثل هذا السفر ويلج عليه بالبقاء لمعاونة عمه والدفاع
عن أهله ، ولكن العيش من غير كرامة لا تطيقه نفس اسامة :

أأسام خسفاً ، ثم لا آبي ، فلست 'إذا' اسامه
هيات ، لا ترض المعال لي صاحباً يرض اهتضامه

فلما أعياء الحال مع عمه ولم يجد باباً لاعادة مركزه عنده كتب الى والده
يكشفه بدخيلة أمره ويستأذنه بالارتحال ويرجوه ألا يلزمه بالبقاء ففي البقاء مع
عمه ضياع الكرامة واحتمال الهوان ولم يعد فى قوس التصبر منزع :

أشكو الى عليك همأ ضاق عن
كتمانه صدري وما هو ضيق

وطوارقاً للنمّ أمرِ بها الكرى
وتلِظُ بي صباحاً فما تفرق

لو لم أمنّ النفسَ أنك كاشفٌ
كُرِبَتْها عنها لكادت تزَهقُ

أنا عائد بك من عقوقٍ مُحِيطِ
عملي فعصيانى لأمرِك مُوبِقِ

لا تُلزِمَنِّي بالهوان وحمله
إنّ احتمال الهونِ ثِقْلٌ 'مرهق'

دعني وقطع الارضِ دونَ معاشرِ
كلِّ عليٍّ لغيرِ جرمٍ مُحْنِقٍ
تَغْلِي عليَّ صُدُورهم من غيظهم
فتكاد من غيظِ عليٍّ تحرق
تعشى اذا نظروا اليَّ عيونهم
حتى كأن الشمسَ دوني تُشرق
كسَدتْ عليَّ بضائعي فيهم فلا
أدبي ولا نسبي عليهم يَنفِقُ
أعياَ عليَّ رضاهم فيئتُ من
ادراكه ، ما النجم شيء يلحق
إنَّ أعشهمُ قالوا خلوبٌ ، ماذق
أو أجفهمُ قالوا : عدو أزرق
قد أفسدوا عيشي عليَّ وعيشهم
فأنا الشقي بهم ، وبني أيضاً شقوا
فأسمح ببعدي عنهم برضاك لي
إن الذي ترضى عليه موقِّقُ
فلعلَّ بعضَ العمرِ وهو أقلُّه
الا يكدَّرُ بالهمومِ ويَمْدَقُ
وعسى قلوبُ أعضلتْ أدواؤها
في قربنا بعد التفرق تفرق
فضل الاقارب : برُّهم وحنوهم
فاذا جفوني فالاباعد ارفق

بيني وبينهم هنات في الحشا
 منها ندوب ما بقيت وما بقوا
 لا تغترر برجائهم ان يُحسنوا
 كم قد رأينا من رجاء يخفق
 خذ ما تراه ودع أحاديث المنى
 ان الاماني فيهم لا تصدق

هذه أبيات تفصح عن الاسباب التي حدث بالامير اسامة الى الرحلة والنزوح
 عن أبيه وبني عشيرته وعن موطنه الذي قضى به شرح شبابه وكان له فيه
 صبايات وبطولات قاد الكتائب ورداً عادية الافرنج وحارب الاعراب من بني كلب
 والحشاشين من الاسماعيليين ، وقضى في ربوعه زهرة حياته وله فيه ذكريات
 ظل يحن اليها ، هذه أبيات هي نفثة مصدور نقّس عن صدره المكروب بهذا الشعر
 الرقيق الحزين للشيخ الذي يلزمه طاعة عمه والبقاء في شيزر فودع أهله
 وأصحابه ورحل :

يذكر ابن الاثير : ج ١١ ص ٨٩ ، قال : « وسعى بينهم المفسدون فغيروا
 كلاً منهما على أخيه فكتب سلطان الى أخيه مرشد أبيات شعر يعاتبه على أشياء
 بلغت عنه فأجابه بشعر في معناه رأيت اثبات ما تمس الحاجة اليه وهي هذه
 الأبيات » :

ظلمت ابنت في الظلم الا تماديا	وفي الصد والهجران الا تغاليا
شكت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها	فياعجباً من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطننا	عصيت عدولا في هواها وواشيا
ومال بهاتيه الجمال الى القلى	وهيهات ان أمسي لها الدهر قاليا
ولا ناسياً ما اودعت من عهودها	وإن هي ابدت جفوةً وتناسيا
ولما اتاني من قريضك جوهر	جمعت المعالي فيه لي والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حيناً لانه	تولى برغمي حين ولى شبايا

إذا رمت أدني القول منه عصايا
ويحفظ عهدي فيهم وذمائيا
نفسى فقد اعدده من ترائيا
وثلم منى صارما كان ماضيا
وقربك منى جفوة وتناسيا
ارى اليأس قد عفى سبيل رجائيا
ولا غيرت هذى السنون وداديا
اراك يميني والانام شماليا
نجوم السماء لم تعدن دراريا
كما زان منظوم اللألي الغوانيا
مشيداً من الاحسان ما كان هاويا

واين من الستين لفظ مفرق
وقلت اخي يرعى بني واسرتي
ويجزيهما ما لم اكلفه فعله
فما لك لما ان حتى الدهر صعدي
تنكرت حتى صار برك قسوة
وأصبحت صفر الكف مما رجوته
على اني ما حلت عما عهدته
فلا غرو عند الحادثات فانني
تحلّ بهاعذراء لو قرنت بها
تحلّت بدرٍ من صفاتك زانها
وعش بانياً للمجد ما كان واهيا

وكان الامر بينهما فيه تماسك فلما توفي مرشد سنة احدى وثلاثين وخمس
مئة قلب اخوه سلطان لاولاده ظهر المجن وبادأهم بما يسؤوهم واخرجهم من شيزر
فتمرقوا وقصد اكثرهم نور الدين» إن خروجهم كان بعد ٥٣٢هـ وبعد حصار الروم
لشيزر ولم يكن نور الدين فى الشام وانما كان معين الدين الذى لقي اسامة
بالترحاب والتكريم كما فصلت ذلك فى موضعه •

الى الموصل الى عماد الدين :

كانت الشام والجزيرة (جزيرة ابن عمر) يوم فارق اسامة اهله مبغرة
لا تؤلف بينهم وحدة ، فى كل بلد قام أمير سمى نفسه ملكا استقل بما تحت يده
وقطع علاقته بالمركز الرئيس الخليفة العباسي أو السلطان السلجوقي وراح يجبى
الاموال وبعد العدة لغزو جيرانه وضم املاكه اليه فى الموصل أمير وفى ديار بكر
حاكم وفى حلب امير وفى الشام ملك وفى حمص وحما أمير وكانت العداوة بين
هؤلاء الامراء شديدة يتخاصمون ويتقاتلون والافرنج من المان وفرنسين وانكليز
وهنغار وسلاف توحد بينهم الكنيسة وتجمع كلمتهم غاية وينجحون بتنفيذ خطتهم

ينتزعون من هؤلاء الامراء المتخاصمين المدينة تلو المدينة ، وفي هذه الاونة التي رحل فيها اسامة ظهر نجم اخذ يضىء وبطل بدأ يجمع القوى ويقضي على الاختلافات هو عماد الدين زنكي حاكم الموصل والعمادية والجزيرة والذي اشتهر بحروبه وانتصاراته على الصليبيين ، فيم اسمامة شطره نحو الموصل والقي اسمامة بنفسه في المعارك تحت لواء المجاهد عماد الدين وخاض معه معارك كثيرة في الجزيرة وارمينيا وحلب ولم يزعجه في هذه الفترة من حياته ويوغر صدره سوى ما كانت تصل اليه من ابناء غضب وانه الشيخ عليه فأرسل الى ابيه ابياتا يطلب فيها رضاه وان لا يصدق قول الوشاة الذين اوغروا صدره منها :

يا ويحَ قلبي من شوق يُقلِّقلُه
الى لقاءك ماذا من نواك لقي

وناظري قرَّحتَ اجفانه اسفاً
عليك في لجةٍ من دمعه غرقِ

وبعد ما بي فأشفاقي يهددني
يشوب رأيك بالتكدير والرنق

وإنَّ قلبك قد رانتَ عليه من الوا
شين بي جفوةً يهماء كالغسقِ

أما كفاهم نوى داري وبعذك عن
عيني وفرقة اخوان الصِّبا الصدُقِ

وانني كل يوم قطبُ معركةٍ
دُرية السمِّ والهندية الذلقِ

اغشى الوغى مفرداً من اسرتي وهم
همُ اذا الخيل خاضت لُجةَ العلقِ

وموضعي منك لا تسمو الوشاة له
ولا يُغيرةُ كيسي ولا حمقي

فاذا رجع عماد الدين من معركة عاد معه اسامة يقضي وقته في القراءة
 والنظم وعاش بالموصل يزور نقيها وعلماءها ويزوره اعيانها وادباؤها صوف
 في هذه الفترة بالرما وميفارين وديار بكر وليف ونصيبين وارمينيا تارة مع عماد
 الدين واخرى بمفرده ودام حاله يحارب بجانب عماد الدين نحو من سبع سنين
 حتى اذا صد ملك الروم حصن شيزر خف الى نجدة عسيرته يدافع الروم مع
 فرسان بني منقذ وذلك سنة ٥٣٢ هـ واذن والده الشيخ فد السحق بالرفيق الاعلى
 وعمه ابو العساكر سلطان ما زال الحاكم فبدل من الشجاعة والبسالة ما كان يظن
 انه سيرضي العم الحافد والروم قد نصبوا نحو الحصن ستة عشر منجنيقا
 وحاصروها ووالوا تصفها بالاحجار الضخمة وقد حكي اسامة فعلها في كتابه
 (الاعتبار) قال « ومن عجيب الاجال لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنين وثلاثين
 وخمس مئة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل وتبلغ
 حجرها ما لا تبلغه النشابة وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً واظهر
 اسامة من البطولة ما جعل اللسن تلهج بذكره من جديد وسارع عماد الدين
 يلاحم الروم ويلاحقهم وينال منهم ويقف بجيشه قبالة الروم واهل القلعة في
 دفاعهم يصمدون حتى انكشف عنهم الروم ورجعوا خائبين فلاحق مؤخرتهم بنو
 منقذ واهل شيزر فنالوا منهم غنائم واسرى واسامة كل يوم يأتي بعظمة تعلي من
 قدره وترفع اسمه عالياً ، وفي انتصارات عماد الدين على الروم يقول ابن
 فسيم الحموي :

الم تر ان كلب الروم لما
 تبين انك الملك الرحيم
 فجاء يطبق القلوات جيشاً
 كأن الجحافل الليلُ البهيم
 وقد نزل الزمان على رضاه
 وكان لخطبه الخطبُ العظيم
 فحين رميته بك في خميس
 يقن ان ذلك لا يدوم

اراد بقاء مهجته فولى وليس سوى الحمام له حميم

وقفل عماد الدين فأستأذنه اسامة في البقاء بجانب عمه واهله ولا سيما بعد ان حرموا رعاية الشيخ الجليل والده ، فأذن له ، فهل نعم اسامة ببقائه الى جانب عمه وهل ذلك الدفاع المجيد والتضحية قد استلت سخيمة صدر العم ، هذا ما سنعرفه في الفصل الآتي :

اسامة يرحل الى الشام :

أبلى اسامة في الدفاع عن شيزر وعن اسرته بلاء حسناً ودافع دفاعاً مشهوداً سار بحديثه الركبان يأمل ان يرضي عمه وينال عطفه الذي عوده من قبل فيخلد الى الاستقرار بين أبناء عشيرته ولا سيما بعد وفاة أبيه سنة ٥٣١ الا ان عمه أبا العساكر تنكر له وجاهره بضرورة الارتحال لأنه كان يرى في بقاءه خطراً على أولاده واعتقد ان ليس لهم سلامة اذا بقي اسامة في شيزر لما كان يراه فيه من المزايا التي تؤهله للرياسة والحكم وخاصة على أولاده ان يتعرضوا للتشريد والحرمان واذن فمن الخير له ولاسامة أن يزعم الرحيل من جديد ، فرضي أن يفارق موطنه فراقاً لا عودة له اليه ولم يشأ أن يرجع الى الموصل وهو الذي اختار فراق عماد الدين الذي كان به حفيًا يفارقه مختاراً برغم ان الأمير كان راغباً بصحبته وعرض عليه أن يعود معه فأثر أن يتوجه الى دمشق وله فيها صديقان يحبانه فيها الأمير شهاب الدين محمود بن بوري بن طفدكين وفيها وزيره معين الدين أنر وكلاهما يجب اسامة وخاصة الوزير ويرحبان بمقدمه ويفرحان باقامته والانضمام الى معسكرهما لفروسيته وغنايه في الحروب فكان ان نال حظوة وقاتل الاعداء وهاجم الصليبيين وأصبح بطل دمشق كما كان بطل شيزر ، ونظر اليه نظر الاجلال ورفع الوزير منزلته وعده أئمن درة في تاج الأمير وعهد اليه في تصريف الشؤون الحربية والادارية فطارت شهرته وتضوع ذكره بين الخاص والعام ونجح في تصريف شؤون الدولة نجاحاً زاد

من تعلق الناس به وعاش عيشة مرفهة ودرت عليه اخلاف الرزق ومع ذلك يعاوده الحنين الى موطنه ويألم لما لقيه من عمه ومن نكران لأيديه وهل يحسب أعداؤه والشامتون برحيله ان ارتحاله ضائره أو ان فيه غضاضة لقدره أو خطأ لمنزلته فما زاده الا نباهة ذكر وعلو همة وهل ارتحاله عن بلاد تنكرت له ولا مثاله هل لساكينها فخر ؟

أظن العِدا أنَّ ارتحاليَ ضائري
ضلالا لما ظنوا وهل يكسدُ التبرُّ

وما زادني بعدي سوى بعد همة
كما زاد نوراً في تباعده البدرُ

ولو كان في طول الثواء فضيلةً
لما انتقلت في افقها الأنجم الزهر

ولو لَزِمَتْ أعمادها البيض ما انجلت
بها غمراتُ الحرب واتضح النصر

وهل في ارتحالي عن بلاد تنكرت
لمثلي أو للساكين بها فخر

وان بلاداً ضاق عني فضاؤها
لأرحب من أكنافها للعُلا فتر

وأرضاً نَبَتَ بي وهي آهلة الربى
هي القفر بل من دون وحشتها القبر

وهل ينكر الأعداء فضلي وإنه
لأسيرُ ذكراً أن يواريه الكفر

الستُ الذي ما زال كهلاً ويفاعاً
له المكرمات الغرُّ والنائل الغمرُ

وخائض وقعاتٍ بوارقها الظُّبَا
ووابلُ هاتيك البروق دم همرُ
يهول الردى مني تقحمي الردى
ويقناده من جأشيَ الرابط الذعر
ولو حكمت بني وبينهم الظُّبَا
رضيت بما تقضي المهندة البُترُ

اسامة فى دمشق :

عاش في دمشق معزراً مكرماً ثماني سنين كان فيها بطل الحروب والقنص
ورجل السياسة والادارة ونال من الجاه والغنى ما فيه السعة والرفاهية وزيادة
فدب الحسد في قلب الخاصة والحاشية وراحوا يأتُمرون به عند الأمير وتألَّب
عليه خصومه ودسوا عليه انه يأتُم بالسلطان ودافع عنه الوزير فما زاد حساده
إلا خصومة وكيداً واضطر الوزير أن يتخلى عنه قال في « الاعتبار » فأقمت فيها
« يريد دمشق » ثماني سنين وشهدت فيها عدة حروب وأجزل لي صاحبها
- رحمه الله - العطية والاقطاع وميزني بالتقريب والاكرام يضاف الى اشتمال
الأمير معين الدين - رحمه الله - علي وملازمتي له ورعايته لاسبابي ثم جرت
أسباب أوجبت مسيري فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله
وفرطت في أملاكي ما كان نكبة اخرى ، كل ذلك والأمير معين الدين محسن
مجمل كثير التأسف على مفارقتي مُقرٌ بالعجز عن امري حتى انه انفذ الي
كاتبه الحاجب محمود المسترشدي - رحمه الله - قال : « والله لو ان معي نصف
الناس لضربت بهم النصف الآخر ، ولو ان معي ثلثهم لضربت الثلثين وما فارقتك
لكن الناس كلهم قد تمالؤا علي ومالي بهم طاقة وحيث كنت فالذي بيننا من
المودة أحسن حال » •

من هذا الذي رواه اسامة تعلم ان المقام لم يصف لاسامة بعد تلك المدة
الطويلة فنا به المكان واستوحش قلبه وهو الرجل الذي ما عرف المكيدات

والمؤامرات وقصيدته بعد فراق دمشق التي أرسلها الى معين الدين أنتر بعد رحيله تفصح بأن الوشايات التي حاكها الحاسدون كانت السبب في رحلته ولاشك

صراحة اسامة :

ان الأمير اسامة كان يعاون هؤلاء الحاسدين بتصرفاته فهو امرؤ ما عرف غير الصراحة والشجاعة لا يحسن الدسائس والمكايد ولا تعجبه المخاتلة فهو مكشوف في ما يأخذ أو يذر وتعاليه على خصومه وترفعه ان ينزل الى مستواهم في الخضوع والتزلف كل ذلك مكن للجفوة ان تحصل فكتب الى معين الدين قصيدة نقبس منها ما يجلي هذه الصلة بين الأمير والوزير قال :

بلغ أميري معينَ الدين مألُكَةً

من نازح الدار ودُّهُ أمم

هل في القضية يامن فضل دولته

وعدل سيرته بين الورى علم

تضيع واجب حقي بعدما شهدت

به النصيحة والأخلاق والخدم

وما ظننتك تنسى حقَ معرفتي

« أن المعارف في أهل النهى ذمم »

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من

وُدِّ وإن جلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم

« حتى استوت عندك الأنوار والظلم »

والله ما نصحووا لما استشرتهم

وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرقوا من مقال في سفارتهم
وكم سعوا بفساد ضلّ سعيهم

أين الحميّة والنفس الايية
ساموك خطة خسف عارها يصم

أسلمتا وسيوف الهند مُعمّدة
ولم يروّ سنان السمهي دم

وكتّ أحسب من والاك في حرم
لا يعترّيه به شيب ولا هرم

وأنّ جارّك جار للسموئل لا
يخنى الأعادي ولا تغتاله النقم

هنا جنينا ذنوباً لا يكفرها
عذر فماذا جنى الأطفال والخدم

القيتهم في يد الافرنج متبّعاً
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

هم الأعادي وراك الله شرهم
وهم بزعمهم الأعوان والخدم

وإذا نهضت الى مجد تؤثله
تقاعدوا فاذا شيدته هدموا

وإن عرتك من الأيام نائبة
فكلهم للذي يكيك مبتسم

حتى اذا ما انجلت عنهم غياها
بحدّ عزمك وهو الصارم الخدم

رَشَفْتِ آجِنَ عَيْشٍ كُلَّهُ كَدْرٌ
وَوَرَدُهُمْ مِنْ نَدَاكَ السَّلْسَلُ الشَّبِيبُ
وَإِنْ أَنَا هُمْ بِقَوْلٍ عَنكَ مُخْتَلِقٌ
وَإِشْرَافُ فَذَلِكَ الَّذِي يَحْيَا وَيَحْتَرَمُ
وَكَلُّ مَنْ مِلْتَ عَنْهُ قَرَّبُوهُ وَمَنْ
وَالْأَكْ فَهُوَ الَّذِي يُقْضَى وَيُهْتَضَمُ
بَغِيًّا وَكُفْرًا لَمَّا أَوْلَيْتَ مِنْ مَنْنٍ
وَمَرَّتَعُ الْبَغِيِّ لَوْلَا جَهْلُهُمْ - وَخِمُ
جَرَبُهُمْ مِثْلَ تَجْرِيْبِي لِتَجْرُبِهِمْ
فَللرَّجَالِ إِذَا مَا جَرَبُوا قِيَمَ
هَلْ فِيهِمْ رَجُلٌ يُغْنِي غِنَايَ إِذَا
جَلَا الْحَوَادِثُ حَدُّ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ
أَمْ فِيهِمْ مَنْ لَهُ فِي الْخَطْبِ ضَاقٌ بِهِ
« فَلَيْتَ أَنَا بِقَدْرِ الْحَبِّ نَقْتَسِمُ »
وَمَا سَخَطْتُ بَعَادِي إِذْ رَضِيْتُ بِهِ
« وَمَا لَجَرَحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ »
وَلَسْتُ أَسَى عَلَى التَّرْحَالِ عَنِ بَلَدٍ
« شَهَبُ الْبُرْزَةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخْمُ »
لَكِنْ فِرَاقُكَ آسَانِي وَأَسْفَنِي
فَفِي الْجَوَانِحِ نَارٌ مِنْهُ تَضْطَرُّمُ
فَأَسْلَمُ فَمَا عَشْتُ لِي فَالْدهرُ طَوْعَ يَدِي
وَكَوَلُ مَا نَالْتَنِي مِنْ بُوْسِهِ نِعَمٌ

بارح اسامة الشام وفي قلبه فيض من الحب لمعين الدين أنر والقصيدة تعرب عن ذلك الحب وان مازجه غتب برىء من الحقد وإن شابه اسى وأسف لمن فارق وحزن لما لقي بعد ذلك الاخلاص فى الخدمة والبلاء فى الحرب والنصح فى السلم ، تذكرنا قصيدته بأخت لها للمتبي الشاعر من نفس امروي والمعنى وقد تأثر بها اسامة حتى ضمنَّ عدداً من ابياتها ولانها تعبر عن عاطفته ومحبتة لمن فارق كما كشفت عن نفس قائلها لمفارقة سيف الدولة الامير الذي أخلص له واحبه بل ربما ان المتبي لم يجب ممدوحاً كما احبَّ سيف الدولة لتوافق ميولهما في الشعر والحرب والادب ♦

ختم الامير اسامة قصيدته القوية المعبرة عن أحاسيسه ولواعج نفسه بعتاب ودعاء ووفاء لا يصدران الا عن نفس نبيلة لا يتسرب اليها الحقد والضعف ♦

فأسلم فما عشت لي فاندهر طوع يدي
وكل ما نالني من يؤسه نِعَمٌ

ترك اسامة دمشق وسافر الى القاهرة فوصل اليها في جمادى الثانية سنة ٥٣٩هـ (تشرين الثاني ١١٤٤م) لا كما وهم الاستاذ الكبير احمد أمين رحمه الله فجعل دخوله مصر ٥٤٩ هـ وهذه السنة هي سنة خروجه من مصر ، أيام الخليفة « الحافظ لدين الله » تصحبه والدته وزوجه واخوه محمد وكانت شهرته قد سبقته الى القصر الفاطمي والى رجال الدولة وقدروا نضاله فأكرمه الخليفة اكراما يليق بمقامه وجهاده وثمان نضاله في الذود عن حمى الاسلام ووصلت اليهم ابناء شجاعته ومواقفه البطولية فى قتال الافرنج لقد أراد الحافظ لدين الله الخليفة الفاطمي ان يجعل من اسامة حاميا يستعين به فى ازماته وفارسا يدافع عنه اعداءه وهم كثيرون يحيطون القصر ويحكمون المدن المصرية الكبرى ، فراح يغدق عليه الاموال والهدايا والتحف ويشركه فى لذاته وسمره وصيده يدخل الى القصر متى شاء ويخب خلفه الفرسان والخدم ويركب سرجا من ذهب عليه اسمه وليس لاحد من القادة او الفرسان سرج من ذهب غير اسامة وعلى اسطبله خمسة

وثلاثون جواداً من الخيل العربية المجربة بسبقها ، ولنسمعه يقص علينا خبر وصوله قال : كان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مئة ، فأقزني الحافظ لدين الله الفاطمي ساعة وصولي فخلع علي بين يدي ودفن لي تحت ثياب ومائة دينار وخولني دخول الحمام وانزلني في دار من دور الافضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس كل ذلك لا يستفاد منه شيء واقمت بها مدة اقامتي في اكرام واحترام وانعام متواصل واقطاع زاج « وكان يرافق الحافظ في صيده وللحافظ جوارح من البزاة والصقور والشواهين وكان لها خدم يخرجون بها للصيد فيصيدون طيور الماء وطيور البر ويصطادون نوعاً من البقر الوحشي يسمونه بقر بني اسرائيل •

وجد اسامة متنفساً له ومزاولة لفروسيته في هذه الحفلات الرياضية والصيد هواية يحن اليها زاولها في شيزر مع والده وعمه أيام السلم وزاولها مع معين الدين في أحراش الشام ، ولكنه برغم هذا المظهر الانيق والعيش الرغيد والرياض والفراش الوثير والخيرات التي تغدق عليه اذا أصبح واذا أمسى فقد ملَّ اسامة هذا الرخاء والتنعيم وهو انما يألف الخشونة والحركة والكر والفر والغزو والضرب ولم يألف المكث والثواء الذي أصابه العفن من طول ما لازمه وانما هو خلق ليكون مسعر حرب كلما خمدت نارها بالبيض والسمر والغارات المتوالية وكيف لا يمل حياته حتى أصبح يشبه نفسه بالعادة المكسال مضجعها وراء السجف والكلل •

نستمع اليه يشكو ملله :

انظر الى صرف دهري كيف عودني
بعد المشيب سوى عاداتي الاول
قد كنت مسعراً حرب كلما خمدت
اذكيتها باقتداح البيض في القلل

همي منازلة الأقران أحسبهم
 فرائسي ، فهمُ مني على وجل
 أمضى على الهول من ليلٍ ، وأهجمُ من
 سيَلٍ ، وأقدمُ في الهيجاء من أجل
 فصرتُ كالعادة المكسال مَضْجَعُهَا
 على الحشَايا وراءَ السجف والكلل
 أروح بعد دروع الحرب في حُلَل
 من الديقي ، فبؤساً لي وللحلل
 وما الرفاهة من رامي ولا أرَبِي
 ولا التَنعم من شاني ولا شغل
 ولست أرضى بلوغ المجد في رفه
 ولا العلى دون حَطْمِ البيض والأسل

هذا حال اسامة أيام « الحافظ » وليت الأمر دام له وكل ما يشكوه هو
 الثواء وانه قد غض من المكث من غير عمل اعتاده من منازلة للأقران يروح ويفدو
 في دروع الحرب والبيض والسمر في لبة الأسد أو صدر فارس عنيد ، ولكن
 الفتن قد توالى والدسائس قد تسعرت وهو وإن كان في معزل عنها ولم يكن من
 جناتها ولكنه بحرها اليوم صال واتهم انه من مدبريها أو له يد في تدبيرها وعلى
 كل فقد لقي منها شراً كثيراً وأوذى في جسمه وماله وأتباعه •

مات الخيفة الفاطمي (الحافظ) وبويح لولي عهده (الظافر) وهو أصغر
 اخوته وعمره سبع عشرة سنة جرى ذلك بتدبير من ابن مصال الوزير
 المغربي لينفرد بالحكم ويحتجز لنفسه السلطة المطلقة والخليفة الجديد غرُ ربي
 على الميوعة واللهو ومعاشرة الجوارى وما كان يعنيه من أمر البلاد وادارتها
 شيء وابن مصال يصرف أمر الدولة وفق ما يشتهي ، وحكام الولايات يطمعون

بالوزارة ولكل منهم نفوذ واتباع في اقليمه وكان اقواهم والي الاسكندرية ابن
السَّلار فجمع جنده وسار الى القاهرة وقتل ابن مصال فخف الخليفة لاستقباله
ووسد اليه الوزارة ولقبه بالملك العادل وإن كان يضر له سوء والكرهية ،
وكان في جنده ومن بين أتباعه رجل عربي من تميم مغربي من صنهاجة اسمه
عباس له صلة بابن السلار فهو زوج امه وكان طموحاً وله ولد اسمه « نصر »
جميل الطلعة أصبح من خلان الخليفة الظافر وندمائه لا يفارقه الا قليلاً فأخذ
الخليفة يوغر صدر صديقه على الوزير الذي اظهر كفاية وجدارة وحزماً
وحبب اليه قتل الوزير ليكون والده عباس مكانه ويغتال عباس وابنه الوزير في
داره وحل مكانه ومن جديد بدأ الخليفة الظافر يوسوس لنصر بن عباس ليغتال
أباه ويوسد اليه الوزارة فيأتمر الوالد والولد فينفذان خطتهما بقتل الخليفة
ويدخل عباس وخلفه الجند فيسأل عن ولي نعمته وحين يخبر بغيابه يحضر
ابنه وهو ابن سبع سنين فيبايعه ويتهم بقتل الخليفة اخويه فيقتلها وهما بريئان
من كل ما كان يجري في القصر من المؤامرات والدسائس ، حياة كلها جرائم
الخليفة يكيد لوزيره والوزير يكيد لولي نعمته ونساء يشتركن في المؤامرات
بمثل هذا الجو المحموم وجد اسامة نفسه فضاق صدره وسئم حياته ، وامتلأ
صدره بالهم والنقمة على نفسه نستمع اليه وهو يشكو الأقدار التي دفعت به
الى مصر :

يا مصرُ ما درتِ في وهمي ولا خلدي

ولا اجالتك خلواتي بأفكاري

ما أنتِ أول أرض مسَّ تربتها

جسمي ولا فيك اوطاني واوطاري

لكن اذا حمت الأقدار كان لها

قوى تؤلف بين الماء والنار

ويصف حياته المملة القلقة بسبب تنقل السلطان من طامع لآخر من مغامر
لثان وهو في وسط هذا الآتون يُصلَى بِنيران هذه الفتى فينعي على حظه
ويلوم نفسه :

خمسون من عمري مضت لم أتعظ
فيها كأنني كنتُ عنها غائباً
وأنتُ عليَّ بمصرٍ عشرٌ بعدها
كانت عظمة كلها وتجاربا
شاهدت من لعب الزمان بأهله
وتقلب الدنيا الرقوب عجائباً

اسامة يجد ما يصبو اليه :

وجد بعض ما يصبو اليه حين ولي ابن السلار الذي وثق به واعتمده ليلقى
الملك العادل نور الدين محمود والذي كان بطل الاسلام بعد أبيه فقد نهى لحرب
الافرنج وغزاهم في عقر قلاعهم واسترد منهم أماكن كثيرة فعهد ابن السلار
الى الأمير اسامة ان يسعى للقاء نور الدين ويوحد الخطة معه لحرب الصليبيين
قال اسامة « وتقدم الى الملك العادل - رحمه الله - بالتجهيز للمسير الى الملك
العادل نور الدين وتأخذ معك مالاً وتمضي اليه لينازل طبرية ويشغل عنا
الافرنج لنخرج من هاهنا نخرب غزة وكان الافرنج خذلهم الله قد شرعوا في
عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، قلت فان اعتذر أو كان له من الاشغال ما يعوقه ؟
أي شيء تأمرني قال إن نزل على طبرية اعطه المال الذي معك وإن كان له مانع
فدَيُون من قدرت عليه من الجند واطلع على عسقلان أقم في قتال الافرنج
واكتب الي بوصولك » (١) .

ولقي اسامة نور الدين وانفذ معه من جنده ودون مائة وستين فارساً

(١) الاعتبار ، ص : ١٠ .

وأخذهم قال (وسرت في وسط بلاد الأفرنج نزل بالبوق ونرحل بالبوق)
 وحارب قرب عسقلان وبيت جبريل وكان أخوه عز الدولة أبو الحسن في جملة
 من كان يقاتل معه (١) ، أقام في حرب الأفرنج أربعة أشهر حتى استدعاه ابن
 السلار فعاد الى مصر وشهد اغتيال الملك العادل الوزير الحازم ، ومقتل الظافر
 ولم يلوث يده في هذه الأحداث ولا كان له رأي فيها ولكن الفتنة أصابته وإن لم
 يكن ممن ظلموا أو اشتروا وهذا شأن الفتن مصداقاً لقوله تعالى (واتقوا فتنة
 لا تُصيننَّ الذين ظلموا منكم خاصة) انما شرها يعم ، نهب الثائرون من
 الجند المغاربة والسودانيين والأعراب داره وفي ذلك يقول :

« فأخذوا من قاعة داري أربعين غرارة جمالية مخاطة فيها من الفضة
 والذهب والكسوات شيء كثير وأخذوا من اصطلي ستة وثلاثين حصاناً وبغلة
 سروجية والكسوات وسروجها وعدتها كاملة وخمسة وعشرين جملاً ، وأخذوا
 من اقطاعي مائتي رأس بقر والف شية واهراء غلة » •

شهد اغتيال الوزير ابن باديس المغربي للخليفة الظافر واجهازه على أخيه
 يقول : (ونحن في الرواق جلوس وفي القصر أكثر من الف رجل من المصريين
 » فما راعنا الا فوج قد خرج من المجلس الى القاعة وصوت السيوف على انسان
 فقلت لغلام لي أرمني ، أبصر من هذا المقتول فمضى ثم عاد وقال « ما هم مسلمون »
 هذا مولاي أبو الأمانة يعني (الأمير جبريل) قد قتلوه ثم خرج عباس وقد أخذ
 رأس الامير يوسف تحت أبطه ورأسه مكشوف وقد ضربه بالسيف والدم
 يפור منه الخ ••• »

وختم قوله (وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي لما جرى فيه
 من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق) ويقول : في القصر الف

(١) بعد رجوع اسامة استشهد اخوه عز الدين •

سيف ما حمت أسيادها ولا حركهم ذلك البغي الذي يدل على رخص قيمة الانسان واسامة ذلك الفارس الشهيم بقي مكتوف اليد لا يحرك ساكناً من هنا جاءت اتهامات المؤرخين وحامت حوله الشبهات والحاضر يرى ما لا يرى الغائب أكبر الظن انه لو كان يملك قوة لما سكت على هذا الظلم الصارخ ، وأعجب من هذا انه يضطر لمصاحبة عباس وابنه نصر يوم فرا الى الشام ليستعينا على طلائع ابن رُزَيْك (١) .

طلائع بن رُزَيْك :

كان أحد أمراء الولايات من العراق ومن أصل أرمني حاد الذكاء يتشيع للمفطميين توصل عن طريق خدمته لهم الى الامارة والحكم فلما قتل الظافر وبويح للفايز كاتبه نساء القصر وكان والياً على المنبة ، فسار بجنده الى القاهرة وتولى الوزارة ولقب بالملك الصالح ، اما عباس وابنه فقد فرا واصطحبا معهما اسامة الذي كان يود لو اتيح له النجاة منهما استغل عباس أخلاق اسامة وفروسيته وطلب اليه أن يناصره وهو في محنته ووعدته بالمرافقة فلم يكنف بذلك فأخذ عليه موثيق مغلظة اضطر ان يلتزمها وما من أخلاق الفارس اسامة أن يخيس بايمانه وفي الطريق خرج عليهم الافرنج فقتل عباس واسر ابنه نصر وجيء به الى مصر فقتل وعلقت جثته على باب زويلة ، واسرُوا نجم الدولة أبا عبدالله محمداً شقيق اسامة وكانت بين ابن رزيك واسامة مودة وصحبة فكتب الى اسامة كتاباً أنفذه مع رسول يقول فيه : « عباس ما يقدر على المقام بمصر بل هو لا محالة سيخرج منها الى الشام وأنا ملك البلاد وأنت تعرف ما بيني وبينك فلا تخرج معه ، فهو بحاجة اليك في الشام يرغبك ويخرجك معه فالله الله لا تصحبه فأنت شريكى في كل خير أناله » وكان ابن باديس عباس يعلم ما كان بين اسامة وطلائع من الاخاء والصداقة ويحسب لبقائه في مصر الف حساب فان في تعاونه مع ابن رُزَيْك تقوية لأمره وافساداً لخططه التي كان يأمل الحصول عليها من نور الدين زنكي ولهذا أصر على ابن منقذ ان يصحبه وكان ما وقع له في طريقه وخروج الافرنج على قافلتهم وقد اسلفت خبر مقتل عباس واسر ابنه وقتله ثم

(١) انظر قصة رحيله الى الشام مع عباس في كتاب الاعتبار .

صلبه اما اسامة فقد جرح في رأسه ونجا من الموت باعجوبة ووصل الى الشام بعد مصاعب ومتاعب فصل خبرها كتب الاعتبار من صفحة ١٣ - ٣٣ ، فليرجع اليها من يريد المزيد •

اسر الافرنج لآخيه وانتهاب امواله :

عاد اسامة الى دمشق سنة ٥٤٩ بعد ان قضى في القاهرة عشر سنين لاقى فيها خيراً كثيراً وشراً أكثر خرج من امواله وأملاكه التي انتهبها الجند السوداني والمغارية ، وصل الى دمشق وهو في اسوأ حال والتحق بجيش نورالدين محمود فأعاد اليه مركزه وأكرمه وقدمه ، وكتبه طلائع ان يرجع الى مصر ويوليه أسوان هذا قبل مجيء عشيرته فأستشار الملك العادل نور الدين فقال له « أما كفك ما لقيت من مصر وفتنها » •

فاعتذر لطلائع وحصل له الملك العادل نور الدين أماناً من « بلدوين الثالث » ملك الصليبيين خطياً أرسله مع أحد أتباعه الى الملك الصالح ابن رزّيك ليسفر أمه وزوجه وأتباعه وكانوا زهاء خمسين بين رجال ونساء وحملوا معهم أموالهم وجواهرهم وذهبهم وسلاح اسامة وقيمتها ثلاثون الف دينار ومن ضمنها مكتبته التي انتخب كتبها بنفسه وجلدها تجليداً متقناً وتعدادها أربعة آلاف مجلد تحتوي على دواوين كثيرة •

سارت بهم سفينة (دمياط) حتى اذا وصلت عكا أرسل بلدوين رجاله فحطموا السفينة وأخذوا ما فيها واتهبوا كتبه وآلمه ضياع أربعة آلاف من الكتب الفاخرة يقول : « فان ذهابها حِزازة في نفسي ما عشت » الاعتبار •

ترك بلدوين لعشيرته خمس مئة دينار توصلهم الى دمشق فوصلها بعد عناء كبير ، ولم يأس على شيء قدر حزنه على أسر أخيه وضياع كتبه ولم يشأ أن يكلف نور الدين من أمره ما يمكن حله عن طريق غيره •

ذكر أبو شامة في كتابه الروضتين ان اسامة كان في « العسكر النوري بحلب فأخبر ان المراكب انكسرت بأهله في ساحل عكا ونهب الافرنج كل ما فيه

ولم يصلوا الى دمشق الا بأنفسهم وان تمتلك الافرنج أعطاهم خمس مئة دينار
أصلحوا منها حالهم واكثروا ظهوراً الى دمشق فقال اسامة :

الى الله أشكو فرقةً دَمِيتُ بها
جفوني وأذكت بالهموم ضميري
تمادت° الى أن لاذت النفس بالمني
وطارت بها الأشواق كل مَطِير
فلما قضى الله اللقاء تعرضتُ
مساءً دهرى في طريق سرورى

استنجد اسامة بناصرالدين :

كتابه الى ابن عمه :-

كتب الى الأمير ناصر تاج الدولة محمد بن أبي العساكر رسالة في صدرها
قصيدة يستتجده بها فكأن ابن عمه نجم الدولة محمد بن مرشد من أساره وهو
القدير على ذلك اما مبادلة مع بعض الاسرى من الفرسان أو يفديه بالمال ويملك
الكثير منه ، قال (١) :

يا ناصر الدين يا ابن الأكرمين ومن
يُغني ندا كفه عن وابل السديم
ومن حوى السبق في فضل وفي ورعٍ
وفي عفاف وفي دين وفي كرم
أنتَ العبيُّ ، على ما فيك من لَسَنِ
عن (لا) وأفصح خلق الله في نعم

(١) ديوان اسامة ص : ١٤٩ .

تولي الجميل بلا مَنْ تَكْدَرُهُ
لا كدَر الله ما أولاك من نِعَمِ

هذا ابن عمك في أسر الفرنج ، له
حول تجرَّم في الأغلال والظلم

يدعوك ، لا بل أنا الداعي نذاك له
يا خير مَنْ علقته كف معتصم

وأنت أكرم من تشبه عاطفة الـ
فربى ويرجوه للجلّى ذوو الرحم

ومن تكن أنت مولاه وناصره
فكيف تسطو عليه كف مهتضم

لاتحوجني الى مَنْ الرجال ، فما
حمل الأيدي وإن اعسرت من شيمي

ولا تظنني أدعو سواك ، ولا
يفوه مجتدياً الا اليك فمي

علام ارتشف الرنق الاجاج وقد
رويت كل صد من بحرك الشيم

أنا ابن عمك ، فاجلني بفك أخي
من اسره لك عبداً ما مشت قدمي

فمليك مثلي لا يغلو بما بذل المتاع
فيه ولا يستام بالقيم

فلم يحركه الشعر ولا سعى في خلاص ابن عمه وادخر الله أجر خلاصه
وحسن ذكره للملك العادل نور الدين فوهب اسامة فارساً من مقدمي

الداوية (١) يقال له : « المشطوب » قد بذل الافرنج فيه عشرة آلاف دينار
فاستخلص به أخاه •

شكوى وذكري :

في هذه الفترة وجد اسامة نفسه يتذكر أيامه في مصر والمحن التي مرت
وكأنها شريط سينمائي وجد في مصر كل ما كان يصبو اليه من جاه وغنى ورفعة
فاذا الأيام تسترد ما أعطته فاذا هو شريد في مهامه محفوفة بالمخاوف والمهالك
واذا هو يفقد كل ما جمع من مال وكتب ومركز فيقول :

نلت في مصرَ ما يرتجي
الآمل : من رفعةٍ ومالٍ وجاء

فأستردتُ ما خولتني وما
أسرع نقص الامور عند التناهي

كنت فيها كأنني في منام
زال منه ما سرَّ عند انتباهي

كان شديد الحنين الى مصر بعد فراقها وكان يتمنى لو انيح له أن يلبي
دعوة صديقه الملك الصالح التي كان يوجهها اليه المرة بعد المرة ، وكان يُطمئه
وينفي عنه تهمة الاشتراك في قتل الظافر ولكن لا ينفي عنه مغبة التقصير وجريرة
الدنو من الاجرب وهو السليم صحبة عباس وابنه نصر •

وحاشاكم ما ختمت العهد مثله
ولا لكم فيما جرى منه من ذنب

ومن مثل ما قد نالكم من دنوه
يحاذر ان تدنو الصحاح من الجرب

(١) الداوية طائفة من الفرسان الصليبيين •

وكان لتبدد ثروته ونهب بعضها في مصر بعد مقتل الظافر ومصادرة ما بقي مع أهله من قبل الأفرنج الذين لا امان لهم ولا عهد ، أسىً وحزن ملاً نفسه غمًا وصدره همًا ، وهو الآن على أبواب الستين وقد مضى زمن القوة والكسب وإن كان الملك العادل قد أنزله دارا واقطعه أرضا وأعلى منزلته فكتب الى صديقه طلائع المعروف بالملك الصالح :

أنا أشكو اليك دهرًا لحى عو
دي واعراه فهو يسس سليب
وخطوباً رمى بها حادث الد
هر سوادي وكلهن مصيب
أذهبت تالدي وطارفي الطا
ري فضاع الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وبحر
ذا غريق فيء وذا منهوب
وابائي أراه حمله المن
ضعيفاً وهو القوي الركوب
ويرى كل منة لسوى الصا
الح غلاً في حمله تعذيب

طلائع واسامة :

وطلائع يوالي هداياه وقصائده التي كانت تنضح عن ودّ مكين واعجاب متبادل كل منهما بالآخر وفي أكثرها كان يكرر دعوته للمجيء الى مصر وراح أخيراً ينشده ان يعمل نفوذه في اقناع نور الدين لاجتماع كلمة مصر والشام وتوحيد الخطة لضرب الأفرنج متساندين :

أنت فيها الشجاع مالك في الـ
واذا ما حرضت فالشاعر المفلد
لك رأي مذقط إن ضعف الر
فانهض الآن مسرعاً فبأ
والقِ عنارسالة عند نور
قصدنا ان يكون منا ومنكم
طعن ولا في الضراب ضريب
ق فيما تقوله والخطيب
أي على حاملي الصليب صليب
مثالك ما زال يدرك المطلوب
الدين ما في القائهما ما يريب
أجل في مسيرنا مضروب

ويلح على اسامة ان يسعى جاهداً لتحقيق هذه الخطة وتوحيد الحرب وان
يحرض نور الدين على اجتماعهما ويرى ان اجتماعهما معاً على حرب العدو
كفيل بأن يلقي بهم في البحر يقول لاسامة في صدر رسالة :

فلو ان نور الدين يجعل فعلنا فيهم مثالا
ويسير الأجناد جهراً كي ننازلهم نزالا
ويضي لنا ولأهل دولته بما قد كان قالا
لرأيت الأفنج طراً في معاقلها اعتبالا
وتجهزوا للسير نحو الغرب أو قصدوا الشمالا

ويقول له :

قد كتبنا اليك فأوضح لنا الآن
بماذا عن الكتاب تجيب
فدينا من العساكر ما ضا ق بأدناهم الفضاء الرحيب
فكتب اليه اسامة :

بالغ العبد في النيابة والتحر
فراى من عزيمة الغزو ما
وأجابته بالصليل سيوف
يض وهو المَفَوَّهُ المقبول
كادت له الأرض والجبال تميل
وظامئات وبالصهيل خيول

ورأى النقع راكداً دون مجرى الشمس والأرض بالجيوش تسيل
كل أرض فيها من الاسد جيش سائر فوقه من السم غيل
فأبق للمسلمين كهفاً وللأفر نبح حثفاً ما أعقب الجيلَ جيلُ

فترة ركود في كنف الملك العادل :

في هذه الفترة التي عاشها اسامة في كنف الملك العادل نور الدين زنكي شارك في القتال وعادت اليه حياة الفروسية زمناً وخذ للراحة أيام الهدنة والسلم وان كانت الفتوة والفروسية ما زالت تتسعر في جسده يحن الى الحرب والى حياة الطعن والضرب والكر والفر أخذ يتشوق الى تلك الأيام التي اذا ثوب فيها داعي الوغى لباه وخف سريعاً لاجابته ينازل الأقران فيردهم وينزل اسمه فيهم الرعب من قبل ضرب هامهم وها هو اليوم تخذله رجله على الركوب ولم تدع الليالي غير قوة احتماله على الشدائد يلقي الرزايا رابط القلب صابراً مجتمع اللب ما خاناه عزمه ولا عزب عنه صبره ولا ارتاع للأحداث •

وكنت إن ثوبَّ داعي الوغى
ليتيه بالطعن والضرب
أشق بالسيف دجى نفعها
شقّ الدياجي مرسل الشهب
انازل الأقران يُردهم
من قبل ضربي هامهم رعي
فلم تدع مني الليالي سوى
صبري على الأواء والخطب
لقى الرزايا رابط الجأش في
أحداثها مجتمع اللب

ما خاتي عزمي ولا غسرنى
صبري ولا ارتاع لها قلبي

يتجلد وينفي عن نفسه الوهن والاستسلام لليأس كي لا يراه الشامتون
ضرعاً لنكبة عرقت اللحم وهل ابتزت منه الأيام سوى مال كان نهباً للندى مباحاً
للنوال ، إن رأى غيره المال ذخراً باقياً فنه يرى ذخر الفتى ان يبغي حمداً
وذكراً •

متى رآني الشامتون ضرعاً
لنكبة تعرفني عرق المدى

هم يعلمون انني اصلب من
صم الصفا ، فما عدا مما بدا

هل بزني الخطب سوى وفري الذي
كان مباحاً للنوال والندا

إن اجمعوا المال فأوعوا أتلقت
يدي طريف ما حوت والنكدا

هم يرون المال ذخراً باقياً
وانما ذكر الفتى أن يحمدا

ويخاطب الذين يحسدون منزلته وينفسون عليه دنوه من الحاكمين
ورفعهم لمقامه ويتنافسون لاكتساب وداده ورفقته وقربه فيقول لهؤلاء :

إن يحسدوا في السلم منز
فبما أهين النفس في
فلطالما أقدمت إقدا
بعزيمة امضى على
لتي من العز المنيف
يوم الوغى بين الصفوف
م الحتوف على الحتوف
حد السيوف من السيوف

في هذه الفترة من حياته لازم الملك العادل نور الدين محمود يشاركه في الغزو ويشير اليه بما فيه مصلحة المسلمين وهو السليم دواعي الصدر من هوى الطائفية صحيح العقيدة لا يبطن كراهية لمذهب ولا ورط نفسه بمثل هذه الانحرافات التي أوهنت قوى المسلمين ورنقت وجه الاسلام الذي يهدي للتي هي أقوم ديدنه خدمة الاسلام والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين فكان دأبه في هذه الفترة يحرض نور الدين على انجاد الملك الصالح ابن رزيك الذي كان يوالي ارسال قصاده يستعين به لحمل نور الدين على حشد قواته لحرب الصليبيين وتوحيد خطة الهجوم فان الحرب ينفرد بها كل أمير على انفراد لا تجدي نفعاً ولا فائدة من ورائها ما دامت متوزعة كل أمير يدفع عن حمى أرضه وامارته فالمصلحة تقضي بتوحيد القوى وتنفيذ الخطة المشتركة بين الملك الصالح والملك العادل وكلاهما يملك أقوى الجيوش ولديهما من الامكانيات في المال والرجال ما يمكنهما من القضاء على امارات الافرنج بذلك توالى في هذه الآونة من حياة اسامة قصاد طلائع واسامة بدوره يحرض نور الدين لعقد هذا الاتفاق واستجابة ملك مصر الفعلي ، يكتب اليه طلائع :

هلا بذلتَ لنا مقاً لا حين لم تبذلِ فعلاً

فيجيبه مؤيد الدولة اسامة ، وهو لا يملك الا القول كما يقول طلائع له :

يا أشرف الوزراء اخلا	قاً وأكرمهم فعلاً
وأعزهم جاراً وأم	نعهم حمىً واجلاً آلاً
وأعمهم جوداً اذا	جادوا وأكثرهم نوالاً
وحمى البلاد بسيفه	عن ان تذل وان تدالا
وآجل بالافرنج في	بر وفي بحر نكالا
حتى لقد سئمو لقا	جيوش مصر والقتالا
نبهت عبداً طالما	نبهته قدراً وحالا
وعتبه فأنتسه	شرفاً ومجداً لن ينالا

لكن ذاك العتبَ يُشعل في جوانحه اشتعلا
أسفاً لمجدٍ مال عنه الى مساءته ومالا
فلو استطاع السعي وهو الفرض لم يرضَ المقالا
ومنها: واسلم لنا حتى نرى لك في بني الدنيا مثالا
واشدد يدك بود نور الدين والحق به الرجالا
فبقيتما للمسلمين حمىً وللدنيا جمالا ،

مطولته على لسان نور الدين :

وكتب اليه الملك الصالح ^(١) قصيدة طويلة يفتخر فيها بوقائمه ومواقفه مع
الافرنج ويسمى سراياه وأسماء مقدميها ويصف نجده وتكيله بالعدو مطلعها :

أبى الله الا ان يدين لنا الدهر

ويخذُ منّا في ملكنا العِزُّ والنصرُ

فلما قرأها نور الدين طلب من اسامة أن يجيب عليها بمعان واشارات أشار
بها اليه ، وقد صادفت رغبة الملك العادل هوى في نفس اسامة اهتبلها ليجزي
نور الدين بعض ما له عليه من أيادي وخاصة سعيه في فكلك أخيه من الأسر
بعد ان خيَّب رجاءه ابن عمه فأنشأ مطولته التي هي ملحمة لحروب الملك
العادل ، وفيها الكثير من المحتوى والوصف لفعاله قال : ^(٢)

أبى الله الا أن يكون لنا الأمر

لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر

وتخدمنا الأيام فيما نرومه

وينقاد طوعاً في أزمّتنا الدهر

(١) ترجم له العماد الكاتب في الخريدة قسم مصر ١٧٣ - ١٨٦

(٢) انظر القصيدة كاملة في ديوان اسامة ص : ٢٠١ - ٢٠٧

وتخضع أعناق الملوك لعزنا
ويرهبها منا على بعدنا الذكر
بحيث حللنا الأمن من كل حادث
وفي سائر الآفاق من بأسنا ذُعر
فأيماننا في السلم سُحبُ مواهب
وفي الحرب سُحبُ وبلهنَّ دمُ همرُ
قَضَت في بني الدنيا قضاءَ زمانها
فسرَّ بها شطرٌ وسيءٌ بها شطرُ
وما في ملوك المسلمين مجاهد
سوانا فما يشيه حرٌّ ولا قرُّ

ومنها :

وثير حشايانا السروج وقمصنا الد
روعُ ومنسوب الخيام لنا قصرُ
ترى الأرض مثل الأفق ، وهي نجومه
وإن حسدتها عزَّها الأنجم الزهرُ
وهمُ الملوكِ البيض والسمر كالدمى
وهمتنا البيض الصوارم والسمرُ
صوارمنا حمرُ المضارب من دمِ
قوائمها من جودنا نضرة خضر
نسير الى الأعداء والطير فوقنا
لها القوتُ من أعدائنا ولنا النصر

فبأس يذوب الصخر من حرّ ناره
ولطف له بالماء ينبجس الصخر'
وجيش اذا لاقى العدو ظننتهم
اسودّ الشرى عنّت لها الأدم' والصقر
ترى كل شهم في الوغى مثل سهمه
نفوذا فما يشيه خوف" ولا كثر
هم الأسد' من بيض الصوارم والقنا
لهم في الوغى الناب الحديدية والظفر
يظنون ان الكفر عصيان أمرنا فما عندهم يوماً لانعامنا كفر
لنا منهم اقدامهم وولأؤهم
ومنّا لهم اكرامهم والندى الغمر'
بنا أْبَدَ الاسلام وازداد عزه
وذل لنا من بعد عزته الكفر

وتمضي المطولة على هذا النحو من السلامة وتساوق المعاني وتميز الالفاظ
وجودة الفخر وصدقه وعمق الوصف للاحداث التي خاضها نور الدين محمود
وتعداد المعارك وأسماء قادة الأفرنج وهزائمهم ومن تركوا أسرى من فرسانهم
وامرائهم ، وما غنم المسلمون من الغنائم والمكاسب وما أحدثته هذه الوقائع
المتلاحقة من الرعب في صدور الصليبيين •

ومنها :

وما كل ملك قادر ذو مهابة
ولا كل ساعٍ يَسْتَتِيبُ له الأمر
رددنا على أهل الشأم رباعهم
وأملاكهم فأنزاح عنهم بها الفقر

فنالهم من عَوْدِهَا الخَيْرُ والغنى
كما نالنا من ردها الأجر والشكر

وأصبحت الآفاق من عدلنا حمى
فكُدْرُ قَطَاها لا يروعها صقر

فكيف تسامينا الملوك الى العلاء
وعزمهمُ سرُّ ووقعاتنا جهرُ

ويختمها :

فقل لملوك الأرض : ما الفخرُ في الذي
تعدونه من فعلكم بل كذا الفخر

الزلزلة العظمى :

اجتاحت بلاد الشام زلازل بدأت تغدو وتروح على المدن الشامية صباحاً
أو مساءً ضحوة أو بعد هداة من الليل من رجب وانتهت في المحرم سنة ٥٥٢
واسامة يومئذٍ في دمشق وقد سلخ من عمره أربعة وستين عاماً ابتدأت تروع
الناس وتدمر مدنهم من العريش مارة بالساحل والداخل فدمرت عدداً كبيراً
من مدن سوريا خربت جزءاً غير قليل من دمشق وكان التخريب والتدمير في
حلب أكثر فلما وصلت حماة وحمص والمعة كان تدميرها شاملاً وكان أشدها
عنفاً ما حل في شيزر وقلعتها فقضت على أغلب سكانها ولم ينج من آل منقذ أحد
الأسرة العربية المسلمة التي لعبت دوراً مشرفاً في الحفاظ على اعالي سوريا
وَقَفَّتْ صامدةً في وجه الأعصار الصليبي ترده عن نفسها وعن البلاد الداخلية
كان ذلك في ضحوة يوم من سنة ٥٥٢ من الشهر الحرام وقد ازين الحصن
لحفل (اعذار) ابن الأمير ناصر الدين حاكم شيزر واجتمع آل منقذ كلهم وقد
ازين القصر وبينما الافراح تقام والقوم في رقص وزمر والطبول تقرع والمزاهر
تجلجل والنساء يزغردن والسرور بالغ بهم غايته واذا القارعة تحل بناديهم واذا

الصاخة تصك مسامعهم فيتسابقون الى باب الحصن فترمح فرس الامير أحدهم
فينسد الباب وما هي الا نوان معدودات او كلمح البصر أو اسرع فاذا بهم قد
غدوا اثراً بعد عين واذا قصورهم تمسّى قبورهم فيهلك أهل اسامة ولم ينج
منهم غير عجوز بقيت لتحدث الناس خبر الفجیعة أو بقيت للشفاء من بعد أهلها •

هول الزلزلة :

ذكر أبو شامة في كتابه الروضتين وهو يتحدث عن هول هذه الزلازل
ومدى تخريبه قال : « بلغني من كثرة الهلكى ان معلما بحماة ذكر له انه فارق
مكتبه لشأن من شؤونه فجاءت الزلزلة فأخربت الدار وسقطت على الصبيان
فقضت على جميعهم وانقضى النهار ولم يأت أحد من أهلهم يسأل عن ولده ،
فتأمل •

وروى أبو شامة ^(١) قال : « قرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة
اسامة بن مرشد بن متقذ في الزلازل التي اهلكت كثيراً من أهل الشام » قال :
وهذه الأبيات قبل أن تحل بأهله وعشيرته الكارثة •

نمنا عن الموت والمعاد وأصبح لنا نظن اليقين أحلاما
فحركت هذي الزلازل أن تيقظوا لم ينم من ناما

وقال :

أيها الغافلون عن سكرة الموت
واذ لا يسوغ في الحلق ريق

كم الى كم هذا التشاغل وال
خفلة ، حار الساري وضل الطريق

انما هزت الزلازل هذي الا
رض بالغافلين كي يستفيقوا

(١) الروضتين ح ٢ : ٢٦٥ •

فلما وصلت الأنباء المفجعة بهلاك أهله صعق لها اسامة وانهدت قواه وبكى أهله أحرَّ بكاءً وتفجع على مصابهم أشدَّ ما يتفجع منكوب فرثاهم بل بكاهم بشعر كثير مثبت في ديوانه من ذلك الشعر القصيدة النونية التي وصف بها أثر الكارثة في نفسه قال : (١)

حائمَ الأيك هيجتنَ أشجانا
فليك أصدقنا بشأ وأشجانا

ومنها :

ما وجدُ صادحة في كل شارقة
تُرَجَّعُ النوحَ في الأفنان ألعانا
كما وجدتُ على قومي تخونَهمُ
ريب المنون ودهرٌ طال ماخانا
إذا نهى الصبرُ دمعي عندَ ذكرهم
قال الأسي : فِضْ وَجُدْ سَحَا وَتَهْتَانَا
قلوا تأسَى ، وما قالوا بمن ، وإذا
أفردت بالرزء ما انفكُ أسوانا
ما حدثتني بالسَّلوان بعدَهمُ
نفسى ولا حان سلوانى ولا آنا
ما استدرجَ الموت قومي في هلاكهمُ
ولا تخرمهم مثنى' ووحدانَا

(١) هدمت الزلازل القلاع والاسوار فانكشفت البلاد أمام الافرنج فقام نور الدين زنكي يعيد الاسوار ويقيم القلاع ووضع يده على حصن شيزر .

فكنت أصبرُ عنهم صبرَ محتسبٍ
وأحملُ الخطبَ فيهم عزَّ أوهانا
واقندي بالورى قلبي فكم فقدوا
أخاً وكم فارقوا أهلاً وجيرانا
لكن سغبَ (١) المنايا وسط جمعهم
رغماً ، فخرُوا على الأذقان اذعانا
وفاجأتهم من الأيام قارعة
سقتهم بكووس الموت ذيفانا (٢)
ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقضوا
هل ما ترى تارك للعين انسانا
أعزز عليَّ بهم من معشر صبرٍ
« عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا (٣) »
لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم
قلباً اجشمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا : مات أسعدنا
وعاش اللهم والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يُخبرني
عنهم فيوضح ما لاقوه تيبانا
بادوا جميعاً وما شادوا فوا عجباً
للخطب أهلك عمَّاراً وعمرانا

(١) السغب : ولد الناقة ورغاً أعول •

(٢) ذيفانا : سمّاً قاتلاً •

(٣) اللوثة : الضعف •

هذي قُصُورُهُمْ أُمست قُبُورُهُمْ
كذالك كانوا بها من قبل سكانا
ويحَ الزلازل أفنتُ معشري فاذا
ذكرتهم خلتي في القوم سكرانا
بني ابي إن تُييدوا أنْ عدا زمنٌ
عليكم دون هذا الخلق عُدوانا
فلن يُييدَ جوى قلبي ولا كمدي
عليكم أو يُييد الدهر ثهلانا
أفسدتمُ عمري الباقي عليَّ فما
أنفكُ فيه كئيب القلب ولهانا
أخّرتُ منكم ، وما يصفو لمنفردِ
عيش ولو نال من رضوان رضوانا
فليتي معهم ، أو ليت انهم
بقواً وما بيننا باقٍ كما كانا
لقيتُ منهم تباريح العقوق كما
لقيت من بعدهم هما وأحزاننا
لولا شماتُ الأعادي عند ذكرهم
لفادرت أدمعي في الأرض غدوانا
أرُدُ فيض دموعي في مسالكها
فتستحيل مياه الدمع نيرانا
لا التقى الدهر من بعد الزلازل ما
بقيت الا كسير القلب حيرانا

أخنت على معشري الأدين فأصطلمت (١)

منهم كهولاً وشباناً وولدانا

كم رام ما أدركته منهم ملك

فعاد باليأس مما رام لهفانا

لم يحممهم حصنهم منها ، ولا رهبت

بأساً تآذره الأقران أزمانا

أناهم قدر لم ينجهم حذر

منه ، وهل حذر منج لمن حانا

إن افقرت شيزر منهم فهم جعلوا

منيع أسوارها بيضاً وخرصانا

هم حموها فلا شاهدها وهم

بها لشاهدت أساداً وخفانا (٢)

كانوا لمن خاف ظلماً أو سطا ملك

كهفياً وللجاني المطلوب جيرانا

علوا بمجدهم سيف بن ذي يزن

كما علت شيزر في العز غمدانا

كانوا ملاذاً لأيتام وأرملة

وبائس فاقدي أهلاً وأوطانا

إذا أتيتهم الظييت شطرهم

مسترفدين وزواراً وضيافانا

(١) اصطلمت : استأصلت .

(٢) خفان : مأسدة غرب الكوفة .

تراهم في الوغى 'أسداً، ويوم ندى
 غيثاً هتوناً، وفي الظلماء، رهباناً (١)
 حاولت كتمان بشي بعد فقدمهم
 فلم يطق قلبي المحزون كتماناً
 لعلّ من يعرف الأمر الذي بعُدت
 بعد التصاقب من جرّاهُ دارانا
 يقول بالظن اذ لم يدرِ ما خلفي
 ولا محافظتي من حان أو بانا
 اسامةٌ لم يسؤهُ فقد معشره
 كم أوغروا صدره غيضاً وأضغانا
 وما درى ان في قلبي لفقدهم
 ناراً تلتظى وفي الأجنان طوفانا
 بنو أبي وبنو عمي ، دمي دمهم
 وإن أروني مناواة وشنّانا
 كانوا جناحي فحسته (٢) الخطوبُ
 واخواني فلم تبقى لي الأيام اخوانا
 كانوا سيوفي اذا نازلتُ حادثةً
 وجنّتي حين ألقى الخطبِ عُرّيانا
 بهم أصولُ على الأمرِ المهول اذا
 عرا والقي عبّوسُ الدهر جذلانا

(١) كناية عن التعبّد والصلاة وقراءة القرآن وقد عرف آل منقذ بتدينهم وسلامة عقيدتهم واسامة برغم خدمته للفاطميين عشر سنين لم يتأثر بالعقيدة الفاطمية .

(٢) الحصص : حلق الشعر .

فكيف بالصبر اي عنهم وقد نظموا
دمعي على فقدم دُرّاً ومَرّجانا
يُطِيبُ النفسَ عنهم أنهم رحلوا
وخلفوني على الأتار عجلانا
سقى نرى أودعوه رحمةً ملأت
مشوى قبورهم رَوْحاً وريحاناً
وألبس الله هاتيك العظام وإن
بلين تحت الثرى عفواً وغفرانا

اسامة يحاول ارضاء بني عمه :

قد يتساءل سائل عما اذا كان اسامة قد حاول اصلاح ما بينه وبين بني عمه ؟ وهل بذل جهداً في سبيل مرضاتهم ولا سيما الحاكم الجديد ناصر الدين ؟ التاريخ يسكت على جواب هذا السؤال وكتاب سيرته لم يتعرضوا للموضوع لا بقليل ولا بكثير ، ولكن شعر اسامة ينجينا ، وفيه دلالة واضحة على انه فعل وبذل ما استطاع بذله فلم تثمر مساعيه واستمرت الجفوة على تلك الحال التي فارق بها شيزر ، يدلنا على ذلك قوله وفيه صراحة انه ملّ عتابهم ويؤس من رضاهم فما أجدى عتابه لهم ولا قدر أن يكسب رضاهم :

ملك عتابهم ويشت منهم
فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادي
كظمت على اذاهم وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيا
كأنني ما سمعت ولا رأيت

تجنواً لي ذنوباً ما جنتها
يداي ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما اضمرت غدرأ
كما قد اظهروه ولا نويت

وبرغم ذلك الجفاء الذي لا قوا به اسامة حين عاد الى قلعة آبائه يدفع عنها زحف الروم وبرغم بلائه وحسن جهاده فانه لم يلق الا الجفاء والرغبة في رحيله ومع ذلك ما نوى لهم شراً ولا أضمر غدرأ وحين وقع أخوه بالأسر انتهزها فرصة لتكون واسطة للصلح فكتب الى ابن عمه ذلك الكتاب الرقيق الذي يهتز له الغريب قبل القريب :

يدعوك ، لا بل أنا الداعي بذاك له
يا خير من علقته كف معتصم

ما أجمل موقع هذا النفي والاضراب (لا بل أنا الداعي) اسامة الداعي ذلك الفارس الذي مضى له تاريخ حافل بالمكرمات وخدمة لا تجدد هو الذي يدعوك لفك أسيره ومن أسيره ابن عمك وفارس من فرسان بني منقذ :

أنا ابن عمك فأجعلني بفك أخي
من أسره لك عبداً ما مشيت قدمي ،

لا تحوجني الى من الرجال فما
حمل الأيادي وإن أعسرت من شيمي

فملك مثلي لا يخلو بما بذل المتاع ، بعد كل هذه الدعوة الضارعة من اسامة وهو في محتته ما حركت دعوته قلب ابن العم وكان نداء الرحم وصرخة الدم حقيقين أن تثيرا حمية ناصر الدين لتلبية نداء ابن عمه ومن المنادي ؟ اسامة

كبير بني منقذ وفارسهم وهو لو استجد بفرسان الافرنج لخفوا لنجدته ها هو
نور الدين يفديه بأسير دفع به الافرنج عشرة آلاف دينار اكراماً لاسامة الذي
لم يشأ أن يحتمل احسانا لغير ابن عمه فحمل الأيادي لغيرهم وإن أعسر ليس من
شيمته ، ومع كل ما قوبل به من الجفوة والنكران لم نجد اسامة قد حقد على
بني عمومته :

بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دمهم
وإن أروني مناواة وشناننا
كانوا سيوفي اذا نازلت حادثة
وجنتي حين القى' الخطب عريانا

حزن عليهم حزناً فارق معه لذائد العيش ورثاهم بشعر دل على جبه لهم
وظل عمره يندبهم ويكي شقوته بعدهم :

ذهبوا ذهب الأمس ما من مخبر
عنهم وزالوا كالظلال الزائل
وبقيت' بمدهم حليف كآبة
مستورة بتجميل وتحامل
سعدوا براحتهم وها أنا بمدهم
في شقوة تُضني وهمّ داخل

ومات له ولده أبو بكر وهو في عشر الثمانين فراح يندب عشيرته ويتوجع
لمصيرهم ويأسى على حاله بعد فراقهم ويألم لحياته الشقية بعدهم :

رمتني في عشر الثمانين نكبة
من الثكل يؤدي حملها من له عشر

على حين أفنى الدهر قومي ولم تنزل
 لهم ذروة العلياء والعدد الدثر
 فلم يبق الا ذكرهم وتأسفي
 عليهم ولن يبقى التأسف والذكر
 وأصبحت لا آل" يلبسون دعوتي
 ولا وطن آوي اليه ولا وفر

اسامة مؤمن بالقدر :

تربية اسامة تربية اسلامية سليمة صريحة لا يتاقي ولا ينافق ربي على الصراحة والفارس بطبيعة تربيته مؤمن بالله وأي شيء يدعو الى الايمان أكثر من الحرب والقتال ، فالأحداث تزيد الفارس ايماناً بالقدر ومن يقرأ كتابه الاعتبار يجد هذه الصفة أو هذه التربية جلية في كتابه يسرد أحداثاً يراها بعينه ويرى أثر القدر بارزاً على نتائجها رجل يقتل أسداً عظيماً يفرغ منه فقتله عقرب بقدر انملة من أنامل يده ورجل يطير نصف وجهه فيجبر ويطيب وهذا آخر كل الدلائل تدل على موته فيطيب ويقاقل وهذا آخر تدل ملامحه انه قد جرح جرحاً لم ينفذ السهم الا قليلاً في جسده فيموت وآخر تنظمه قناة فتنفذ من فخذ فيأخذ السنان بيده ويستمر على القتال ، وعتاب البطل تدخل في يده ابرة فيموت من أثرها وهذا معلم القرية يخرج لشأن من شؤونه فتأتي الزلزلة تقتل أطفال المكتب جميعهم ويسلم هو ، انه القدر يقول بعد التجربة الطويلة والاحداث التي مرت به وعانها بنفسه « ان ركوب الأخطار لا تنقص مدة الأجل المكتوب ولا يظن ظان ان الموت يقدمه ركوب الخطر ولا يؤخره شدة الحذر ففي بقائي أوضح معتبر ، فكم لقيت الأهوال وتقمحت المخاوف والأخطار ولاقيت الفرسان وقتلت الاسود وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام وأنا من الأجل في حصن حصين » :

انظر الى الأيام كيف تسوقنا

قسراً الى الاقرار بالاقدار

ما أوقد ابن طليب قطُّ بداره

ناراً وكان خرابها بالنار (١)

ويقول :

فَوَضَّ الأَمْرَ راضياً جفَّ بالكائن القلم

ليس في الرزق حيلةً انما الرزق بالقِسم

دل رزق الضعيف وهو كلحم على وضم

وافتقار القوي تر هب الاسد في الاجم

ان للمخلق خالقاً لامرداً لما حكم

ويقول :

يا ربَّ : حسنُ رجائي فيك حسنٌ لي

تضيع وقتي في لهوٍ وفي لعب

وأنت قلت لمن أضحى على ثقةٍ

بحسن عفوك اني عند ظنك بي ،

وفال :

أما رأوا قلب الدنيا بنا

وفنكها بمن اليها أخلدا

كم نسفت أيدي الخطوب جبلاً

وصيّرتُ لجة بحر ثمّدا

(١) كتابه عن بخله .

وكم أعادت ذا ثراء معدماً
وذا قليل وعديد مفرداً
عَلِمْتُ ما لم يعلموا ونظرت
عيناى دهري مصدرأ وموردا
فما رأيت غير ظل زائل
كلٌ يمدُّ نحوه جهلاً يداً ،

وقال :

تبارك اسمك كم من آية شَهِدَت
بانك الواحد المستعلي الصمدُ
ما يصبغ الأسود الغريبَ غيرُك مُبَيَضاً ولا يتعاطى صبغه أحدُ

ويرى اسامة ان لكل أمر نهاية وان دوام الحال من المحال لا سرور يدوم
ولا حزن يبقى والحياة تجري وفق ما قدر لها ويتعب نفسه من أراد مغالبة القدر

خفض عليك فللأمور نهاية
والى النهاية كلُّ شىء صائر

ويقول :

ان للخلق خالقاً لا مفرّاً لما حكم

ويقول :

لما رأيت صروف هذا الدهر تلعب بالبرايا
يلغو بها هذا ويهبط ذا وقصرهم المنايا
ورأيته مسترجماً نزر المواهب والعطايا
لانعمة فيه تدوم ولا تدوم به البلايا
لم اغتبط فيه بفائدة ولم أخش الرزايا

ثقل رجله وتفتر همته وتنكسر شرته وتهمد قوته وتختلف نظرتة للحياة ما كان يبهجه ما عاد يغتبط به وما كان يلذذه أصبح لا يلذذه ، نزع الى الزهد من معايشة الحكام ورغب الى التخفف من اعباء عشرة الملوك فالقرب منهم غير مأمون هكذا صار يرى عواقب عشرتهم وبالآ على صاحبها فراح ينادي بصد تجارب قاسية بالبعد عن أبوابهم وايشار الراحة والهدوء بالنأي من سلطانهم فالقرب منهم وإن ملأت هباتهم يدك فهي غير مأمونة العواقب وان أبواب السلطان كالبحر راكبه هو في خوف وحذر :

لا تقربن° باب سلطان وإن ملأت

هباته غير مأمون بها الطرقا

.....

فان أبوابه كالبحر راكبه

مروع القلب يخشى دهره الفرقا

ويقول :

أرضَ الخمول تعش في نجوة

مما تخاف ومن معاندة العدى

ويقول :

« وهجرت مفضى أبوابهم وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ورددت عليهم ما خولوني من نعمتهم لعلمي ان ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وإن سوق الشيخ الكبير لا ينفق على الأمير ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري » حين أصبح في السبعين قال :

لم تترك السبعين° في اقبالها

مني سوى ما لا عليه مؤول

حتى اذا ما عامها عني انقضى
 ووطئت في العام الذي يُستقبل
 حطمت قواي وأوهنتُ من نهضتي
 وكذا بمن طلب السلامة تفعل
 كم قد شهدت من الحروب فليتي
 في بعضها من قبل نكسي أقتلُ
 والقتل أحسن بالفتى من قبل أنْ
 يبلى ، ويفنيه الزمان وأجمل
 وأبيك ما أحجمت عن خوض الردى
 في الحرب يشهد لي بذلك المنْصَلُ

اسامة في « حصن كيفا » :

اختر هذا الحصن وبجانبه مدينة كيفا لموقعه الحصين ومناظره الجميلة
 يقع على دجلة بالقسم الشمالي من ماردين وعلى مسافة من نصيين حكمه زمناً بنو
 منقذ وضم الى أملاك نور الدين محمود عرفه في صدر شبابه يوم كان يقود
 الكتائب مع عماد الدين زنكي فيه مكاتب وكتب قيمة ، في عزلة عن ذلك الصخب
 والمجتمع المضطرب فيمم شطره اليه وأخلد الى الراحة فيه والعبادة والتأليف
 ينهل من كتبها :

ناء عن الأهلين والأوطا ن والأتراب ماتوا
 ولبس عيش المرء فارقه الأجابة واللدات
 فالام أشقى بالبقا ء وكم تعذبني الحياة

في حصن كيفا دب اليه الضعف وارتعشت منه اليد ومشت به السنون
 هاهي خمس وسبعون والثمانون ولم يضعف نظره ولا خبا ذهنه ولا خاتته ذاكرته

نعم ثقلت رجله وثقل القلم في يده فخطه كخط مرتعش الكفين وراح يعجب من
عجزها من حملها القلم وكانت لا تعجز من حمل القنا يحطمها في لبة الاسد :

مع الثمانين عث الدهر في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
اذا كتبتُ فخطي جدٌ مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد
فأعجب لضعف يدي عن حملها قلماً
من بعد حطم القنا في لبة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت
رجلي كأنني اخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طولَ مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد

فَعكف في « كيفا » على البحث والدرس والتأليف وفي مدى احدى عشر
سنة من ٥٦٠ هـ - ٥٧١ هـ كتب كتباً قيمة منها أتمها في كيفا ومنها أتمها أو بدأها
في دمشق عند عودته اليها برغبة من صلاح الدين الذي كان به حفيواً .

الف سبعة عشر كتاباً وجمع شعره في جزئين رتبته بنفسه حسب الموضوعات
ولم يلتزم به الوحدة الفنية للقصيدة وانما وزع أجزاءها وفق خطته على أبواب
الموضوعات وكل موضوع رتبته على الحروف الهجائية ، خلف مجموعة مفيدة من
المؤلفات القيمة خدم فيها الثقافة العامة في العربية والأدب والتاريخ والاجتماع
وسجل أحداث زمانه وحرابه وتجاربه في كتابه (الاعتبار) آخر أيامه ، وصل
اليها من كتبه بعضها وضاع أكثرها وربما كانت في خزانات الشرق أو الغرب والأيام
قد تكشف عنها كما كشفت عن أخوات لها ما كانت معروفة قبل سنين خلت
فعرف ديوانه وطبع وعرى اللباب والمنازل والديار ، وكتاب البديع والاعتبار

وكتاب العصا - وسعي المعينين بالمخطوطات كفيل باخراج المخزون في المكتبات
الخاصة أو العامة في الشرق والغرب •

عودة اسامة الى دمشق :

هذه العزلة التي اختارها الامير اسامة لم تدم له قطعها عليه صلاح الدين
الايوبي الذي يرى فيه بطل الاسلام والقائد المنقذ فاستقبله استقبالاََ حسناً وأنزله
منزلاًََ رجباًََ واقطعه اقطاعاََ يدر عليه المال واعاد اليه أرضاََ كانت له في المرة ،
ولنستمع اليه يحدثنا عن هذه العودة قال :

(أعجزني وهن السنين عن خدمة السلاطين فهجرت مغشى أبوابهم وقطعت
أسبابي من أسبابهم واستقلت من خدمتهم ورددت عليهم ما خولوني من نعمهم
لعلمي ان ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وان سوق الشيخ الكبير
لا ينفق لدى الأمير ، ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري ، ورضيت نفسي
بالانفراد في العربة ومفارقة الاوطان والتربة الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها
وصبرت صبر الاسد على قيده والظمان ذي الغلة عن ورده ، فناداني اليه مكاتبه
مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين جامع كلمة
الاسلام ، قامع عبدة الصلبان رافع علم العدل والاحسان محيي دولة امير المؤمنين
أبي المظفر يوسف بن أيوب - جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه وأيدهم
بماضي سيوفه وآرائه وأضفى عليهم وارف ظلّه كما أصفى لهم من الاكدار موارد
فضله وانفذ في البسيطة عالي أوامره ونواهيه وحكّم صوارمه في أعناق أعاديه ،
برحمة نقتب عني في البلاد ، ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الارض
لا مل لدي ولا أهل ، فاستقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل وحملني الى
بابه العالي بأنعامه العامر الجزيل ، وجبراًََ ما هاضه الزمان مني ونفق على كرمه
ما كسد عليّ من سواه من علوّ سني ، فغمزني بغرائب الغرائب وانهبني من
أنعامه أهني المواهب حتى رعى لي بفائض الكرم ما أسلفت سواه من الخدم ،
فهو يعتدّ لي ويرعاه رعاية من كأنه شاهدَه ، فعطاياه تطرقني وأنا راقد وتسري

الي وأنا محتسب قاعد ، فانا من انعامه كل يوم في مزيد واكرام كتكرمة الأهل وأنا أقل العيد ، امتني جميل رأيه حادث الحادثات وأخلف لي أنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته ما يعجز الاعناق حمل أيسر منته ، ولم يُبق لي وجوده أملاً أرجو نيله ، أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله والرحمة التي تدارك بها العباد ، واحيا بركتها البلاد ، والسلطان الذي أحيا سنة الخلفاء الراشدين ، وأقام عمود الدولة والدين ، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين مأوه والجواد الذي لا ينقطع مع تتابع الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الامة من سيوفه في حمى منيع ، ومن أنعامه في ربيع مريع ومن عدله في أنوار تكشف عنهم ظلم الظلم وتكف بسطة يد المعتدي الغاشم ، ومن دولته القاهرة في ظل وارفي وفي سعود متتابع آنف في أثر سالف « أدنى السلطان مجلسه وآنسه وجلسه وذاكره واستمع له واستشاره في أمور الحرب والسلم فاذا مضى الى الغزو كاتبه وأخبره بوقائعه وكان صلاح الدين مشغولاً بقراءة ديوانه وتأمل أفكاره واستحسان قصائده وديوانه لا يفارقه في حله وترحاله ، لما يرى في شعره من الوضوح وفي معانيه من السمو وفي نسجه من البلاغة ، وكان الامير مرهف بن اسامة من فرسان صلاح الدين وأصحابه يلازمه أيام السلم والحرب •

يلازمه أيام السلم والحرب :

يقول العماد الكاتب : « حتى أعاده الله الى دمشق » يعني اسامة « أيام الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة سبعين (٥٧٠) ولم يزل مشغولاً بذكره مستهتراً باشاعة نظمه ونثره والامير العضد مرهف ولد الامير مؤيد الدولة جلسه ونديمه وأنيسه فاستدعاه الى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين « عاش في ظل السلطان مكرماً يملئ كتبه وينظم ويؤلف ولكن التسعين - وبلَّغتها - قد أثقلت حياته فسئم طول العمر وغدا يضجر من الدعاء له :

واذا دعوت بطول عمر لامرئ

فأعلم بأنك قد دعوت عليه

هذه أيام الهرم تمضى والسنون تتوالى واسامة يملي مذكراته أو قل ذكرياته ، ويؤلف كتاب اللباب واعتقد انه بدأ به أيام سكناه « كيفا » لأن الكتاب يحتاج الى جمع وتقليم للدواوين ونقل يعجز عنه من كان في عمر اسامة •

عاش أيامه الأخيرة قليلا للحياة كارها لعمره الطويل والهرم مرض والموت رحمة الله العظمى كما عبر عنه شاعرنا الرصافي حتى اذا كان الثالث والعشرون من رمضان سنة ٥٨٤ (تشرين الاول سنة ١١٨٨) توفي اسامة بعد ان عمر ستة وتسعين عاما ودفن في سفح جبل قاسيون بدمشق في العام الثاني للفتح الاعظم والانتصار الاعم انتصار صلاح الدين ودخوله بيت المقدس منتصراً واسترجاعه فلسطين من يد الصليبيين وما كان يتم لصلاح الدين التغلب على الافرنج لو لم يوحد المنطقة كلها ويقضي على اولئك الامراء المتناحرين ، لو لم يوحد قوى مصر وسوريا ويسخر غنى مصر في سبيل تنفيذ خطته الرامية الى طرد الغزاة من بلاد المسلمين ، بدأ أولاً بتأديب الامراء والقضاء عليهم الواحد بعد الآخر وضم جيوشهم الى جيشه وبعث فيهم روح التضحية والتطوع في سبيل اعلاء كلمة الاسلام بذلك انتصر في حروبه حتى تكمل جهاده بفتح المقدس ، كان الامراء الحاكمون في الشام والجزيرة والموصل وديار بكر يكيد بعضهم للبعض الآخر وربما استعان أحدهم بالافرنج على جيرانه من أجل أطماع دنيئة هي شهوة الحكم من جهة واختفاء صوت الضمير في أنفسهم من جهة ثانية يرضى أحدهم أن يدفع الجزية للامير الصليبي لقاء معاونته على غزو جاره هذا حال اولئك الامراء بعد موت نور الدين فبدأ صلاح الدين بهم والى أن جمع شملهم ووحد البلاد تحت قيادته الحكيمة عاد الى منازل الصليبيين والجيوش تندفق عليه من أربيل الى أسوان شأن امراء الأمس شأن عملاء الاستعمار اليوم وهل أضعنا اولى القبلتين وخسرنا معركة فلسطين الا بعامل انقسامنا الى دويلات وامارات متناحرة وحكام عملاء لا يؤمنون بحقهم ولا يخلصون لامتهم ، ما لم يتخلص الوطن العربي من خياناتهم وما لم يتوحدوا قولاً وفعلًا فلن نستطيع التغلب على الاستعمار وربيبته اسرائيل •

يحمد اسامة ربه على عمره الطويل لانه رأى صلاح الدين :

حمدت على طول عمري المشييا
وإن كنت أكثر في الذنوبا
لأنني حُيِّتُ الى ان لقيت
بعد العدو صديقاً حياً

أقوال العلماء :

أثنى العلماء وكتاب السير القدماء والمحدثون على اسامة وأجمعت كلمتهم على انه فارس ، كريم ، شاعر واسع الاطلاع ذو أدب جم وخلق سمح وترفع عن الخلافات المذهبية والتحزبات الطائفية ، لا يرضى لنفسه أن تنزل الى مستوى خصومات العامة ، ترفع عن الهجاء فلم تجد في ديوانه هجاء أحد أو غمز اسان حفاظاً على قدره أن يسف الى درك الخصومات ، بعيداً عن التيه والتعالي على غيره ، حلو المعشر يحبه من يخالطه ويشتاقه من يسمع أخباره ويعجب به من يقرأ ديوانه •

قال العماد الكاتب :

اسامة كأسمه في قوة ثرده ونظمه ، يلوح من كلامه اماره الامارة ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، ونشر له علم العلم ، ورقى سلم السلم ، ولزم طريقه السلامة ، وتكذب سبل الملامة ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، كنت أتمنى أبداً لقياه واشيم على البعد حيا حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين^(١) وسألته عن مولده فقال يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة •

وقال الذهبي في تاريخ الاسلام : اسامة « أحد أبطال الاسلام ورئيس الشعراء الأعلام » •

(١) ٥٧١ يوم قفل من حصن كيفا الى دمشق وعاش فيها أيامه الاخيرة بكنف الناصر صلاح الدين •

وقال ياقوت الحموي في معجم الأدباء « وفي بني منقذ امراء شعراء لكن اسامة أشعرهم » •

وقال العماد الاصفهاني : هذا مؤيد الدولة من الامراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظماء وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الاسلام •

وقال الحافظ ابن عساكر :

« اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره ، وقل لي أبو عبدالله محمد بن الحسن الملحي : ان الامير مؤيد الدولة اسامة شاعر أهل الدهر مالك عنان النظم والثر متصرف في معانيه لاحق بطبقة أبيه ليس يستقصى وصفه بمعان ، ولا يعبر عنها بلسان فقصائده الطوال لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد ، ولا ينكر على منشدها نسبتها الى لييد ، وهي على طرف لسانه ، يحسن بيانها ، غير محتفل بطولها ولا يتعثر لفظه في شيء من فضولها ، واما المقطعات فأحلى من الشهد وألذ من النوم بعد طول السهد في كل معنى غريب وشرح عجيب ، وقد سمع منه الكبراء والاجلاء منهم الحافظ أبو سعيد السمعاني ٥٦٦ - ٥٧١ والحافظ ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن « ٤٩٩ الى ٥٧١ صاحب تأريخ دمشق • والعماد^(١) الكاتب الاصبهاني القرشي كاتب الانشاء لدى الناصر صلاح الدين •

• والحافظ المقدسي (٥١١ - ٦٠٠)

والأمير مزهف بن اسامة وله شعر وأدب قال عنه ياقوت انه رآه في مصر وباعه من كتبه ورأى أوسع مكتبة في بيته •

ومنهم الناصر صلاح الدين الذي كان مشغولاً بذكره مشتهراً باشاعة نظمه ونثره فاستدعاه الى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين •

(١) محمد بن حامد الاصفهاني القرشي (٥١٩ - ٥٩٧) •

وقال العماد الاصفهاني :

ولم تنزل بنو منقذ ملاك شيزر ، وقد جمعوا السيادة والمفخر ، وكلهم من الاجواد الامجاد ، وما فيهم الا ذو فضل وبذل ، واحسان وعدل ، وما منهم الا من له نظم مطبوع ، وشعر مصنوع ، وامن له قصيدة وله مقطوع وهذا مؤيد الدولة اعرقهم في الحسب ، واعرفهم بالادب •

الحافظ ابو سعد السمعاني عبدالكريم بن محمد (٥٠٦ - ٥٦٢) وهو صاحب كتاب الانساب •

والحافظ بن عساكر وهو ابو القاسم علي بن الحسن (٤٩٩ - ٥٧١هـ) صاحب تاريخ دمشق •

والعماد الكاتب واسمه محمد بن محمد بن حامد (٥١٩ - ٥٩٧) •
صاحب الخريدة

والحافظ عبدالغني بن عبدالواحد ، المقدسي (٥١١ - ٦٠٠) وغيرهم كثيرون •
قال العماد الكاتب :

« فلما جاء مؤيد الدولة أنزله أرحب منزل وأورده أعذب منهل وملكه من أعمال المعرة ضيقة كانت قديماً تجري في أملاكه وأعطاه بدمشق داراً وادراً وأذا كان (ريد السلطان) بدمشق جالسه وآنسه وذاكره في الأدب ودارسه ، وكان ذا رأي وتجربة وحنكة مهذبة ، فهو يستشيره في نوابه ويستشير برأيه في غيابه ، وإذا غاب عنه في غزواته ، كتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته ، واستخرج رأيه في كشف مهماته وحل مشكلاته » هذه شهادة تعدل الف شهادة لأنها من معاصر برىء من الغرض وسلم صدره من الحسد ، وهي بالوقت الذي تنزل اسامة منزله وتشيد بمكانته وعلمه فانها تعطينا صورة لعبقريه صلاح الدين التي عرفت لذوي الفضل اقدارهم وقدرت مواهبهم وجمعت منهم كل ذي زكاته وعلم وبيان ، فجمع من حوله عدداً من عظماء الرجال وشد اليهم القيادة والادارة والتخطيط فكان يصدر عن مشورتهم ويعمل بالصالح من آرائهم وهذا سر

نجاحه وشهرته اضافة الى ما وهبه الله من قابليات فذة ، وأنت تستطيع ان تعرف الرجل من أعوانه وأقرانه فالعظيم يجمع من حوله العظماء والتافه يركن الى أمثاله من التافهين ، ويا ويل أمة يصرف أمرها التافهون ، فان أبعد الصالحون من أهل الرأي فبالأشرار تنقاد الى الهاوية طبعاً .

أقوال المحدثين :

وقال فليب حتي :

عاش اسامة شهماً فارساً ، وزها مجاهداً مقاتلاً ، ولمع أدبياً وشاعراً ، تلمهى سياداً وقضى الكثير من سنينه جواباً .

مقدمة الاعتبار

وقال احمد محمد شامر :

بنو منقذ اسرة مجيدة نشأ فيها رجال كبار ، كلهم فارس شجاع ، وكلهم شاعر أديب وكانوا ملوكاً في أطراف حلب ، ونشأ اسامة في كنف أبيه وعمه وجدته وفي وسط اسرة من أعظم الاسر العربية اكثر رجالها فرسان محاربون ، ربه أبود على الشجاعة والفتوة والرجولة ومرته على الفروسية والقتال ، فأخرج منه فارساً كاملاً وسياسياً ماهراً ورجلاً ثابتاً كالرواسي لا تزغزه الاغصير ، ولا تهوله النكبات والرزايا .

مقدمة لباب الألباب

وقال أحمد أمين :

حتى اذا مرن « اسامة » نازل الاسود والضياع ، وعرف طبائع الاسود ومنازلتها ، وكما تعلم اسامة القتال في الصيد تعلمه في الانسان .
أجاد في حياته حرب النخوص ، وشهد في شبابه حرب العواطف فحُب وتيمم الحب ونعم بالوصال كما غنى به لحره .
كل يوم غارة منه بغيرها ، وغارة على قومه يردها يخرج يوماً يقاتل الاعراب ويوما ينازل الافرنج ، ويوما يقاتل فيسقتل ويوما ينهزم ويجرح .

فيض الخاطر ج ٤/٦٢٢

رأى اسامة رجله لا تحمله على ركوب المخاطر ويده ضعفت عن حمل
الرمح والسيف وهو الذي تعود الاضواء والاطراء فاذا فاته ميدان الفروسية
فليركن الى ميدان آخر تقوى رجله على المشي اليه وتهوى نفسه التزود منه ويده
قادرة على حمله ذلك هو ميدان الكتاب وقد تزود منه بقسط وافر منذ حداثة
وتعلم اصوله وفروعه وحفظ عيون الأدب والشعر ، والشهرة من طريق هذا الميدان
لا تقل عن الشهرة عن ميدان الكر والفر والغزو والقتال ، وهذا ما أقبل عليه
اسامة بنهم وصبر ودأب يقرأ ويستوعب ويكتب ويستكتب ويملي يوم ارتعشت
أصابعه وعجزت يده عن حمل القلم بعد ان كانت لا تعجز عن حمل السيف
والترس ، وهو القائل :

لم يبق العمر مني منّة

القي بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفت قواي وخانني الثقفا

ن من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت اني حامل

جبالاً وأمشي إن مشيت مقيدا

وأدب في كفي العصا وعهدتها

في الحرب تحمل أسراً ومهندا

عكف على الدرس والقراءة والكتابة في مكبات « كيفا » وهو على أبواب
الثمانين ولم يفارق الكتاب يده الى ما بعد التسعين وأملى كتابه الاعتبار في هذا
السن الفاني فخلف من بعده قائمة بثمانية عشر كتاباً وصل اليها منها عدد ضئيل
الا ان فيه الفناء للحكم على ثقافة اسامة وغزارة شعره واطلاعه الواسع على
معارف عصره .

نشره الاستاذ « درنبرغ » بليدين سنة ١٨٩٣ ثم نشره الدكتور فليب حتي
نشرةً أصح ضبطاً وأوفى تحقيقاً طبعه بمطبعة جامعة « برنستون » بأمريكا سنة
١٩٣٠^(١) سجل فيه ذكرياته ومشاهداته وتجاربه وما لقي من حروب ومعارك
في صدق وأمانة بروي ماله وما عليه ويشيد بالبطولة والشجاعة ويعترف لأصحابه ولو
كانوا من أعدائه ، ويسجل الوقائع الجماعية والفردية ويقص علينا الأحداث التي
مرت به أو عاناها بنفسه أو وقعت لأصدقائه وأعدائه ويحدثنا فيه عن طبائع
الأفرنج وعاداتهم وانعدام غيرتهم في امور لا يتسامح فيها المسلمون .

قيمة الكتاب انه يعد من أهم مصادر التاريخ لتلك الحقبة كنه وقد نيف
على التسعين والأصح انه أملاه من ذاكرته بعد ان أصبحت يده لا تقوى على
حمل القلم وكانت لا ينوؤها حمل الرمح والحسام .

فأعجب لضعف يدي من حملها قلماً

من بعد حطم القنا في لبة الأسد

٢ - كتاب لباب الالباب :

وهذا الكتاب من مؤلفاته المتأخرة جمع مادته وهو في كيفية ترتيبه وأخرجه
بعد ان عاد الى دمشق وقسمه الى ابواب ذكر في كل باب ما ورد فيه من القرآن
الكريم ثم الحديث الشريف ثم ما ورد من الآثار الادبية فيه نثراً وشعراً ، منها
ما ورد في كتب الادب ومنها ما لم نجد نصوصه الا في كتاب اللباب ومنها أحداث
حدثت له عاناها بنفسه أو سمعها أو شاهدها وضعه على سبعة أبواب : في الوصايا ،
في السياسة في الكرم ، في الشجاعة في الادب والاخلاق ، وفي البلاغة وفي الحكمة
وأورد نماذج من كلام الرسول ومنتخبات من كلام البلغاء ، وذكر كثيراً من

(١) نشرت ترجمته الروسية بقلم م. سياليه في بتروغراد سنة ١٩٢٢ .
وظهرت للاعتبار ترجمة المانية بقلم شومان اعتمد فيها الكاتب على الترجمة
الافرنسية .

عيون الشعر وشواهد من بليغ القول ، والكتاب فيه دلالة واضحة على سعة ثقافة المؤلف وحضور ذهنه وكثرة محفوظه كما يدل على ذوق رفيع في منتخباته .
حققه ونشره الاستاذ احمد محمد شاكر وتم طبعه في القاهرة سنة ١٩٣٥
نشرته مكتبة لويس سر كيس بن مطبعة الرخمانية .

٣ - كتاب البديع (١) :

نشره وحققه الدكتوران احمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد ، من كتب التراث التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي ، جمع فيه اسامة ما تفرق في كتب المتقدمين في نقد اشعر وذكر محاسنه وعيوبه وذكر المبديع خمسة وتسعين فصلاً أو نوعاً ، وأورد نماذج للبديع وأنواعه وللأسلوب طبع سنة ١٩٦١

٤ - كتاب المنازل والديار :

تقول عنه دائرة المعارف الاسلامية أنه ترجمة كتبها عن نفسه بعد أن اجتاحت الزلزلة منازل أهله وديارهم ، الفه عام ٥٦٨ ويتضمن شواهد شعرية كثيرة في المنازل والديار والاطلال والربيع والدمن والرسم وقد حققت النسخة لجنة في المكتب الاسلامي للطباعة والنشر .

٥ - (مختصر مناقب امير المؤمنين عمر بن الخطاب) وينسب لحميد ابن مالك بن منقذ (٢) .

٦ - (مختصر مناقب امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز) وينسب لحميد ابن مالك بن منقذ لاجابه بسيرة الخلفين الصالحين العادلين وما قاما به من اعمال باهرة وخدمة للإسلام والمسلمين ، ولم يتها لهما من يقوم بتحقيقهما ونشرهما .

(١) منه نسخة خطية ببرلين ٧٢٧٧ ومنه نسخة بمكتبة بلدية الاسكندرية
١٧ أدب (بعنوان : في نقد الشعر) وله مختصر بعنوان مختصر مقدمة الشعر
منه مخطوطة بليدين ٢٩٣ .

(٢) بروكلمن الذيل ١ : ٥٥٢ .

٧ - كتاب العسا سماه ناشر ومحقق اللباب كتاب القضاء وخطاً ياقوت الحموي ويظهر لي ان الاستاذ احمد محمد شاكر لم يطلع على الكتاب وقد نشره المستشرق (درنبرغ) في باريس سنة ١٨٩٣ ونشره محققا الاستاذ عبدالسلام هارون على نسخة خطية في نوادر المخطوطات بعنوانه القديم (كتاب العسا) .

٨ - « التآسي والتسلي » اشار اليه في لباب الآداب ص ٢٩٤ ٤٦٠ .

٩ - الشيب والشباب :- اشار اليه في اللباب من (٣٧٧) وذكر ياقوت انه

الفه لايه .

١٠ - النوم والاحلام :- اشار اليه في الاعتبار ص ١٨٦ .

١١ - ازهار الانهار :- ذكره صاحب كشف الظنون .

١٢ - التأريخ البدري جمع فيه اسما من شهد بدرأ من الفريقين وقد

سماه فليب حتي (ا لتاريخ البلدي) .

١٣ - التجائر المربحة والمساعي المنجحة ذكره فليب حتي واحمد

محمد شاكر .

١٤ - تاريخ القلاع والحصون ذكره الدكتور فليب حتي .

١٥ - نصيحة الرعاة ذكره الدكتور فليب حتي .

١٦ - أخبار النساء ذكره الدكتور فليب حتي .

١٧ - أخبار البلدان - ذكره الذهبي .

١٨ - أخبار بني منقذ - ذكر ياقوت انه رآه .

١٩ - الديوان : قام بتحقيقه وقدم له الدكتوران احمد بدوي وحامد

عبدالمجيد ، وتم طبعه بالمطبعة الاميرية سنة ١٩٥٣ .

٢٠ - كتاب فضائل الخلفاء الراشدين ذكره اسامة في كتاب لباب الآداب

ص ١٧٣ .

الكتاب يعتمدون الاعتبار :

هذه المجموعة من كتبه المطبوعة الى عهد قريب ما كان معروفاً منها غير كتاب

(الاعتبار) ولذلك وجدت جميع الذين كتبوا عنه ونشروا مقالات عن سيرته انما

كانوا يعتمدون « الاعتبار » والخريدة أو ياقوت تبعت 'مقالاتهم في الرسالة والكتاب والمقتطف والثقافة وغيرها فكانوا يسيرون في درب واحد باختلاف في الأسلوب يرددون جملاً قالها العماد ونقلها ياقوت وابن خلكان ، والى عهد قريب يحسبون العسا هو كتاب القضاء والكتاب طبع في فرنسا منذ ١٨٩٣ وآخر من الكاتبين يظن كتاب « المنازل والديار » انه ترجمة كتبها عن نفسه والواقع الكتاب لا يمت من قريب أو بعيد الى الترجمة أو السيرة بسبب وربما وردت له بعض أخبار يرويها اسامة عن مشاهداته •

اريد ان اقول ان هذه المجموعة من الكتب التي عثرت عليها والتي توفرت من عهد قريب يسرت لي أن أقف على معلومات جد قيمة لا غنى لمن يريد أن يكتب سيرة لاسامة ان يلمّ بأطراف اخباره وأحواله ان يرجع اليها وعندي ان شعره المجموع في ديوانه أو المنشور في الخريدة هو مفتاح شخصيته والموضح للملامح سيرته منه نعرف مركزه الاجتماعي بين بني قومه ومن مراسلاته ومن مدحه أو مدحهم له نطلع على احداث عصره وكتاب اللباب والبديع والمنازل والديار نخرج منها بحكم على ثقافة المؤلف وسعة معارفه ، وانفراده بمنتخبات ومقتطفات لم تجدها في كتاب آخر من كتب الأدب ، ومن يدري لعل السنين القادمة تكشف عن بقية مؤلفاته ، ويومئذ يجد الباحث فيها ما لم يتوفق الى معرفته والاحاطة به «وفوق كل ذي علم عليم» لكنني اجزم ان كتاب الاعتبار والديوان بقيان الاساس أو حجر الزاوية لمفتاح سيرته وتاريخه •

الأَعْتَبَار

في اخريات أيامه كانت تتردد الذكريات في ذاكرته ويقص بعض احداثها في أسماره لسماره ، يعجب لحاله خاض أعنف المعارك ورمى بنفسه على الموت غير هيب ولا وجل وما دخل واقعة وحسب انه سينجو فيها من الموت ، كم تقحم المخاوف وكم لقي الاهوال والاطار وكم قارع الفرسان وقتل الاقران وضرب بالسيف وطاعن بالمرهفات وطعن بالسنان وجرح بالسهم وهو كما قال : « وأنا من الأجل في حصن حصين الى ان بلغت تمام التسعين فرأيت الصحة والبقاء كما قال عليه الصلاة والسلام « كفى ^(١) بالصحة داء » فأعقت النجاة من الاهوال ما هو اصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك في كنه الجيش اسهل من تكاليف العيش ، استرجعت الحياة بطول الحياة سائر محبوب اللذات وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد » فأسمى كما قال :

إذا كتبت فخطي جدًّا مضطرب

كخط مرتعش الكفين مرتعد

فلم يشأ الأمير أن تذهب ذكرياته وتجاربه مع الريح ، وحرص ان يسجلها ولا يترك الايام تُعفيَ عليها ، فراح يسترجع صورها ويتذكر أحداثها سواء ما كان منها في الاشتباكات الحربية مع الافرنج أو الحشاشين أو المغامرات في صيد الوحوش وعلى رأسها السبع في غابات وأحراش شيزر حرص قبل ان تنطفيء جذوة حياته ان يقص للأجيال من بعده تلك الذكريات الحافلة بجلال الاعمال ويستخلص منها العبر والاعتبار حفل ان يسجلها بأحداثها كما هي منوخيا في روايتها الصدق والأمانة يرويها كما وقعت بلغة عصره من غير تزويق أو اصباغ صورها ساذجة كما هي وكما عاناها فجاءت بارعة حية مجسدة حتى جعلنا تمثل شخصها وكأننا نشاهد تحركاتهم وكأننا نعيش بينهم ونتحرك معهم ، هي قدرة الفنان البارع والقصاص القدير ، وما كان يدور بخلده ان يكتب سيرة لحياته

(١) لم أجده في الصحاح .

وما كان يعنيه ذلك بقدر ما كان يعنيه تسجيل الاحداث التي عاشها واستخلاص
الاعتبار منها •

صور لنا في كتاب الاعتبار صورة دقيقة لنظرة المسلمين الى الافرنج في زمانه
يتخذ منهم أصدقاء لشجاعتهم وفروسيتهن وفي أوقات السلم والهدنة يتزاورون
ويختلطون ويتنعمون مما يجدونه عند المسلمين من مدينة وحضارة و صناعة •

يعجب لشجاعتهم ويقول ليس لهم من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ينتقد
أخلاق ملكهم (تنكرد) لاخلاله بالأمان الذي أعطاه ويهاجم بلدوين ملك
أورشليم لأسره أخيه وسلبه لاموال اسرته وقد أعطاهم الأمان •

حفل الكتاب بتفصيلات تاريخية واجتماعية وتربوية وحضارية لم يلتفت
اليها كتاب الوفيات وأغفلها المؤرخون لتاريخ العام ، في كتاب الاعتبار تجارب
اسامة وقد امتدت حتى جاوزت التسعين من الاعوام وتشعبت وتعددت نواحيها فقد
جاب أكثر الاقطار الاسلامية حركة واصطراعاً في فترة كثر فيها الفتن وتسمرت
فيها الحروب وقامت دول واحتفت دول ولعب على مسرحها ملوك وامراء مغامرون
ومجاهدون صادقون يخافون الله محتسين فيما يقدمون من مال ودم رضى الله
واليوم الآخر واعلاء شأن المسلمين •

تشابكت مصالح وتقسمت المنطقة اطماع ونزوات وشهوات وقامت له مع
أكثرهم وشائج صداقة ومشاركات في حروبهم وحتى في منازعاتهم ، صحب عماد
الدين في حروبه ورافق معين الدين أنسر في جهاده مع الافرنج وعائش الأتراك
والسلاجقة وانضم الى الخليفة الفاطمي وشاهد الفتن التي دبرها ابن السلار ضد
ابن مصال • وقاد العساكر في عسقلان وبيت جزيل واكتوى بنيران الفتن التي
دبرها عباس وآسى لمقتل الخليفة الظاهر شهد ثورة الجند على الوزير الصنهاجي وابنه
وصاحب نور الدين وحارب في صفه ، وحج الى القدس وخالط فرسان الافرنج
وحج الى بيت الله وزار بطريقه بغداد وأقبل على التأليف في حصن كيفا ، وتوج
أيامه الاخيرة بصحبة بطل الاسلام الناصر صلاح الدين وقرت عينه قبل انقطاع
جدوته بالفتح الأعظم بالانتصار على الصليبيين في البيت المقدس ذاق على يد الناصر

الدعة والهناء وخلو البال ، فحفزته هذه الدعة أن يملي كتابه « الاعتبار » . وصف فيه تجاربه وقص علينا حياته في اسلوب قصصي مثير .

حقق الكتاب المؤرخ الدكتور فليب حتي على النسخة المحفوظة في مكتبة الاسكوريال (١) بأسبانيا وطبعه في مطبعة جامعة برنستون في الولايات المتحدة ١٩٣٠ واعد طبعة بالافست السيد قاسم الرجب صاحب مكتبة المثني في عداد الكتب النادرة القيمة التي أعاد طبعها ويسر قراءتها للناس بعد ان فقدت من الاسواق وتعالق أمنائها بحيث لا يتسنى للاغنياء شراؤها بله أمثالنا من اصحاب الدخل المحدود ، فيسرنا مشكوراً فغصم وغنمنا ، وقدمه الدكتور حتي بمقدمة مفصلة ودراسة مستوعبة كانت خير تعريف للكتاب ووضع للكتاب فهارس للاعلام والمواقع والحق به خريطة للمنطقة التي دارت على مسرحها الاحداث ووضع عناوين للموضوعات أفادت القارىء ويسرت مراجعة الكتاب (٢) .

من فصول الكتاب :

تربية اسامة البيتية :

عقد اسامة فصلاً في كتابه تحدث فيه عن الطريقة التي ربي عليها منذ حداثة قال في ص ١٠٣ وما بعدها :

« ما رأيت الوالد رحمه الله نهائي عن قتال ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى في وأرى من اشفاقه وايثاره لي ، ولقد رأيت يوماً وكان عندنا رهائن عن بغدوين (بلدوين) ملك الصليبيين في اورشليم - على قطعة قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب مارددين كانوا فرسان افرنج وأرمن وقوا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر

(١) أنظر كتابنا محمد كرد على عن مكتبة الاسكوريال .

(٢) أنظر الاعتبار المقدمة ص : س س ونشر فليب حتي الكتاب مترجماً

للالنكليزية عن المخطوطة التي حققها .

فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم ، أخذوهم ، ووقع الصائح فركب عمي وأبي رحمهما الله ووقفا وكل من يصل اليهما سيرا من خلفهم ، وجئت أنا فقال لي أبي اتبعهم بمن معك ، وارموا انفسكم عليهم واستخلصوا رهائتكم ، وعجبت من قوله : ارموا نفوسكم عليهم « وعجب اسامة ناشيء من شجاعة الاب وحسن تربيته لم يحذر ولده ولا نهاء عن ركوب الاخطار شأن الكثيرين من الآباء اشفاقا على أولادهم من التعرض للمهالك فيشبون جناء لا يعتمدون على أنفسهم •

ويقول : « مرة كنت معه رحمه الله وهو واقف في قاعة الدار ، واذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلماً كان في جانب الدار اسندته تحت الحية وصعدت اليها وهو يراني فلا ينهاني ، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي وطرحتها على رقبة الحية ، وبين وجهي وبينها دون الذراع وجعلت أحزُّ رأسها وخرجت التفتت على يدي الى أن قطعت رأسها والقيتها الى الدار وهي ميتة •

« بل ورأيت رحمه الله وقد خرجنا يوماً لقتل أسد ظهر على الجسر ثم وقف وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ رحمه الله بين الاسد وبين موكب ابي وعمي رحمهما الله ، ومعهما الجند ، والاسد قد ربض على جرف النهر يتضرب بصدرة على الارض ويهدر ، فحملت عليه فصاح عليّ أبي رحمه الله لا تستقبله يا مجنون فيأخذك قطعته فلا والله ما تحرك من مكانه ومات موضعه فما رأيت نهاني عن قتال غير ذلك اليوم » •

عمّ اسامة يتفقد حضور ذهنه :

وقال : « كان عمي عز الدين رحمه الله يتفقد مني حضور فكري في القتال ويمتحنني بالمسألة ، فتحن في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة ، وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب فجرد عمي من العسكر نحواً من ستين أو سبعين فارساً وقال لي خذهم وسر اليهم فمضينا نتراكض ، والتقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي

كانوا عليه ، ونفذت فارساً من اصحابي الى عمي وابي رحمهما الله وهما واقفان ومعهما العسكر وراجل كثير ، أقول لهما سيرا بالرجالة فقد كسرتهم فسارا الي فلما قربا حملنا عليهم كسرناهم ورموا خيلهم في « الشارون » (من روافد العاص) وعبروه سباحة وهو زائد ومضوا ، وعدنا بالنصر ، فقال لي عمي أي شيء نفذت تقول لي ؟ قلت نفذت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم ، فقال مع من نفذت الي ؟ قلت مع رجب العبد ، قال صدقت ، ما أراك الا حاضر القلب .

وفي قتال آخر طعن اسامة فارساً اسمه علوان العراقي وكان من الفرسان المدودين فسأله عمه ليختبر حضور ذهنه « فلما انفصل القتال قال لي عمي اين طغنت علوان العراقي ؟ قلت أردت ظهره فمال الهواء بالبيرق فوق الرمح في جانبه ، قال صدقت ما كنت الا حاضر القلب » .

*

حضور الذهن : امثلة

ضرب مثلاً لحضور الذهن وقوة القلب كيف ينجي صاحبه من الفزع والمهالك قال : « ركبنا ، بعض الايام من شيزر الى الصيد وعمي رحمه الله معنا وجماعة من العسكر فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج فحمل عليه رجل جندي كردي يقال له « زهر الدولة بختار القبرصي » سمي بذلك للطف خلقته وكان رحمه الله من فرسان المسلمين فاستقبله السبع فحاص به الحصان فرماه وجاء السبع وهو ملقى فرفع رجله فتلقمها السبع ، وبادرناه ، فقتلناه واستخلصناه وهو سالم ، فقلنا له : يا زهر الدولة لم رفعت رجلك الى فم السبع ؟ قال جسمي كما ترونه ضعيف نحيف وعلي ثوب وغلالة وما في أكسى من رجلي فيها الرانات والخف والساق فقلت اشغله بها عن اضلاعي الى أن يفرج الله تعالى » فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول فالانسان أحوج الى العقل من كل ما سواه في مثل هذه المهالك .

الرعب يقتل صاحبه :

قال « خلق الله عزاً وجل خلقه اطواراً مختلفي الخلق والطباع منهم ، الابيض والاسود والجميل والقيح والطويل والقصير والنفوي والضعيف ، واشجاع والخبان بمقتضى حكمته وعموم قدرته ، رأيت بعض اولاد الامراء التركمان الذين كانوا فى خدمة ملك الامراء اتابك زنكي (عماد الدين) رحمه الله ، وقد اصابته نشابة ما دخلت فى جلده مقدار شعيرة فأسترخى وانحلت اعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه وهو رجل مثل الاسد ، واجسم ما يكون من الرجال فأحضروا له الطيب والجراثحي فقال الطيب ما به بأس ، بل متى ما خرج ثانية مات ، فهدأ وركب وتصرف كما كان ثم اصابته نشابة اخرى بعد مدة أحقر من الاولى واقل نكاية فمات ، قتله الذعر قبل ان يقتله السهم وكم قد قتل الخوف والرعب ضعاف الانفس .

اسامة على استعداد للقتال :

قال : « ان ملك الامراء زيكي رحمه الله نزل على دمشق فى سنة ثنتين وثلاثين وخمس مئة بأرض داريا وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بوري فى الوصول اليه ، وقد خرج من بعلبك متوجها الى خدمة اتابك فبلغه ان عسكر دمشق خرج يريد اخذه ، فأمر صلاح الدين الفسياني ان نركب لملقائه ودفع الدمشقيين عنه فجاءني رسوله فى الليل يقول اركب وخيمتي الى جانب خيمته فركبت فى الوقت فقال : (أكنت علمت بركوبى ؟ قلت لا والله ، قال الساعة نفذت اليك (اى ارسلت) فركبت فى الوقت ؟ قلت يا مولاي حصاني يأكل شعيره ويلجمه الركابي ويقعد وهو فى يده على باب خيمتي ، وانا البس عدتي واتخذ سيفي وانام ، فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقنى ، »

كلب يخلص صاحبه من الاسد :

« من عجيب امور السباع ان اسداً ظهر عندنا فى شيزر فخرجنا اليه ،

ومعنا رجاله من أهل شيزر فيهم غلام ومع ذلك الغلام كلب له فخرج الأسد على الخيل فجلت قدماه حافلة فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه فوثب الكلب على ظهر الأسد فنفر عن الرجل وعاد إلى الأجمة وخرج الغلام بين يدي والدي يضحك وقال يا مولاي وحياتك ما جرحني ولا آذاني « وقتلنا الأسد ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه إلا انقطع قلبه « قتله الرعب •

الافرنج لا مزية لهم إلا الشجاعة :

« الافرنج - خذلهم الله - ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة وإذا خبر الانسان أمور الافرنج سبح الله تعالى وقدمه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل « هذا بالمقارنة إلى ما كان عليه شرقنا العربي من حضارة مزدهرة وعمران باذخ وغيره على الاحساب والانساب ، قال :

« ومن الافرنج تبدوا وعاشروا المسلمين فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم ، نفذت صاحباً لي إلى انطاكية في شغل وكان بها الرئيس «نادروس» بني وبينه صداقة وهو نافذ الحكم في انطاكية فقال لصاحبي يوماً ، دعاني صديق من الافرنج تجيء معي حتى ترى زيهم ، قال فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الافرنج وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وانه بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاما في غاية النظافة والجودة ، ورأيت متوقفاً عن الأكل فقال كل طيب النفس فانا ما أكل من طعام الافرنج ولي طبابخات مصريات ما أكل إلا من طهيهن ولا يدخل داري لحم الخنزير « •

ويقول : « فكل قريب العهد بالبلاد الافرنجية احفى اخلاقاً من الذين تبدوا وعاشروا المسلمين فمن جفاء اخلاقهم - قبحهم الله - اني كنت ازور البيت المقدس ، دخلت إلى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة فكنت اذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية (الفرسان) وهم اصداقائي يعخلون لي ذلك المسجد اصلي فيه فدخلته يوماً فكبرت ووقفت في

الصلاة فهجم علي واحد من الافرنج ، مسكني وردّ وجهي الى الشرق وقال كذا صل ، فتبادراليه قوم من الداوية اخذوه اخرجوه عني وعدت الى الصلاة فأغفلهم وعاد هجم عليّ ورد وجهي الى الشرق فعاد الداوية اليه واخرجوه واعتذروا اليّ وقالوا هذا غريب وصل من بلاد الافرنج حديثاً في هذه الايام، وما رأى من يصلى الى غير الشرق فقلت حسبي من الصلاة ، هذه نظرات اجتماعية تعطينا صورة فيها دلالة واضحة الى ما كانت عليه حالة الافرنج من التخلف وتكشف لنا عن اعتزاز اسلافنا بأنفسهم وبرقي مجتمعهم وثقافتهم ، وتفصح عن صلوات اسلافنا بالافرنج ايام هذه الحروب القاسية فعلى مدى الايام خفّ التحصب فراح الطرفان المتخاصمان يتزاوران ويتتفع كل طرف بما عند الاخر من أمور نافعة .

مثل علي جهلهم :

قال اسامة : ان اخي عزالدولة ابا الحسن عليا اخرج حصانا في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من الافرنج يعيش في كفرطاب ، فبقي عنده سنة ثم مات ، فأرسل الينا يطلب ثمنه .

قلنا : اشتريته وركبته ومات عندك كيف تطلب ثمنه ؟

قال : انتم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة ، فعجبنا من جهله وسخافة عقله » .

اما عن تفسخ اخلاقهم وقلة غيرتهم وعدم مبالاتهم بالشرف وقلة نخوتهم فالحديث عنه يطول راجع الاعتبار

من عجيب طبهم :

« من عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة^(١) كتب الى عمي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرض اصحابه فارسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت فما غاب

(١) المنيطرة تقع بالقرب من منبع نهر ابراهيم في شمال لبنان .

عشرة أيام حتى عاد فقلنا له ما اسرع ما داويت المرضى ؟ قال احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقتها نشاف « بله » فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة وصلحت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طيب افرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم وقال للفارس ، أيما احب اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين قال اعيش برجل واحدة قال احضروا لى فارسا قويا وقاسا قاطعا فحضر الفارس والفأس فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله ضربة واحدة اقطعها فضربه وانا اراه ضربه واحدة ما انقطعت ضربه ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته ، وابصر المرأة فقال هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من اكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف فقال الشيطان قد دخل في رأسها فأخذ موسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر العظم وحكه بالملح فماتت في وقتها ، فقلت لهم بقي لكم الي حاجة قالوا لا فجئت وتعلمت من طبهم ما لم اكن اعرف •

ويحكى اسامة ما يدل على براعة بعض اطبائهم قال :

« وشاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان عندنا بشيزر صائح يقال له ابو الفتح له ولد قد طلع في رقبته خنازير وكلما ختم موضع فتح موضع فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه فرآه رجل افرنجي فسأله عنه فقال هو ولدى قال : تحلف بدينك ان وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من احد تداويه به اجرة فحلف ، فقال له تأخذ اشنانا غير مطحون تحرقه وتربّه بالزيت والخل الحاذق وتداريه حتى يأكل الموضع ثم خذ الرصاص المحرق وربّه بالسمن ثم داوه به فهو يبرئه ، فداواه بذلك فبريء وختمت تلك الجراح وعاد الى ما كان عليه من الصحة ، وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وازاله ما كان يشكوه ، هذه صفة بارزة في اسامة هي الانصاف لا يبخس الناس اشيائهم ولو كانوا اعداءه ايام الحرب •

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام ربور (وليم ربور) صاحب طبرية وكان مقدما فيهم واتفق انه رافق الامير معين الدين أثير رحمه الله من عكا الى

طبرية وانا معه فحدثنا فى الطريق قال كان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر
فمرض واشرف على الموت فجبنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا تجيء منا حتى
تبصر الفارس فلانا ، قال نعم ، ومضى معنا ونحن نتحقق أنه اذا حط يده اليه
عوفي فلما رآه قال اعطوني سمعا فأحضرنا له قليلا منه فليئنه وعمله مثل عقد
الاصبع وعمل كل واحدة فى جانب انفه فمات الفارس فقلنا له قد مات ؟ قال
نعم ، كان يتعذب سددت انفه حتى يموت ويستريح ، فأتمل •

منزلة الفارس عند الافرنج :

كان اسامة يعجب لشجاعتهم ويكرر قوله « ليس لهم من فضائل سوى
الشجاعة » ويمجب بنظرهم واحترامهم الى الفارس والفروسية واجلال أهلها
« فليس عندهم منزلة عالية الا للفرسان ولا عندهم ناس الا الفرسان فهم أصحاب
الرأى وأصحاب القضاء ، حكى أنه مرة تعدى قوم منهم على قطان غنم للمسلمين
وكان بينهم وبين الافرنج صلح وهدنة فرفع امرهم الى ملكهم «فلك» الخامس ملك
القدس « فأختار الملك ستة من فرسانهم ليحكموا فى هذه القضية فخرجوا
من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيتهم كلهم على شىء واحد ، وعادوا
الى مجلس الملك فقالوا : قد حكمنا بغرامة ما اتلف من غنمهم وهذا الحكم بعد
ان تعقد الفرسان ما يقدر أحد - ولو كان من مقدمي الافرنج - ان يغيره ولا
ينقضه فالفارس أمر عظيم عندهم ، •

ويصف افراحهم واعيادهم ومراتهم وتعصبهم لجنسهم ودينهم ورخص
الانفس عندهم ، ويصف غريب طباعهم ولا تعجبه اخلاقهم وغلظتهم ولكن
يشيد بشجاعتهم •

اختباراته وملاحظاته :

فى الفصل الذى عقده للكلام عن اختباراته وملاحظاته دليل على ما متّع
الله سبحانه اسامة من ذكاء وفهم وبراعة ويستخلص من هذه الاختبارات مواضع

الاعتبار فترى احكامه فى غاية الصواب والعدل ، يقص علينا أمثلة لاختلاف الناس فى مشاربهم وطباعهم وميولهم وضعفهم وقوتهم ، رجل يخاف من الفصد وآخر ينشر ساقه بمنشار كيلا تتلف فداواها وبرئت ، ورجل يخشى فارة وغيره ينازل السباع ، وثالث لا يقوى ان يرى حية ويغمى عليه اذا رآها وآخر يمسكها من رقبتها ويحز رأسها أو يطوح بها ويقتلها وآخر تنخسه ابرة فيموت ورجل يشق بطنه بموسى فيشفى من مرض السقاء ، واورت على هذا التباين والاختلاف أمثلة رآها بنفسه أو سمعها ممن يثق به .

قال : « ان رجلا من كنانة حدثني بحصن الجسر ان رجلا فى الحصن استقى (١) فشق بطنه فبريء وعاد صحيحا كما كان فقلت له اريد ابصره واستخبره (٢) عن حاله وكيف فعل بنفسه فأحضره ذلك الرجل عندي ، فقال « انا رجل صلوك وحيد استقى جوفي وكبرت حاله حتى عجزت عن التصرف وتبرمت بالحياة فأخذت موسى وضربت به فوق سرتي فى عرض جوفي شققته فخرج منه قدر طباختين ماء (يعنى قدرين) وما زال الماء ينز منه حتى ضم جوفي فخيطة وداويت الجرح فبريء فزال ما كان بي ، واراني موضع الشق فى جوفه اطول من شبر ، ولا شبهة ان هذا الرجل له فى الارض رزق يستوفيه فقد رأيت من استقى وفصد الطيب جوفه فخرج منه الماء كما خرج من الذى يزل نفسه الا أنه مات من ذلك الفصد لكن الاجل حصن حصين ، » .

ومن عجائب الاقدار :

قاتل اسد تقتله عقربة :

قال : « كان عندنا اخوان من اصحابنا يقال لهما بنو الرعام رجالة يترددان من شيزر الى اللاذقية لعمى عز الدولة ابي المرهف نصر ، وفيها أخوه عز الدين

(١) اصابه داء الاستسقاء .

(٢) هذا الخبر وأشباه له يدلنا على ان اسامة كان يجمع مادة كسابه

(الاعتبار) منذ عهد بعيد .

ابو العساكر سلطان (في شيزر) يترددان بينهما بالكتب قالا خرجنا من اللاذقية فأشرفنا من عقبة « المندة » وهي عقبة عالية تستشرف على ما تحتها من الوطا فرأينا السبع وهو رابض على نهر تلك العقبة ، فوقنا مكانا ما نجسر على النزول من خوف الاسد ، فرأينا رجلا قد أقبل فصحنا اليه ولوحنا بشيابنا اليه نحذره من الاسد فما سمعنا واوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى اليه فأراه الاسد فوثب اليه فضربه ما اخطأ قلبه فقتله ومشى اليه فتم قله ، وأخذ نشابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زربوله^(١) وخلع ثيابه ونزل اغتسل في الماء ثم طلع لبس ثيابه وجعل ينفض شعره لينشفه من الماء ثم لبس فردة زربوله واتكى على جنبه وطول في الاتكاء فقلنا والله ما قصر ولكن على من يتيه ؟ ونزلنا البر وهو على حاله فوجدناه ميتا ما ندري ما اصابه فنزعنا فردة الزربول من رجله فاذا فيه عقربة صغيرة قد لسعته في ابهامه فمات لوقته ، فعجبنا من ذلك الجبار الذي قتل الاسد وقتلته عقرب مثل الاصبع فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق ، •

ومن غريب الآجال :

قال : « لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمسة مئة ، نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل وتبلغ حجرا ما لم تبلغه النشابة ولقد رموا مرة دار صاحب لبي يقال له يوسف بن ابي الغريب رحمه الله فهدمت علوها وسفلها واحد بحجر وكان على برج دار الامير قنطارية^(٢) فيها راية منصوبة وطريق الناس في الحصن من تحتها فضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرها من نصفها وانقلب كسرهما الذي فيه السنان تنكس ووقع الى الطريق ورجل من اصحابنا عابر فوق السنان من ذلك العلو وفيه نصف القنطارية في ترقوته الى الارض وقتله ، وضربت حجر المنجنيق رجلا من اصحابنا كسرت رجله فحملوه الى بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن فقال : هاتوا المجبر ، وكان بشيزر صانع يقال له يحيى

(١) الزربول كلمة يونانية معناها الحذاء •

(٢) القنطارية الرمح •

صانع في التجبير مخضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب الحصن
فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته ، فدخل المجبر الى الدهليز فقال
عمي ما أسرع ما جبرته قاله يامولاي جاءته حجر « نانية اغنته عن التجبير » .
النصر من الله :

يقول : النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى ، لا بترتيب ولا بتدبير ولا
بكثره ولا نصير وكنت اذا بعثني عمي رحمه الله لقتال اترك او افرنج اقول له
يامولاي أمرني بما اتدبر به اذا لقيت العدو فيقول يا بني الحرب تدبر نفسها وصدق ،
وضرب مثلا حكاية الصليبيين الذين امتلكوا قرية الجسر برغم ما كان بينهم وبين آل
منقذ من صلح ، وصادف رجوع عمه وابيه ولم يكن معهما الا مماليك عشرة صبيان
وهم في جمع كبير قال :

« فلما اشرف ابي وعمي رحمهما الله على الجسر كبر اهل الحصن وصاحوا
فالقى الله سبحانه على الافرنج الرعب والخذلان وذهلوا عن الموضع الذي عبروا
منه ورموا خيلهم وهم بدروعهم وسلاحهم عليها في غير مخاض ففرق منهم جماعة
كثيرة » .

لا ينبغي للمرء ان يفتر بشجاعته :

يقول : (لقد سرت مع عمي رحمه الله اغرنا على « افامية » فقتلنا منهم قدر
عشرين رجلا ورأيت جمعة النميري وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج
وخرج الرمح الى فخذة ونفذ الى خلفه فأنكسرت القنطارية فيه ، فهالني فقال : لا بأس
انا سالم ومسك سنان القنطارية وجذبه منه ، فقلت يا ابا محمود اشتهي اتقرب من
الحصن ابصره قال سر : فرحت انا وهو نخب فرسينا فلما اشرفنا على الحصن
اذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق فقال لي جمعة قف اريك
ما اصنع بهم قلت ما هذا انصاف نحمل عليهم انا وانت ، قال سر فحملنا عليهم
فهزمناهم ورجعنا نحن نرى انا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا فوقفنا على ذلك
الشرف (أي المرتفع) ننظر الحصن فما راعنا الا رويجل^(١) قد طلع علينا من ذلك

(١) تصغير رجل .

السند معه قوس ونشاب فرمانا ولا سبيل اليه فهزنا والله ما صدقنا نتخلص منه
وخيلنا سالمين .

مروءة اسامة في افتداء الاسرى :

قال رحمه الله : « كنت اتردد الى ملك الافرنج في الصلح بينه وبين جمال
الدين محمد بن تاج الملوك . . . فكان الافرنج يسوقون اسارهم الي لاشرتهم
فكنت اشترى منهم من سهل الله تعالى خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام
جيا - وليام - في موكب له يغزى فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو أربع مئة
نفس رجال ونساء فكان يجيء اقوام مع مالكمهم فأشترى منهم من قدرت على
شرايه وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم ، فسألت عنه فقيل لي هو رجل
زاهد صاحبه دباغ فقلت له بكم تبغني هذا ؟ قال وحق ديني ما ابغى الا هو وهذا
الشيخ جملة كما اشتريتها بثلاثة واربعين دينارا فأشتريتها واشتريت لي منهم
نفرا واشتريت للامير ووزنت ما كان معي وضمنت علي الباقي . وجئت الى دمشق
فقلت للامير معين الدين رحمه الله اشتريت لك اسارى ان اردتهم وزنت ثمنهم
والاوزنته انا قال لا بل انا ازن والله ثمنهم وانا ارغب الناس في ثوابهم وكان
رحمه الله اسرع الناس الى فعل الخير وكسب الثوبة ووزن ثمنهم ، وعدت بعد
ايام الى عكا وقد بقي من الاسرى عند كليام جيا ثمانية وثلاثون اسيرا
وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي فأشتريتها منه وما وزنت ثمنها
فركبت الى داره - لعنه الله - وقلت تبغني منهم عشرة قال وحق ديني ما ابغى
الا الجميع وانا اشترى بعضهم والنوبة الاخرى اشترى الباقي قال ما ابغى الا
الجميع فأصرفت وقدر الله سبحانه انهم هربوا في تلك الليلة جميعهم وسكان ضياع
عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم الاسير اخفوه واوصلوه الى بلاد الاسلام .

وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد واحسن الله سبحانه خلاصهم واصبح
يطالبني بشمن المرأة التي كنت اشتريتها وما وزنت ثمنها وقد هربت في من هرب
فقلت سلمها اليّ وخذ ثمنها قال ثمنها لي من امس قبل ان تهرب والزمني بوزن
ثمنها فوزنته وهان ذلك عليّ لمسرتي بخلاص اولئك المساكين .

هذه الناحية الكريمة خصلة البر والبذل في سبيل فك الاسير كانت متأصلة لدى القادرين ايام تلك الحروب الدامية والغريب ان جميع الذين كتبوا المقالات أو تناولوا سيرة اسامة لم ينوهوا بهذه المروءة التي اتصف بها الامير النبيل الذي ندب نفسه للجهاد ولنصرة المسلمين واي طاعة أفضل من هذه الطاعة .

اسامة يشيد بشجاعة النساء :

ولم يفته ان ينوه بشجاعة النساء وبسالتهن بتلك الحروب والوقوف بصف المحاربين ودفاعهن في حوادث كثيرة صمدن وخدمن الى ان وصل الرجال وحكى عن واحدة منهن انها وحدها اسرت ثلاثة من الافرنج فسلبتهم ما عليهم من سلاح ونادت رجالا فقتلوهم وحكى عن والدته انها في هجوم الحشاشين على الحصن وقد خرج الرجال والحامية لحربهم وتسلب منهم جماعة الى الحصن فوزعت السلاح على بنات جنسها ومضين يدافعن ويقاتلن واوقفت اختا لاسامة على أعلى الروشن بقصد رميها من شاهق كيلا تقع اسيرة بيد الاجلاف الحشاشين ولم يقصر اشاداته على شجاعة نساء اسرته وانما عدد نساء من بنات منقذ وغيرهن كما اشاد بشجاعة الرجال من الجند ومن رجالة أهل شيزر ، والخييل في الحروب والقتال لها مشاركات وبطولات مثل اصحابها فمن حقها ان يطري صبرها وجلدها وتحملها

قال :

الصبور في الخيل :

ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ضمن ذلك أنه كان في جندينا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير رحمه الله وله حصان ادهم اصم مثل الجمل فالتقى هو وفارس من الافرنج فطعن الافرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبتة من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الاخر ، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة فارسه . وقال « وجرح تحتي حصان شقت الطعنة قلبه واصابه

عدة سهام فأخرجني من المعركة ومنخراه يديمان ، وما انكرت منه شيئا وبعد وصولي الى اصحابي مات •

« وجرح تحتي حصان في بلد شيزر ثلاثة جراح وانا اقاتل عليه ولا اعلم والله انه جرح لانبي ما انكرت منه شيئا » •

ومن حسن صبر الخيل ان طراد بن وهب النميري حضر القتال وتحت طراد حصان له من اجود الخيل له قيمة كبيرة فطعن في خاصرته فخرجت مصارينه فشدّها طراد في السموط وقاتل حتى انقضى القتال فدخل به الى الرقة فمات ، •

اسامة والاسد : قال

« وشاهدت من الاسد ما لم اكن لاظنه ولا اعتقدت ان الاسد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان » وروى اخبارا عن شجاعة بعضها وخور وجبن بعضها الاخر وخرج بأحكام عنها نتيجة معاناته لمطاردتها ومقاتلتها •

تأملات اسامة بشأن العمر والهرم :

فقد سجل بعض تأملاته عن شيخوخته قال « لم ادر ان داء الكبر عام يعدي كل من اغفله الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين وابلاني مرور الايام والسنين صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالارض ودخل من الكبر بعضي في بعض حتى انكرت نفسي وتحسرت على أمس وقلت في وصف حالي :

لما بلغت من الحياة الى مدى

قد كنت اهـواه تمنيت الردا

لم يُبقِ طول العمر منى منة

القي بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفت قواي ، وخانني الثقتان

من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت أنى حامل
جلاً وامشى حين امشى مقيدا

وإدب في كفى العصا وعهدتها
في الحرب تحمل أسراً ومهندا

وإيت في لين المهاد وبينما
بلغ الكمال وتم ، عاد كما بدا

« وكنت اظن الزمان لا يبلى جديده ولا يهني شديده واني اذا عدت الى الشام
وجدت به ايامي كعهدي ما غيرها الزمان بعدي فلما عدت كذبتني وعود المطامع
وكان الظن كالسراب اللامع - اللهم غفرا هذه جملة عرضت ونفثة هم انقضت
ثم انقضت » .

عفوا فارثي فان اعجابي بكتاب الاعتبار وبطريقة عرض الامير مؤيد
الدولة لذكرياته تركني لا انتهي من اقتباس نموذج الا وتجدني ابدأ باختيار
نموذج آخر له فكل ذكرياته تعجب وتروق للقارىء وكفى بأسلوب اسامة جاذبا
مشوقا .

دِيَوَانُهُ

مستنصره في الامور، كما رأيت في كتابه، وقد احتلته في حياته، وهو ممدوح
نشأ اسامة بن مهران في مدينة واسط، وقد قيل في نسبها: من بني أبيه وعمومته
راوي شاعرا كاتباً، واشتهر بين أبناء عصره، ومن ترجموا له بالفروسيه والكتابة
والشعر، وقد قيل في كتابه: من نزل به منزله، نزل به من تحتها

ذكره العباد الكاتب، وأعجب به وأحضره لوفى الخليلية، وقد كان قد تميز وجمعه
في الشام، وسمع عليه فيقال: إن اسامة بن مهران كان قوامه في نظمها، وحسن
جمالها، وبلغت يدى بني النوى في كتابها، وعليها النجم في حسانة النباهة، يعبر
التصاريص، مطبوع التصانيف، واختار له جملة صالحة من اشعاره، وما خيرا،
وأنفرد بمقطوعات لم نجد لها في ديوانه من اشعاره، وان نقتصدنا

وذكر المدهني: من اشعاره ما تضمنه كتابه من نظمها، وقد أفاض
عن لسان اسامة انه: « كان يحفظ أكثر من عشرين الف بيت من الشعر
المجاهل، فكانت في شعره في شعره، وقد كان من علماء اللغة، وكان له في اللغة

وروي ابن عساكر في التاريخ الكبير وهو ممن سمع عليه قال: « ان لاسامة
يدا بيضاء في الادب والكتابة والشعر، وأقتبس عن لسان أحدتهم قوله: ان اسامة
شاعر أهل الدعة مالمك عنان النظم والنثر، يوان مقطعاته احلى من الشهد والذئ من
النوم بعد طول السهد » وذكر ابو شامة في الزوضين ان صلاح الدين الايوبي
كان يعبده ديوان الإمبر مؤيد الدولة اسامة وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله
موقوف، والى استحسانه معروف، وترجم له ياقوت في موسوعته - معجم الادياء -
وأقتبس من شعره نقلاً عن الديوان وقال انه كان يتداول بالاشام بجزيين، وكذلك
قال عنه ابن خلكان في اوفيات الاعيان .

نسخة الديوان :

قبل ان يعثر على الديوان كان شعر اسامة يتناقله الدارسون، وكتاب المقالات
من كتاب الاعتبار واللباي، ومن الكتب التي عثرت بتسجيل مفردات من شعره

(١) نشر درنبورغ منتخبات، من شعره باريز ١٨٩٣ .

واقدمها واحفلها به خريده القصر ، مع هذه المتناثرات فان لاسامة ديوانا جمعه بنفسه
وقد رآه ابن خلكان والعماد الكاتب والذهبي وابو شامة وغيرهم •

وقد عثرت دار الكتب على نسخة من هذا الديوان^(١) جمعه بنفسه وعني به
من بعده ابنه مرهف وهي النسخة التي قام بتحقيقها الدكتوران الفاضلان احمد
احمد بدوي وحامد عبدالمجيد شكر الله صنيعهما فقد خدما العربية والادب
العربي بتحقيقه ونشره ووعدا انهما سيلحقان بالديوان ما يعثران عليه من شعره في
مصادر من كتبه وغير كتبه ، حبذا لو انجزا الوعد وشيكا خاصة وان الديوان اصبح
مفقودا من الاسواق •

ذكر المحققان ان الشاعر اسامة « قد رتب ديوانه على حسب الاغراض » فباب
المغزل وآخر للشكوى وثالث للمكاتبات والمعاتبات ورابع للمديح وخامس للمفخر
الى آخر ابواب الديوان •

وقد خلا ديوانه وما وردنا من شعره في مصادرہ المختلفة خلا من الهجاء
حتى لقد قال :

ظلمت شمري وليس الظلم من شيمي
يطيعني ، حين ادعوه واعصيه

يهم أن يذكر القوم المثلما بما
فيهم فأزجره عنهم واثنيه

وليس من خلقي ثلّب الغني وإن جنى ، ولا ذكر ذي نقص بما فيه

(١) كانت النسخة في العراق في خزانة كتب السيد صالح الراوي
قاضي بغداد رحمه الله وكان اديبا ذواقة • فلما توفي آلت النسخة الى ولده
عبدالرحمن ، وفي سنة ١٩٤٤ حين زار الكاتب الكبير ابراهيم عبدالقادر المازني
قدمها عبدالرحمن له فأعجب بها ووعد بطبعها عند عودته فمضت سنون ولم
يتيسر للمازني انجاز ما وعد ، وفي سنة ١٩٤٧ سافر عبدالرحمن الراوي الى
مصر لاجراء عملية وبعد شفائه اخذ النسخة فأهداها الى دار الكتب وقدمت الدار
اليه هدية نقدية فكانت اصل هذا الديوان •

كان اسامة يجرى القصيدة الواحدة على الاغراض التي رتب الديوان وفقها فيضع غزلها مثلاً في باب الغزل ، ومديحها أو فخرها أو رثاءها كل غرض يوزعه على الابواب وهو يشير الى تمام القصيدة ومكانها ومكان أجزائه ويرتبه على الحروف الهجائية وقد لا يجد من الاغراض على الحروف الا ألياتاً وقد لا يجد ، ومن نافلة القول ان نذكر ان اسامة كان ينظم القصيدة بكل أجزائها ويتم بناءها قبل تجزئتها .

قال الدكتور بدوي : « ولهذا النظام فائدته في تتبع الدراسة الفنية لكل فن من فنون الشاعر على حدة وإن كانت الحاجة تدعو عند دراسة بناء القصيدة الى دراسة أجزائها كلها لمعرفة الجو الذي توحى به وادراك مدى الصلة التي تربط بين عناصرها . »

ما وصلنا من شعر اسامة في ديوانه لا يمثل ما نظمه اجمعه فهو كلما ردد في شعره النظر حذف منه ما لم يرقه وتناول شعره بالتقويم والتهذيب والتنقيح والحذف كي يسلم من الضعف وكى يكون بمصاف شعر الفحول من ناحية السبك والمضى يقول :

كلما رددت في شعري النظر
بان ضعف العيِّ فيه وظهر

فأجبل الفكر في تقليله
فاذا قلَّ ، اختصرت المختصر

وبه فقَرُ الى ذي كرمٍ
إن رأى ما فيه من عيبٍ ستر

هذا شأن الرجل الذي يقدر نفسه ويحترم مركزه ، يعنيه الجيد وإن قلَّ ولا يحفل بطول القصيدة وحشوها بالتافه بقدر ما يحفل ان تكون ملتحمة الخواطر مترابطة المعاني متساوقة الفكر تأخذ بعضها رقاب بعض ، هذا كان شأنه في تخيره لشعره سواء ما كان منه من المطولات أم المقطعات وضرب المحققان مثلاً على

التحام الخواطر وتسلسلها في المقطوعة التالية ، والواقع ان شعره أكثره على هذا النسق من الالتحام والوضوح • قال :

لا تجزعنَّ لخطبٍ فكلُّ دهرِكُ خطبٍ
وحادثات الليالي مُلَّةٌ ، ما تَغِبُّ
تَروح سلما وتقدو على الفتى وهي حرب
ولا تضقُّ باصطبار ذراعاً اذا اشتدَّ كرب
فصبرُ يومك مرٌّ وفي غدٍ هو عذب
كم صابراً الدهرَ قومٌ فأدركوا ما اجبوا
وكل نار حريقٍ يخشى لظاها ستخبو

اعجب بشعر مؤيد الدولة المتأديبون :

وظفر بعنايتهم ونال تقديرهم وتنافس رواد الشعر بالديوان فأقبلوا على كتابته فتداولوه واسامة ما زال حيا وعادة الناس ان يفلو شعر الشاعر لديهم بعد وفاته فشاع بين الناس وبارى الشعراء منهم بعض قصائده مثل قصيدته الطائية ، واختار له العماد الاصفهاني في الخريدة وأطرى شعره بعبارات الثناء والاعجاب يقول العماد : وكنت قد طالعت مذيل السمعاني ووجدته قد وصفه وقرضه ، وانشدني العامري له بأصفهان من شعره ما حفظه ، فكنت أتمنى أبدا لقياه وأشيم على البعد حُبَّناه ، حتى لقيته سنة ٧١ هـ (٥٧١) الى آخر كلامه وقد تقدم ، وانشدني لنفسه البيتين اللذين سارا له في قلع ضرسه وتصلح لقرأ :

وصاحبٍ لا أمل الدهرَ صُحْبته

رُفقاءُ بجماعٍ مِينةً دَهْرِيَّةً وَتَيْسِيَّةً مَسْفِيَّةً بِمَقْرِ رِيْمَا لِيَعْبَا لِيَعْبَا مَجْتَهِدِ

لم ألقه مُدُّ تصاحبنا فحين بدا

لناظريَ افرقنا فرقةَ الأبدِ

قال العماد : في تعليقه على هذين البيتين : « لو أنصفتَ فهمك إن كنت منتقداً فرقت عن مرَّقَب وهملك مجتهدا وغصتَ بنظر فكرك في بحار معانيه لغنمتَ من فرائد درره ولآليه ، ولعلمت ان الشعر اذا لم يكن هكذا فلفو" وإن لم يبلغ هذا الحد من الجِدِّ فهجْر" ولهو" ، ومن الذي أتى في وصف السن المقلوع بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه أحد الى معناه وهل ساواه في هذا النمط سواء » •

حظي شعر الامير اسامة باعجاب الذين صحبهم أو عمل معهم أو سمعوا بسجاياه وما يزال يحظى بالحب والاعجاب ، حبيت شعره الى القلوب نفس سمحة لم تهاتر الناس ولم يحقد على أحد ، تسامى عن المهجاء وترفع عن البذاء وبرئت نفسه من العقد والمنازعات الجانيية ، ملأ قلبه الرضى فجاء شعره نبيل المعنى عالي الغرض مشرق الاسلوب لم تفسده الصنعة التي كلف بها غيره في عصره فلم يُضح بالمعنى من أجل صنعة أو زينة ، تمدد ثقافة أدبية واطلاع واسع على اساليب العرب في مأثور منظومهم ومثورهم ، ومن يقرأ كتابيه - المنازل والديار ولباب الآداب ، والشواهد والمنتخبات التي أودعها فيهما يدرك سعة ثقافة اسامة وطول باعه بالعربية اصولها وفروعها علومها وآدابها ، فلا عجب ان جاء شعره سلساً مهذباً كالديباج نعومة ومثانة يدخل الى النفس من غير استئذان ، يعبر عن خلجات الانسان ويترجم عن نوازع الخير والرضى والوفاء وقد مرَّ القول ان الناصر صلاح الدين كان به حفيلاً لا يفارقه في حله وترحاله ، قال العماد الاصفهاني القرشي^(١) : « لزمتم خدمة السلطان صلاح الدين أرحل برحيله وانزل بنزوله وكتبت ليله عنده وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان وعنده ديوان الامير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ وهو به مشغوف وخاطره على تأمله موقوف والى استحسانه مصروف وقد استحسنت طائيته التي لو عاش الطائيان^(٢) لأقرا

(١) اثبت الاستاذ العلامة محمد بهجة الاثرى نسب العماد انه عربي قرشي راجع الخريدة تحقيقه الجزء الاول قسم العراق نشره المجمع العلمي العراقي •

(٢) أبو تمام والبحثري •

بفضلها ، وإن خواطر المبتكرين التقصر عن مثلها ، على ان الشعراء المحدثين ما منهم الا من نظم على رويها ووزنها واستمد خصب خاطره من مزنها ، يريد بها القصيدة التي كتبها الى الملك الصالح طلائع بن رُزَيْك وزير مصر وقد اجابه عليها من نفس رويها ووزنها وهي مثبتة بالديوان ولاسامة وطلائع مكاتبات وقصائد كثيرة تفصح عن اعجاب كل واحد منهما بالآخر .

ومطلع الطائفة :

أجيرة قلبي إن تدانوا وإن شطوا
ومنية نفسي انصفوني وإن شطوا

عصيت اللواحي فيكم وأطعمت
مقالهم ما هكذا في الهوى الشرط

إذا كان حظي منكم في دنوكم
صدود فالتداني هو الشحط

ولو علموا مقدار حظي منكم
وهمي بكم زال التنافس والغبط

وسياتي ذكرها واقباس منها في باب مراسلاته :

شعر اسامة : سجل حافل لحياته وديوان يسطر وقائمه وحروبه وتأملاته يمثل حينه الى ابيه واخوته واسرته ووطنه ، يمثل الاحداث الكبرى التي عرضت له في أسفاره مع الامراء في شيزر والموصل ودمشق والقاهرة ، مع الصليبيين والأتراك ، مع طلائع بن رُزَيْك ونور الدين وصلاح الدين ولعل أكثر تلك الاحداث هي اضطراره لمبارحة شيزر موطنه ومرتع صباه ومفارقه لوالده بعد ان وجد بقاءه مصدر شقاء له ولعمه وبالتالي لوالده :

قد أفسدوا عيشي عليَّ وعيشهم
فأنا الشقي بهم وببي أيضاً شقوا

وكان أكثر تلك الاحداث اسىً على قلبه نكبة أهله في الزلزلة العظمى :

بنو أبي وبنو عمي دمي دهم
وإن أروني منلواة وشنأنا
فليتني معهم أوليت أنهم
بقوا وما بيننا باق كما كانا

كما كان لتبدد ثروته بين منهوب ومسلوب اثر يحز صدره ويهيج
مكامن حزنه :

اذهبت تالدي وطار في ال
طاري فضاع الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصرٍ وبحرٍ
ذا غريقٍ فيءٍ وذا منهوب

شعره صفحات مضيئة للبطولات التي كان يقوم بها مع الذين شاركهم القتال
في غزو القلاع الافرنجية ، صفحات ناصعة فيها الوفاء والحنين لاصدقائه وهم كثر .
فلما علت به السن وطال عمره واربي على التسعين راح يشكو قسوة
الوحدة وثقل الوقت ، وراح يتذكر أيام شبابه ويوازن بين ضعفه الذي هو فيه
وقوته أيام كان يصارع الوحوش وينازل الفرسان واليوم يجر قدمه وكأنها
مقيدة بالارض وتعجز يده من حمل القلم وكانت لاتنوء من حمل الرمح والسيف ،
ونقص حياته وآثار اشفاقه وهو في عشر الثمانين مولودة جديدة رزقها :

رزقت فروة والسبعون تخبرها
أن سوف تُتَمَّ عن قرب وتنعاني
وهي الضعيفة ما تنفك كاسفةً
ذليلةً تمثري دمي وأحزاني

بعيدا عن أهله وعن بني وداده في زاوية من الارض لا يذكرها أحد ،

ناء عن الاهلين والاطوان والاتراب ماتوا
ولبس عيش المرء فارقه الأحبّة واللذات
فألام أشقى بالبقاء وكم تعذبني الحياة

في الديوان قصائد بينه وبين حكام المنطقة تعالج شؤون السياسة والادارة
وأكثرها ما كان بينه وبين صديقه طلائع الملقب بالملك الصالح فقد اشتمل الديوان
على عدد منها كانت تنضح بالود بين الادبيين وترشح باعجاب متبادل ومعالجات
صريحة لتوحيد المسمى وتضافر القوى بين مصر والشام ، ويرى في اسامة محاربا
شجاعا لا ضريب له ، وشاعرا مفلقا حازما وخطيبا مفوها مسموع الرأي والتدبير :

أنت فيها الشجاع مالك في الط

عن ولا في الضراب ضريب

وإذا ما حرّضت فالشاعر المفلد

ق فيما تقوله والخطيب

وإذا ما اشرت فالحزم لاينـ

كر ان التدبير منك مصيب

قصدا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب
فلدنا من العساكر ما ضاق بأدانهم الفضاء الرهيب

وفي الديوان نظرات في الحياة وتجارب نتيجة ما مرّ به من تقلب الايام وما
عانى من أحداث فاستخلص منها عبرا وحكما واقعية تدل على طبيعته المتفائلة ،
التي لا ترى الشرّ ضربة لازب فلا حزن يدوم ولا سرور يبقى :

الق الخطوب اذا طرقت بقلب محتسب صبور

فسيقتضي زمن الهموم م كما انقضى زمن السرور

معاناته للمعارك وتجربته علمته ان يكون رجلا قليل الأكتراث لصروف

الزمان :

لما رأيت صروف هذا الدهر تلعب بالبرايا
يعلو بها هذا ويهبط ذا وقصرهم المنيايا
ورأيتـه مسترجعاً نزر المواهب والعطايا
متغاير الاحوال مختلف الضرائب والسجايا
لا نعمة فيها تدوم ولا تدوم به البسلايا
لم اغتبط فيه بفائدة ولا أخشى الرزايا

والرثاء في ديوانه أكثره في عشيرته وأهله وولده ومراثيه في موت ابنه
أبي بكر تملأ الصدر حزنا والقلب لوعة :

أزور قبرك والاشجان' تمنعني
ان اهتدي لطريقي حيث انصرف

فما أرى غيرَ احجارٍ مُنْضَدةٍ
قد احتوتك وماوى الدرة الصدف

فأنتني لست' أدري أين منقلبي
كأنني حائر' في الليل مُعْتَسِف'

أقول للنفس إن جدّ النزاع بها
يا نفس ويحك أين الأهل' والسلف'

أليس هذا سبيل الخلق أجمعهم
وكلهم بورود الموت مُفْتَرِف'

وكتب الى أخيه عز الدولة وقد مات له بنت بشيزر وهو غائب عنها وأعمامها

واخواها غيب' ، نلمس فيها عاطفة ملتناعة :

وَيَحَ الغريبة والديار ديارها
 لم ترتحل عنها ولم تتعرب
 ماتت غريبةً وحدةٍ من تربها
 وشقيقها ومن العمومة والاب
 فهي الوحيدة والاقارب حولها
 وهي البعيدة في المحل الاقرب
 فاذا تَصَرَّم في الجوانح ذكرها
 قال الأسى باللهِ يا عين اسكب

اسامة يتجلد للمصائب :

ويظهر بمظهر الصابر غير المكترث بما نزل به من المصائب فيقول :
 ايحسب دهري اني جزعت لما غال من نشبي واتهب
 فقد اخلصتني احدائه وبالنار يبدو خلاص الذهب
 وما حظني أخذه ما استعاد ولا زادني رفعة ما وهب
 وما أنا الا كضوء الشهاب اذا نكسوه اعلى واتهب
 وقال في الترفع عن منن الرجال :

نزعت نفسي عن منّ الرجال وإن
 علت بهم رتب الدنيا وإن شمخوا
 اذا المطامعُ قادتني الى طمع
 يزري فماذا أفاد الشيب والشيخُ

وقال في المكارم وعلو النفس :

سأنفق وفري في اكتساب مكارم
 أظل بها بعد المات مخلدا
 وأسعى الى الهيجاء لا أرهب الردى
 ولا اتخشى عاملاً ومهندا

بكل فتىً يلقى المنيّة ضاحكاً
كأن له في القتل عيشاً مجدداً
فان نلتُ ما أرجو فللجود ثم لي
وإن ميتٌ خلفت الثناء المؤبداً

وهو يبذل مسوره في اليسر ويبذل شطر موجوده في العسر :

ما لفَّ كفيَ عن جودي بموجودي
نواببٌ وملماتٍ لَحَتْ عودي
في اليسر أبذل مسوري وأبذل في
عسري لطالب رفدي شطرَ موجودي

وقال :

يقولون لي : افنت كل ذخيرة
وأنفقت مالا لا تجود به النفسُ
فقلت نعم ، فرقت ما جمعتُ يدي
وأرجو غداً يأتي بما اذهبَ الأمسُ

وقال في السلطان :

إيّاكَ والسلطان لا يديك من
أبوابه مُكْتَسَبٌ أو معاش
وأعلم بأنهمُ على ما كان من
أحوالهم نارٌ ، ونحن فرّاش
وقال وقد رأى نملاً يتجاذب زهرة كلما أخذتها نملة انتزعتها منها اخرى:
شاهدت نملاً قد تجاذب زهرة
ذا قد تملكها وهذا يسلبُ

مثل الملوك تجاذبوا الدنيا فما حصلت لمغلوب ولا من يغلب
وقال يعنى على العزيز يرضى المقام بأرض يلقي فيها الهوان وأرض الله
واسعة :

ما مقام الحرّ في أرض بها الناس قليل
بلدٌ فيه عزيز القوم مقهوراً ذليل
لست ارجوك وقد لاحت لعيني المحول
انما يرتاد أرض السحل مغرور جهول ،

وهو لا يسلو عن الكرم :

سلوت عن كل حال كنت ذا شغف
بها ولم اسلُ في حال من الكرم
ما غال دهريَ وقَرى في قلبه
الا جعلت الندا ستراً على العدم

وقال :

استر همومك بالتجمل واصطبر
ان الكريم على الحوادث يصبر
كالشمع يظهر نوره متجملاً
خوف الشمات وفيه نار تسعر

وقال :

ان فاجأتك الليالي بما يسوء فصبراً
فالدهر يُرهِق عسراً ويتبع العسر يسراً
لو دام ما ساء منه لدام ما كان سراً

وقال : ولع الناس بالشكوى ، يترمون من الحاضر ويطرحون على الماضي :

أصبحت في زمنٍ يشيب لجوره

فَوَدُّ الجنين ويهـرم المولود

وإذا شكونا اليوم ثم اتى غدٌ

قلنا الا ياليت أمس يعود

ومما اختاره له العماد في الذخيرة ولم أجده في الديوان وتصلح أن تكون

لغزاً (للسن) .

وصاحب صاحبي في الصبّا

حتى تردت رداء المشيب

لم يبدُ لي ستين حولاً ولا

بلوتٌ من أخلاقه ما يريب

أفسده الدهر ومن ذا الذي

يحافظ العهد بظهر المغيب

ثم افترقنا لم أصبْ مثله

عمري ، ومثلي أبدأ لا يُصيب

فأعجب لها من فرقة باعدت

بين اليقين ، وكلّ حبيب

قال : وأنشدني لنفسه من قديم شعره وهي مثبتة في ديوانه :

قالوا نهته الأربعون عن الصبّا

وأخو المشيب يجور ثمّ يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدلّه

صبح المشيب على الطريق الاقصد

وإذا عددت سنّتي ثم نقصتها

زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

تعجب من مقاصد هذا الكلم ، وتعرض لموارد هذه الحكيم ، وافضل العجب
كل العجب من غزارة هذا الادب ، ولولا المداد أفضل ما ترقم به صحائف
الكتب لحررت هذه الابيات بماء الذهب . قال وأنشدني له وهي من مرويات
العماد أيضاً :

لم يبق لي في هواكم أرب
سَلَوْتُكُمْ والقلوب تنقلب

أوضحتُم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تشعب

إن كان هذا لأن تعبدني الح
ب فقد اعتقتني الريب

أحبتكم فوق ماتوهمه النا
سُ وختم اضعاف ما حسبوا

وزاد ياقوت عليها بيناً لم يكن في الخريدة :

أريتموني نهج السلو وقد
كانت بي الطرق عنه تشعب

وعقب عليها العماد : - تأمل هذه المعاني والابيات بعين التأني والثبت تعرف
ان قائلها من ذوي الحمية والنفوس الابية والهمم العلية ، وكل من يملكه الهوى
ويسترقه فلما يطلقه السلو ويُعْتِقُه ، الا ان يكون كبيراً غلب عقله هواء
واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه وقوله « قد أعتقتني الريب » في غاية
الجودة ونهاية الكمال ، أعذب من الزلال وأطيب من السحر الحلال وألعب
بقلوب المتيمين من نسيم الشمال .

وقال العماد وأنشدني من شعره أيام لقيته ٥٧١ هـ :

أنستي الأيامُ أيامَ الصَّبَا
وذهلت عن طيب الزمان الذاهب
وتكرت حالي فكل ما ربي
فيما مضى ماهنَّ لي بمآرب ،

وفي ذلة الشكوى قال :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلَّق " وقلبي مُكَمَد " باك

وراحة القلب في الشكوى ، ولذتْها

لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي

علق عليها العماد « لو أمكنت » فما أحسنها موقعاً وأجملها موضعاً ثم قارن

اللذة بالذلة وهما متجانسان •

قال وقد رأيتَه وقد أهدي اليه دهن البلسان فسألت عنه فقال كتبت الى

المهذب الحكيم بن النقاش هذه الايات :

رُكِبَتِي تخدم المهذب في العلى

م وفي كل حكمة وبيان

وهي تشكو اليه تأثير طول الـ

عمر في ضعفها وفرَّ الزمان

فبها فاقة الى ما يقويها

على مشيها من البلسان

كل هذا علالة ، ما لمن حا

ز الثمانين بالنهوض يدان

رغبة في الحياة بعد طول الـ

عمر والموت غاية الانسان

وقال العماد : حضرت عند الامير مؤيد الدولة يوماً آخر بدمشق فأُتشدني قوله من القديم في استدعاء صديق الى مجلس المنادمة بالموصل (٢٢٥ - ٥٢٦ هـ) مداعباً وقد انفرد بها العماد :

أمهذب الدين استمع من عاتب
لولا وداذك لم يَفْهَ بعقاب

أمللنتي وجعلت سكرك حجة
ونهضت ، أم لم تستحل شرابي

قسماً لئن لم تأتني متصلاً
متبرعاً بالعدر والاعتاب

لأحر من الخندريس وأغتدي
متسماً بالماء والمحراب

وتبوء معتمداً باثم تسكي
وبعابه ، اعظم به من عاب ،

عفا الله عنه وغفر له هذا من لهو الحديث أو من نزوات الصبّ والشراب
والا متى كان النسك انماً وعاباً؟

قال العماد : وتناشدنا بيتاً للوزير المغربي (١) في وصف خفقان القلب
وتشبيهه بظل اللواء تخترقه الرياح وهو :

كأن قلبي اذا عن اذكاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال الامير مؤيد الدولة اسامة ، لقد شبهت القلب الخافق وبالغت في تشبيهه
وأربيت عليه في قولي من أبيات هي :

(١) هو ابو القاسم الحسين بن علي بن الحسن المغربي وزير من الدهاة
الادباء العلماء ولد بمصر سنة ٣٧٠ وقتل الحاكم الفاطمي اباه فهرب الى الشام ثم
الى بغداد والموصل واستوزره مشرف الدولة البويهى ببغداد ومات بميفارقين .

أحبابنا كيف اللقاء ودونكم

عرض المهامة والفيافي الفصح

أبكيتم عيني دماً لفراقكم

فكأنما انسانها مجروح

وكان قلبي حين يخطر ذكركم

لهب الضرام تعاورته الريح ،

فقلت صدقت فان الوزير المغربي قصد تشبيه القلب وأنت شبهت القلب

الواجد باللمه وخفقانه باضطرامه لتعاور الريح فقد اربت بالفصاحة على الفصح :

وعندي خير من تشبيههما قول العذرى :

كان قطعة علفت من جناحها على كبدي من شدة الخفقان

عند الملك الناصر :

واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين بدمشق وكان يلعب بالشطرنج

فقال لي الامير اسامة أما انشدك البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ قلت هات

فأنشدني لنفسه :

أنظر الى لاعب الشطرنج يجمعها

مغالياً ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكده للدنيا ويجمعها

حتى اذا مات خلاها وما فيها

وقال : يبكي أهل وداده :

أصبحت لا أشكو الخطوب وانما

أشكو زمانا لم يدع لي مشتكي

أَفْسَىٰ اخْلَائِي وَأَهْل مَوَدَّتِي
وَأَبَادِ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَأَهْلِكَ
عَاشُوا بِرَاحَتِهِمْ وَمَتُّ لَفَقْدِهِمْ
فَعَلِيَّ يَبْكِي لَا عَلَيْهِمْ مِنْ بَكَاءِ

وقال :

تَقَلَّبَ أَحْوَالُ الزَّمَانِ أَفَادَنِي
جَمِيلِ الْأَسَىٰ فِيمَا يَنْوِبُ مِنَ الْخَطْبِ
إِذَا حَلَّ مَا لَا يَسْتَطَاعُ دِفَاعَهُ
فَمَا أَجْمَلَ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ بِذِي اللَّبِّ

وقال :

صَبْرًا لِأَيَّامٍ تَنَاهَتْ فِي مَعَانِدَتِي وَعِضِي
فَالدَّهْرُ كَالْمِيزَانِ مَا يَنْفَكُ مِنْ رَفْعِي وَخَفْضِي
هَذَا مَعَ الْأَفْلَاقِ مَرْتَفِعٌ وَذَا بِحَضِيضِ أَرْضِ
وَإِلَى الْفَنَاءِ جَمِيعٌ مِنْ خَفْضَتِهِ أَوْ رَفَعَتِهِ يَقْضِي

وقال :

حَسَنَ التَّوَاضُعِ فِي الْكَرِيمِ يَزِيدُهُ
فَضْلًا عَنِ الْأَضْرَابِ وَالْأَمْثَالِ
يَكْسُوهُ مِنْ حَسَنِ الثَّنَاءِ مَلَاسًا
تَبَوُّوا عَنِ الْمَتَرَفِعِ الْمُخْتَالِ
إِنَّ السَّيُولَ إِلَى الْقَرَارِ سَرِيعَةٌ « وَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِيِّ »
وَالشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْبَيْتِ الْأَخِيرِ مِنْ بَيْتِ لَابِي تَمَامٍ هُوَ :
لَا تَنْكِرِي عَطْلَ الْكَرِيمِ عَنِ الْغِنَى
وَالسَّيْلِ حَرْبِ الْمَكَانِ الْعَالِيِّ

التضمين في شعره :

في شعر اسامة أبيات ضمن اشطرها الاخيرة لشعراء معروفين والتضمين
جواز شعراء ويدل على اعجاب الشاعر بشعر غيره وفي قصيدة اسامة الميمية
التي عاتب بها معين الدين أنر ورد تضمين عدد من الايات مثل قوله :

وأنت أعدل من يشكى اليه

شكية « أنت فيها الخضم والحكم »

والبيت للمتنبى في سيف الدولة الحمداني :

يا أعدل الناس الا في معاملتي

فيك الخصام وأنت الخضم والحكم

وقوله :

وما ظننتك نفسي حق معرفتي

« ان المعارف في أهل النهى ذمم »

من قول المتنبى أيضاً :

وبينا لو رعيتم ذاك معرفة ان المعارف في أهل النهى ذمم

وقوله :

لكن ثقانك ما زالوا بغشهم

« حتى استوت عندك الانوار والظلم »

وأصل بيت المتنبى :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره

« اذا استوت عنده الانوار والظلم »

وقوله :

لكن رأيك ادناهم وأبعدني فليتَ أتناَ بقدر الحبّ نقسّم

وبيت المتنبى :

ان كان يجمعنا حُبُّ لغزته
فليت أنا بقدر الحب نقسم

وقوله :

وما سخطت بعادى اذ رضيت به
« فما لجرح اذا ارضاكم الم »

اصل بيت المتنبى :

ان كان سرکم ما قال حاسدنا
« فما لجرح اذا ارضاكم الم »

وقوله :

ولست أسی على الترحال من بلدٍ
« شهب البزاة سواء فيه والرخم »

وبيت المتنبى :

وشر ما قصته راحتى قص
شهب البزاة سواء فيه والرخم

موازنة بينه وبين شعراء عصره :

اود ان اختم بحثي عن شعره ومنزلته بين شعراء عصره •

بجمع النقاد وكتاب ترجمته والذين اختاروا له يجمعون على ان اسامة كأسمه في شعره ونثره كما قال العماد ، عد بجدارة زعيما لشعراء عصره من امثال طلائع بن رزيك ، وعمارة اليمني والمهذب بن الزبير واخيه والعماد الكاتب ومن ترجم لهم العماد من شعراء تلك الفترة وخاصة الشاميين ، وقد يكون لثقافته من جهة ودقة حسه من ناحية ثانية ووضوح شعره أثر كبير في تفوقه ولعل ترفعه عن التكسب بشعره وعنايته بتقحيح مقطوعاته ومطولاته وتشنيبها وحذف الضعيف منها ولعل نبل اغراضه وترفعه عن الهجاء والخصومات لعل سلامة طويته ونقاء صدره من الحقد لعل ذلك كله هو الذى رفع مكانته وجعله زعيما للشعراء المعاصرين له •

اهمل اسامة تأريخ قصائده ولو فعل وأرخ شعره لأمكننا أن نحكم على تطوره وتدرجه من ناحية قوته وضعفه وهذا النقص لا يسعف الدارس لشعر اسامة ان يعرف تطوره معرفة يقين على تتبعه منذ ان بدأ ينظم الى ان وقف نبض الشعر في قلبه ، ولكن برغم هذا النقص فبإمكان المتبع أن يتابع الاحداث التاريخية التي عاناها ومارسها وقال فيها قصائده وقد كانت دراستي لحياته واستشهادي بشعره محاولة لمعرفة هذا التطور أو هي مفتاح لهذا التدرج ، مثلاً صاحبه وهو في شيزر والى تركه لها سجلت له بعض القصائد والمقطوعات ، منها عتبه على بني عمه ومنها المقطوعات التي استأذن بها والده ومكاتباته اليه من الموصل الى ٥٣١ هـ ، ثم رحلته الى دمشق أيام معين الدين ٥٣٢ - ٥٣٩ هـ ثم رحلته الى القاهرة من ٥٣٩ - ٥٤٩ هـ - من الممكن ان تضيف اشعاره في هذه الفترات ما قاله ٥٥٢ في الزلزلة وما كتبه قبل هذا التاريخ الى ابن عمه بشأن أخيه لفق اساره ومراسلاته مع طلائع ومع اخوانه وما قاله في حصن كيفا ذلك يكون فترة زمنية ثم الشكوى والسأم من الهرم والوحدة وهو في عشر الثمانين الى ان وقف قلبه ، قصيدته الى العماد والقاضي الفاضل والى صلاح الدين من ٥٧١ - ٥٨٤ •

ناحية ثانية أهملها اسامة حين رتب ديوانه فانه اهمل قصائد كثيرة لم يذكر الشخص الذي قيلت فيه ، وان تجزئة القصيدة الواحدة على الاغراض التي جزأ قصائده وفقها تجعل المتبع لبنية القصيدة في عناء وإن كان المحققان قد خففا بعض هذا العناء بالاشارة الى اجزائها المقدمة أو المتأخرة وان النسخة التي حققها الدكتوران يرجع تأريخها الى سنة ثمان وثمانين وستمائة هجرية •

الْمَنَازِلُ وَالذِّيَارُ

الأصح هو ان نقدم كتاب المنازل والديار على سائر كتبه لانه أول كتاب قام بتأليفه بدأه بعد زيارته لمدينة شيزر بعد ان نكبتها الزلزلة العظمى فجعلت عاليها سافلها وذلك سنة « ٥٥٢ هـ » شرع بوضعه وجمع المادة له وهو ما زال في دمشق بصحبة نور الدين محمود وانتهى من تدوينه في جمادى الاولى سنة ثمانٍ وستين وخمس مئة كما نصَّ عليه في نهاية كتابه ، أتمه وهو في حصن كيفا وقد انقطع عن الناس وأقبل على مكاتب البلدة يقتبس من كتبها القيمة فكان ينهل منها مادته ويختار نصوصه ، من نثر وشعر •

موضوع الكتاب :

موضوع الكتاب البكاء على المنازل العافية والرثاء للاطلاع البالية حفزاً على ما حلَّ بأهله وموطنه من الزلزال التي اجتثت أهله من فوق الارض ولم ينج من عشيرته الا من كان في سفر أو كان يعيش في بلد آخر كما حصل للمؤلف وابنه واخويه ، أراد ان ينفس عن صدره المكروب بما قاله مَنْ سبقه من شعر أو نثر فيه معنى يتناول البكاء على الديار والموقوف على المنازل والآثار وما يضيفه من شعره الى فصوله بهذا المعنى فانفرد كتابه بجملته سالحة من شعره لم يرد له ذكر في الديوان •

ولما كان موضوعه متشعباً يتناول معاني كثيرة لذلك وجدناه قد جعل لكل معنى فصلاً يقدمه بشيء من النثر ويكثر من منتخبات الشعر يختار من الشعر الجاهلي فالاسلامي ثم للمولدين حتى زمانه ، وقيمة الكتاب : لا تقتصر على ابراده هذه النماذج المتخيرة فحسب وانما قيمته بالدرجة الاولى ترجع الى ان الكتاب حفظ لنا قدراً كبيراً من النصوص لا نصيبه في كتاب غير هذا الكتاب •

نسخة الكتاب :

ان الاصل الذي اعتمد عليه المكتب الاسلامي في اخراج الكتاب : هو النسخة

المطبوعة بالآلوفست عن نسخة أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي والتي نشرتها دار النشر للآداب الشرقية بأشراف «أسس خالدوف» سنة ١٩٦١ عن المخطوطة الوحيدة التي رجع إليها الناشر بخط المؤلف علقها لنفسه ووقع الفراغ منها في جمادى الأولى سنة ثمان وستين وخمسمائة كما نص في آخرها .

يقول العلامة الطالوي مالك النسخة ان الكتاب سمع على مؤلفه بدمشق سمعه عنه غير واحدٍ وان علماء الشام كانوا يتداولونه .

وقد أحسن المكتب الإسلامي في تخريج ما ورد في الكتاب من النصوص في الرجوع الى المصادر الأدبية وتحقيق ما ورد فيه اختلاف ، وشرح غريب الالفاظ وازالة غموضها ، وعزى المحققون ما اغفل نسبته المؤلف الى قائله قدر المستطاع ، وعرفوا ببعض الاعلام من الشعراء وغيرهم وخاصة المنسيين منهم شكر الله جهدهم فقد بذلوا عناء كبيراً في ضبط النص وتفسير غريبه والتعليق عليه فجاء الكتاب مزدوج النفع وفي احيائه ونشره خدمة للعربية ولقرائها .

مقدمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم

« قال اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى غفر الله له ولجميع امة محمد صلى الله عليه وسلم » .

الحمد لله وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال الى حال ، وعَفَّتْ رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا وتصدع شملنا أيدي سبا ، وتشعبت بنا سبل المذاهب وأختت الحوادث على معشري وآلي ، وأفنى الموت اسودي واشبالي كل ذلك بقدر جرى به القلم في القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الخروج الى الوجود من العدم ، القسى ما سرَّ من ذلك وساء بالتسليم والرضى ، وافوض اليه - جل وعلا - فيما قدر وقضى ، وأقرُّ بأن ابتلاءه بعدله ومعافاته بفضلته ، وأرجو من رحمته أن يكون ذلك كفارة للذنوب

سلفت وموعظة دعت عن المعاص وصرفت ° وان ما نالنا من الدنيا وآفاتنا بذنوب
اقرفناها فرحمتنا بتعجيل مكافاتها ، وصلى الله على رسوله الامين محمد خاتم النبيين
الذي وصفه في كتابه الكريم فقال « وانك لعلى خلق عظيم » وعلى آله الطيبين
الطاهرين وأصحابه البررة المتقين وأزواجه الطاهرات امهات المؤمنين صلاة دائمة
الى يوم الدين •

وبعد جعلك الله بنجوة من النوائب واصفى لك الحياة من كدر الشوائب ،
ولا راعك بحادثه تُنسي ما قبلها ، وتُصغّر ما بعدها وتفتح من النكبات أبوابا
لا تستطيع سدها ، فاني دعاني ما نال بلادي واوطاني من الخراب ، فان الزمان
جرّ عليها ذيله وصرف الى تعفيتها حوله وحيله ، فأصبحت كأنّ لم تغنّ
بالأمس ، موحشة العرصات بعد الالاس ، والمسرات بها حشرات وهموما ، ولقد
وقفت عليها بعدما أصابها من الزلزال ما أصابها ، وهي أول أرض مسّ جلدي
ترابها ^(١) فما عرفت داري ولا دور والدي واخوتي ولا دور اعمامي وبني عمي
واسرتي فبهت متحيراً ، مُستعيذاً بالله من عظيم بلائه وانتزاع ما خوله من نعمائه •

ثم انصرفت فلا أبْتُك خيستي

رَعِشَ القِيَامَ اميس ميسَ الاصور ^(١)

وقد عظمت الرزية حتى غاضت بوادر الدموع ، وتتابعت الزفريات حتى
أقامت حنايا الضلوع ، وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك
السكان بل كان هلاكهم اجمع كارتداء الطرف أو اسرع ثم استمرت النكبات
تترى من ذلك الحين وهلمّ جرّاً ، فاسترحت الى جمع هذا الكتاب ، وجعلته
بكاءً للديار والاحباب ، وذلك لا يفيد ولا يجدي ، ولكنه مبلغ جهدي ، والى
الله عزّ وجل اشكو ما لقيت من زماني وانفرادي من أهلي واخواني ، واغترابي
عن بلادي واوطاني لو كانت الاحلام فاجأتني بما القاه يقظان لاصماني الردى ،

(١) اقتباس من قول الشاعر

بلاد بها نيظت على تمائي وأول أرض مسّ جلدي ترابها

(٢) الصور : الليل • الميس المشى أي اتخبط تخبط الماشى بليل •

واليه عزَّ وجلَّ أرغبَ في ان يمن عليَّ واليهم بغفران ويعوضنا برحمته في دار
رضوانه انه لا يرد دعاء من دعاه ولا يخيب من رجاه .

وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، وفتحت كل فصل بما يوافق حالي ثم
أضفت فيما يوافق القلب الخالي لكي لا يأتي الكتاب وهو كله عويل ونياحة ليس
فيه لسوى ذي البث راحة .

على ان رزايا الدنيا تمهل ولا تهمل ، وإن تولت اليوم فعداً تقبل ، فما أحد
من ربهن سليم ، وتتبع هذا المعنى صعبٌ وحضره لا يمكن ، وقد أوردت فيه
ما يبرد اللوعة ، ويسكن الروعة ، والعدر الى من وقف عليه مبذول وهو عند
الكرام مقبول .

فصول الكتاب :

والكتاب في جزئين كبيرين اشتمل الجزء الاول على ٣٦٥ صحيفة والجزء الثاني
على ٣٤٠ من غير الفهارس للموضوعات والاحاديث والآيات والقوافي والشعراء
مرتبة على الحروف الهجائية وأردفها بفهرس للشعراء مع القوافي وختمها بفهرس
عام بالاعلام وبثبت بالمصادر التي رجع اليها الناشر وفي هذه الفهارس خدمة
للكتاب تغين القراء على استخراج النص ومراجعة ما يرغبون بسهولة ويسر
من فصوله :

في ذكر المنازل ، في ذكر الديار ، في ذكر المعاني ، في ذكر الاطلال ، في
ذكر الربع ، في ذكر الدمن في ذكر الرسم ، في ذكر الآثار ، في ذكر المساكن
والمعاهد والاعلام والمعالم والعرضات ، في ذكر الاوطان ، في ذكر الارض في ذكر
المدن ، في ذكر البلاد في الدار ، في البيت ، في بقاء الاهل والاخوان .

وبعد : فالكتاب وإن كان موضوعه البكاء على المنازل والديار ووصف ما نالها
من الخراب وما حل بسكانها من الهلاك وإن كان الهدف من جمعه واختيار اخباره
التسرية عما نزل بصدري كاتبه من الحزن وتفريج الكرب بذكر ما فيه الاعتبار

والتأسي والتعزية والتسلي فإن الكتاب موسوعة أدبية زاخرة بالأخبار والاشعار والامثال ، والكتاب شاهد عدل لما اتصف به مؤلفه من ثقافة ذذات أصالة ومعرفة تتسم بالسعة أين منها متأدونا الذين راحوا يتيهون على الماضين بما ليس فيه غناء وانما هو اجترار وحبذا لو احسنوا فهم النص واجادوا النقل •

نموذج من فصول الكتاب .

هذا من فصل عقده المؤلف في بكاء الاهل والاخوان وجعله خاتمة كتابه وكان هذا الفصل قمينا ان يقدم على فصول الكتاب وحقيقاً ان يفتح به المؤلف موضوعاته لان المنازل انما تبكى لسكانها :

وما حبُّ الديار شغفنَ قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

قال المؤلف :

هذا الفصل موضعه صدر الكتاب اذ كانت المنازل والديار انما تبكى لسكانها من الاهل والاخوان والاحباب لكني أخرته لأختم به الكتاب ، قال « روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، انه كان كثيراً ما يتمثل بهذا الشعر » :

ألا قد أرى والله أن لست منكم
ولا أتم مني وإن كنتم أهلي
وأني نويُّ قد أحمَّ انطلاقه
يحييه من حياه وهو على رحل
ومنطلق منكم بغير صحابة
وتابع اخواني الذين مضوا قلبي

ألم أك قد صاحبت عمراً ومالكا
 وادهم يعدو في فوارس أو رجلي
 وصاحبت شيبانا وصاحبت ضابئا
 وصاحبني الثم الطوال بنو شبل
 اوائك اخواني مضوا لسيلهم
 يكاد ينسيني تذكرهم عقلي
 يقول اناس^(١) "أخلاء تناسهم
 وليس بناس مثلهم أبداً مثلي
 ألاك أخلائي اذا ما ذكرتهم
 بكيت بعين ماء عبرتها كحلي
 وكانا اذا ما القر هبت رياحه
 وضم سواد الليل رحلاً الى رحلي
 يدرون بالسيف الوريدين والنسا
 اذا لم يقم راعي اناس على رسل
 اذا ما نَقُوا أقرانهم قتلوهم
 وإن قتلوا لم يقشعروا من القتل
 فكم من أسير قد فكتم قيوده
 وسجل دم أهرقموه على سجل
 وقال يزيد بن ضبة بن مقسم^(٢) :

(١) في امالي اليزيدي : يقول رجال بدل اناس ، والسجل الدلو
 (٢) ضبة امه غلبت على نسبه ، واسمه يزيد بن مقسم الثقفي وكان منقطعاً

الى الوليد بن يزيد .

لم ينسَ سلمى فؤادك السدك (١)

وكيف تسلو وأنت مُحْتَنِك

لو كان ما واحداً هواك لقد

اقصرت لكن هواك مشترك

تقول سلمى واستكرت عجيبا

ما بال أشياء منك تُنتَهك

فقلت من ترحمة ومن أسف

أبناء عوف ومالكِ هلكوا

وقال مَقَّاس (٢) بن شريك بن عمرو حليف لبني شيبان :

بكيت شريكاً في الفوار واسودا

وذو العلق حتى ما بعيني من بلل

رجالاً لهم ربيعةُ المجد لم يخف

مجاورهم ريبَ الحوادث والزَلْ

وكنّا بهم نرعى الجميع ونأكل ال

ربيعَ ونكفي حاملَ القرم ما حمل

(١) السدك المولع بالشئ والمحتنك المتناهي عقله وسنه واحتنك الرجل

اي قوى واستحكم .

(٢) مَقَّاس : لقب لقب به لان رجلا قال : هو يمقس الشعر كيف شاءه

وقال ابن الكلبي : سمى مقاساً بقوله :

مقسست لهم ليل التمام بفتية الى ان بدا خيط من الفجر طالع

واسمه مهر بن النعمان ترجمته فى السمط ٢١٢ ومعجم المرزباني ٣٣١

والمؤتلف والمختلف للآمدي ، ١٠٧ .

وقال ابن المعتز :

لِلَّهِ أَقْنَوامٌ فَقَدْتَهُمْ سكنوا بطون الارض والحفراً^(١)
مَرَدَ الزمانُ عليَّ بَعْدَهُمْ وعرفت طول الهم والسهراً

وقال نهار بن نوّسعة يرثي أخاه عتبان :

عِثْبَانُ قَد كُنْتُ أُمْرَأً لِي جَانِبُ
حَتَّى رُزِيتُكَ وَالجِدُّودُ تَضَعُضَعُ
قَد كُنْتُ اشوسَ فِي المِقَادَةِ سَادِراً
فَنظَرْتُ قَصْدِي وَاسْتِقَامَ الاِخْدَعِ
وَفَقَدْتُ إِخْوَانِي الَّذِينَ بَعِشَهُمْ
قَد كُنْتُ اعْطَى مَا اشَاء وَأَمْنَعِ
فَلَمَنْ أَقُولُ إِذَا تَلَمَّ مُلِمَّةٌ
أُرْنِي بِرَأْيِكَ أَوْ إِلَى مَنْ أَفْزَعِ

وقال البراء بن ربيعي :

أَبْعُدُ بَنِي أُمِّي الَّذِينَ تَتَابَعُوا
أُرَجِّي حَيَاةً أَوْ مِنَ المَوْتِ أَجْزَعُ
ثَمَانِيَةَ كَانُوا ذُؤَابَةَ قَوْمِهِمْ
بِهِمْ كُنْتُ أُعْطِي مَا اشَاء وَأَمْنَعِ

(١) البيت الاول في زهر الاداب ٧٨٧/٢ ضمن قصيدة مطلعها :

أخنى عليك الدهر مقتدرا والدهر الام غالب ظفرا

وكانوا كَسَبَلُ المرْتَمَى ' في كِنَانَةٍ
فَأَضْحَتْ وما فيها من النبل أفرع' (١)

وانشد ابو زيد عن الفضل :

أخ لا اخالي غيره غير اني
كراعي الخيال يستطيف بلا فِكْرٍ
فإنَّ حراماً أن ارى الدهرَ باكياً
على الفه الأبيكيتُ على عمرو

وقال الفرزدق همّام بن غالب يرثى همام بن ناشزة احد بني عامر :

وقفت فأبكتني بدار عشيرتي
على رُزْنَيْنِ الباكيات الحواسرُ
غدوا كسيوف الهند ورّاد حوامة
من الموت أعياء ورْدَهْنِ المصادر

محامين حاموا عن حريم وحافظوا بدار المنايا والقنا متشاجر
كأنهم تحت الخوافيق اذ غَدُوا الى الموت اسد الغابتين الهواصرُ
ولو ان سلمى نالها مثل رُزْنِنَا لهدّتْ ولكن تحمل الرزءَ عامر
عن الشعبي قال : كنت عند عبدالله بن جعفر بن ابي طالب رضوان الله عليهما .
فأنشدته قول حارثه بن بدر الفداني :

(١) الاهزع من السهام الذي يبقى في الكنانة وحده وقيل هو خير
السهام وافضلها تدخره لشديدة ، وقيل هو آخر ما يبقى في الكنانة جيداً
كان أو رديئاً .

وكان لنا نَبَعٌ يَقيِنَا فروعُهُ
فقد بَلَّغَتْ الا قليلا عُرُوقُهَا^(١)

وشيبَ رأسي واستخفَّ حُلُومَنَا
وتتَرَكُ أُخْرَى مُرَّةً ما تَدُوقُهَا

رأيت المَنَـايَا باديَات وعُودًا
الى دارنا سَهْلًا اليَنا طَريقَها

وقد قَسَمْتُ نَفْسي فَرِيقَينِ مِنْها
فَريقَ مَعَ المَوتَى وَعِندَى فَرِيقَها

فقال لي ابن جعفر رضي الله عنهما نحن احق بهذا الشعر وجاءه غلامه بدرهم في مندبل فقال هذه غلّة أرضك بمكّن كذا وكذا فقال القها في حجر الشعبي فرمى بها الي .

وقال أبو دؤاد الايادي :

لا اعدُ الأتِـارَ عُدْمًا وَلَكنْ
فَقَدُ مَنْ قَد رَزَّتْهُ الِاعْدَامُ^(٢)

من رِجالٍ من الاقرب فادوا^(٣)

من خِدامِ هُم الرُّؤوسُ العِظامُ
من رِجالِ أبوهم ، وأبي عمرو

وكعب بيض الوجوه وسام

-
- (١) الابيات مع الخبر في الاغاني ٢٣/٤٦٧ ، ٤٦٨ .
(٢) ديوانه : ٣٣٨ والاصمعيات ٢١٥ ، الاقتار قلة المال وضيق العيش .
(٣) فادوا اي ماتوا .

وشبابٍ ، كأنهم اسدٌ غيل

خَالَفَتْ فِرطَ حَدَّهَا الْإِحْلَامُ (١)

وكهولِ بني لهم أولوهم مائِراتٍ يهابُها الأَقْوَامُ

فيهمُ للملأين أناةٌ وعُرامٌ إذا يراد العُرامُ (٢)

وسماح لذي البنين إذا ما

قَحَطَ القَرُّ واستقلَّ الغمامُ (٣)

سلط الموتُ والمنون عليهم

فلهم في صدى المقابر هام

وكذاكم يصبرُ كلُّ إنسانٍ

سوف حقاً تليهم الأيام

فعلى إثرهم تساقط نفسي

حسرات وذكروهم لي سقام

وقال زبَّان بن منظور بن سيار :

لئن فِجَعْتُ بالقُرْناةِ يوماً

لقد متعت بالأمل البعيد

(١) ني الاصمعيات خالطت بدل خالفت ، الغيل الاجمة ، والحد ،

الحدة والغضب .

(٢) في الاصمعيات : فهم للملائمين ، والملائم الموافق واناة بمعنى ثاني

والعرام الشدة .

(٣) القَرُّ البرد واستقل ارتفع وفي الاصمعيات قحط القطر واستقل

الرهام والرهام الامطار الضعيفة .

وما تجرد المنية فوق نفسي (١)
ولا نفس الأجابة من مزيد
السنا انفساً وبني نفوسٍ
ولسنا بالسَّلام ولا الحديد

قال الاصمعي : انشدني المذحجي لامَّ معدان الانصارية

لا يبعد اللهُ فيانا رُزئتُهمُ
بانوا لوقت مناياهم فقد بَعُدوا
أضحت قبورُهمُ شتى ويجمَعُهمُ
رَوُ المنون ولم يجمَعُهمُ بلدٌ (١)
ميتٌ بمصرٍ ، وميتٌ بالعراق وميتٌ بالحجاز منايا بينهم بددٌ
رعواً من المجد اكنافاً الى أجل
حتى اذا بلغت اضمأؤهم وردوا
كانت لهم همم فرقن بينهم
اذا القعايدُ عن أمثالها قعدوا
فعلُ الجميلِ وتفريجِ الجليل
واعطاءُ الجزيل اذا لم يُعْطِه احدٌ

قلت لي ابيات تشبه معنى هذه الابيات ، وهى شرح حال صحيحة لا على مذهب الشعراء وذلك اني مرَّ بي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من زار قبر أبويه

(١) في الذيل : وما تبغي المنية حين تأتي ...

(٢) رَوُ المنون الرودُ الهلاك واختلاف المنية كما جاء في الاصل تحت

لفظة الرود .

أو احدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا « (١) فأسفني ما حرّمته من زيارتهما
وشتات شملنا احياءً وامواتا فقلت :

نافستي صروف دهري في الفو
ز ببر الالباء في الرّجّم
لو كنت أسطيع ان ازورهما
مشياً على الرأس لا على القدم
بادرت أمشي الى ثرى جدّي
أعزّ أهلي عليّ كالقلم
لكن بمصرٍ قبرٍ وفي شيزر
قبرٍ وداري بمتأى العجم (٢)
والظلم في الارض ما نعي كل ما
ابغيه حتى زيارة الرمم
وما ظنت الذي لقيت من الد
نيا تراه عينا في الحلم

وقال ابو فؤيب الهذلي واسمه خويلد بن خالد وهلك له بنون خمسة في عام
واحدٍ أصابهم الطاعون وكانوا توجهوا الى مصر .

أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمعتبٍ من يجزع

(١) رواه الحكيم الترمذي والطبراني عن أبي هريرة ، قال الهيثمي :

فيه عبدالكريم ابو امية ضعيف .

(٢) يريد به حصن كيفا ويقع شمال شرقي ميفارقين .

فالت أئمة ما لجسك شاجباً
مذ ابتذلتَ ومثل مالك ينفع (١)

أم ما لجبئك لا يلائم مضجماً
الا اقضَّ عليك ذاك المَضْجَعُ
فاجبَتْها أنْ ما لجسمي أَنَّهُ
أودى بني وأعقبوني حسرة (٢)

بعد الرقاد وعبرة ما تَقْلَعُ
سَبَقُوا هَوَىَّ وأَعْنَقُوا لهوَاهم
فَقَضَّوْهُم ولكل جنبِ مصرع (٣)

ولبتُ بَعْدَهُم بعيشٍ ناصبٍ
وإخال اني لاحق مُسْتَتَبِعُ
ولقد حرصتُ بأن ادافع عنهم
وإذا المنيّة أقبلت لا تدفع

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها
الفيت كل تميّة لا تنفع
فالعين بعدهم كأن حداقها
كُحِلَتْ بشوك فهي عور (٤)

-
- (١) الشاحب : المتغير ويروى ما لجسك سائباً أي بسوء ، وابتذلت اي امتهنت نفسك واهملتها ، ويروى بالبناء للفاعل .
(٢) قال الاصمعي : ان ما لجسمي في موضع الذي يقول ان الذي بجسمي حزني لنهاج ولدي .
(٣) في ديوان الهذليين والمفضلين : فتخرموا ، وهوىً بمعنى هواي بلغة هذيل اي ماتوا قبلي وكنت ارغب ان اموت قبلكم ، واعنقوا اي اسرعوا .
(٤) في ديوان الهذليين : سملت بشوك ، وفي رواية فهي عورى .

حتى كَأني للحوادث مَرَوَةٌ
 بصفا المُشَقَّر كل يومٍ تُقرَعُ (١)
 وتجلدي للشامنين أريهمُ
 أَني لريب الدهر لا اتضععُ

وقال ابو ذؤيب ايضا :

ديار التي قالت غداة لقيتها
 صَبَوْتُ أبا ذيبٍ وَأنتَ كبير
 تَغَيَّرْتُ بعدي أو أصابك حادث
 من الدهر أم مَرَّتْ عليك مرورُ
 فقلتُ لها فقد الأجابة أَني
 حديث بأرزاء الكرام جدير
 فراقٌ كَنَغْضِ السِّنِّ فالصَّبْرُ إنه
 لكل أناسٍ عثرةٌ وجبورُ

نغضُ السِّنِّ : تحريكها ، قال الله تعالى (فسينغضونَ اليك رؤوسهم)
 [الاسراء آية ٥١] أي يحركونها ويروى كقيض السنِّ ، وقيضها : انشقاقها ،

فأصبحت أمشي في ديار كأنها
 خِلافَ ديار الكاهليةِ غورُ
 يقال : خلفُ " أعور " اذا كان فاسداً يقول هذه الدار خلفُ " أعور " من
 هاتيك :

(١) المروة : حجر أبيض براق تقدر منه النار ، والمشقر حصن بالبحرين
 وفي المفضليات بصفا المشرق : والمشرق مسجد الخيف من مِني وخصه لكثرة
 مرور الناس به .

وقال ابراهيم بن هرمة :

أنادي اذا أوفى من الارض مرباً
لاني سميع" لو أجاب بصير'
تفانوا ، ولم يُبقوا ، وكل قبيلة
سريع" الى وِرْدِ الفناءِ كرامها

وقال أبو العيص بن حزام :

وكيف وقد صاروا عظاما وأقبرا
يصيح صداها بالعشي وهامها
وكم من صاحب قد ناءَ عني
رُميت بفقده وهو الحبيب'
فلم أبدِ الذي تخفي ضلوعي
عليه وإنني لأنا الكئيب'
مخافةً أن يراني مُستكينا
عدو" أو يساء به قريب
فيشمت كائِيح" ويظنُ أني
جزوع" عند نائبة تنوب
فبعدك مدتِ الاعداء طرْفاً
السيِّ ورابني دهر مريب
وأنكرتُ الزمانَ وكلَّ أهلي
وهرتني لفيتك الكليب'
وكنت تَقطعُ الأبصارُ دوني
وإنْ وَغِرَتْ من الغيظِ القلوب'

ويمنعني من الأعداء اني
 وإن رَغِمُوا ، لمخشي مَهَيْبُ
 فلم أر مثل يومك كان يوماً
 بدت فيه النجوم فما تغيب
 وليلٍ ما أنام به طويلٍ
 كأنني للنجوم به رقيب
 وما يك جائياً لأبدٍ منه
 اليك فسوف تجلبه الجلوبُ

وقال كثيرُ بن عبد الله وهو ابن الغريرة وهي امه (١) :

الامن لشوقٍ آخرَ الليل شائقٍ
 وقلبٍ لمكسور الجناحين خافقٍ
 وصباً حزين كلكما جنَّ ليله
 تذكر ذكرى من حيبٍ مفارقٍ
 فلا تعذيني يا ابنة الخير إنما
 تخرمت الأيام مني اصادقي (٢)
 فأصبحتُ رهناً بعدهم في ديارهم
 كمُسْتَوْثِقٍ منه وليس بأبقٍ

(١) انظر الخزانة ٤/١١٨ ، الاغاني ١١/٢٧٨ ، ذيل السمط ٢٨ معجم

الشعراء ٢٤٠ .

(٢) اصادق : جمع صديق . تخرمتهم استأصلتهم .

وقال محمد بن خالد بن الوليد بن عقبة (١) :

هل في الخلود الى القيامة مطمع
أم للمنون عن ابن آدم مدفع'
هيات ما للنفس من متأخر
عن وقتها لو ان علمك ينفع
أين الملوك وعيشتهم فيما مضى
وزمانهم فيهم وما قد جمّعا
ذهبوا ونحن على طريقة من مضى
منهم فمفجوع" به ومفجع'
عثر الزمان بنا فأوهى عظنا
ان الزمان بما كرهت لمولع'

وقال ابراهيم بن كنيف (٢) :

تعزّ فان الصبر بالحرّ أجمل'
وليس على ريب الزمان معوّل'
فلو كان يُغني ان يُرى المرء جازعاً
لحادثةٍ أو كان يُغني التّدل'
لكان التعزي عند كل مصيبة
ونائبة بالحرّ أولى وأجمل
فكيف وكلّ ليس يعدو حمامه'
وما لأمري عمّا قضى الله مرحل'

(١) المعجم للمرزباني ٣٤٥ - وعقبة بن معيط يتهم في دينه والايات
في رثاء عمر بن عبدالعزيز .
(٢) في السمط ابراهيم بن كنيف شاعر اسلامي .

فان تكن الأيام فينا تبدلت°
 ببؤسى ونعمى والحوادثُ تفعلُ
 فما لَيَّنَّتْ مِنَّا قنَاةَ صَلِيَّةٍ
 ولا ذَلَّلْتَا للتي ليس تجْمُلُ
 ولكن رَحَلْنَاهَا نفوساً أَيْةً
 تحمل ما لا تستطيع فتحْمِلُ (١)

وقال ابو الحسن علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين
 ابن علي رضي الله عنهم :

هني بكيت على الأيام والأبد
 ونلت ماشئت من مالٍ ومن وكدٍ
 من لي برؤية مَنْ قد كنت آلفهُمُ
 وبالزمان الذي ولّى ولم يَعُدِ
 لا فارق الحزنُ قلبي بعدهم أبداً
 حتى يفرق بين الروح والجسد

غاب شبيب بن البرصاء عن اهله غيبة ثم عاد بعد مدة وقد مات جماعة من اهله
 وبني عمه فقال :

تخرّمَ الدهر اخواني وغادرني
 كما يُغادرُ نورُ الطارد الفردُ

(١) فى الامالى والمزهر .

ولكن رحلناها نفوساً كريمة تحمل ما لا يستطاع فتحمل
 الابيات الثلاثة الاخيرة أيام الاحتلال البريطاني طرحتها مجلة اللسان ودعت
 الى تشطيرها فكانت مدعاة لمساهمة عدد كبير من الشعراء لتشطيرها وتخسيسها
 وحافزاً لنشر الوعي الوطنى والحس القومى فى تلك الايام الحالكة .

اني لباقي قليلاً ثمّ لاحقهم
ووارد "منهل الحوض الذي وردوا" (١)

وقال العتبي (٢) :

ينام المُسعدون ومنّ يلوم
وتوقظني واطؤها الهموم
صحیح "بالنهار لمن يراني
وليلي لا ينام ولا ينيّم
كأن الليل مجوس" دجاه
وأولهُ وآخره مُقيم
لمهلك فية تركوا أباهم
واصغر مابه منهم عظيم
يذكرنيهم ما كنت فيه
فسيان المساء والنعيم
فبالخدين من دمعي ندوب
وبالاحشاء من وجدي كلوم
فان يهلك بنيّ فليس شيء
من الدنيا على أحسدٍ مُقيم

(١) شبيب بن يزيد بن جيرة ، واهمه قرصافة بنت الحارث لقبت بالبرصاء لشدة بياضها ولم يكن بها برص وشبيب شاعر اسلامي من شعراء الدولة الاموية ، بدوي ، وفي الاغاني الطارد الفئد ، اى الذى يشكو نؤاده .

(٢) العتبي واسمه عبدالرحمن ينسب الى عتبة بن أبي سفيان .
قال المرزباني بصري علامة راوية للاخبار والاداب حسن الصورة جميل الاخلاق ، وكان معمرآ ، مات له ستة اولاد بالطاعون سنة ٢٢٩هـ .

وقال مُنقِدُ بن عبد الرحمن الهلالي :

الدهر لأمّ بين الفتا
زمناً وفرّقَ بيننا الدهر
وكذاكَ يفعل في تصرفه
والدهر ليس يناله وتِر'
كنتُ الضنينَ بمنّ فُجِعْتُ به
وسلوتُ حين تقادم الأمر'
لخيرٍ حَطِّكَ في الرزية أن
يلقاك عند نزولها الصبر'

كان الشمردل بن شريك المنقري خرج هو واخوته حكم ووائل وقُدامة في جيش مع وكيع بن ابي سُود فبعث كل واحدٍ منهم في جيش فأتاه الشمردل فقال أيها الامير ان رأيت ان تبعثنا معاً في وجه واحد ، فأتاً اذا اجتمعنا تعاوننا وتاسينا وتناصرنا ، فأبى عليه وبعث كل واحد منهم في جيش ، فقتل إخوته وأتاه نعيهم فرثاهم وقال :

أعاذلُ كم من روعةٍ قد شهدتها
وغصة حُزنٍ من فراق أخٍ جزَلِ
اذا وقعت بين الحيازيم اسدفت
عليّ الضحى حتى يُؤسِّني أهلي
أقول اذا أسَّيتُ نفسي باخوةٍ
مضواً لاضعفٍ في الحياة ولا عزَلِ

أبي الموت الا ان كلَّ بني أبٍ
سَيَمْسُونُ شتى غير مجتمع الشمل

سأبكي أخلائي الذين تبرضوا (١)
دموعيَ حتى أسرع الحزن في عقلي

روي ان عبدالله بن عمرو العبلي قال له عبدالله (٢) بن حسن بن حسن
رضي الله عنهم أشدني شيئا مما رثيتَ به قومك فأشدني :

تقول أمامة لما رأت°
وقلةَ نوميَ على مضجعي
لقد الأجابة اذ نالها
رمتها المنون بلا نصَّلي°
نشوزي عن المضجع الانفس
لدى هَجَعَةِ الاعين التَّعَسِ
سهام من الحدث المؤنس
ولا طائشات ولا نكَّسِ
فصرَّ عنهم° بنواحي البلاد
فذاك الذي غالني فأعلمي
ملقَى ' بأرضٍ ولم يرَ مَسِ
ولا تسألني بأمرٍ مؤتَسِ
اولئك قومي اناخت بهم
نوابٍ من زمن متعَسِ

قال فرأيت دموع عبدالله بن حسن بن حسن رضي الله عنهم تنحدر على خده
ويروى ان هذا الشعر لابي سعيد مولى عمرو بن عثمان بن عفان رضوان الله عليهم
يرثي قتلى بني امية الذين قتلهم عبدالله وداود ابنا علي بن عبدالله بن العباس
رضي الله عنهم •

أشد التَّجِيرَ مي لمنظور (٣) بن مرَّند الراجز يرثي مقاتلاً وجيشاً :

-
- (١) تبرضوا الدمع استنزفوها الابيات مع خبرها في الاغانى ٣٥٢/١٣
(٢) عبدالله بن حسن والد محمد الملقب بالنفس الزكية وقد ثار بالحجاز
على المنصور وخرج اخوه ابراهيم فى البصرة فقتلا وقتل المنصور عدداً من آل
الحسن وخرج ابنه ايام الرشيد ولما لم ينجح بالحجاز ذهب الى المغرب وأسس
دولة الادارسة مشتقة من اسمه (ادريس بن عبدالله)
(٣) شاعر اسلامي أنظر معجم الشعراء للمرزباني ٣٨١ •

إِما تُرِنِي اليَوْمَ يا أُمَّ صالِح
 طويلاً قِيامي للأسي' وقعودي
 فان مُصِيباتِ أَصَبَنَ مَقاتِلا
 وأصحابه استجَهَلَنَ كلَّ جليد
 وكانوا جمالي في الحياة وعدتي
 وحرزي اذا ما قلت أَيْنَ أُسودي

وقال آخر (١) (لسلمة بن عياش)

أجِدُك ما تَعفُو كَلومِ مُصِيبةِ
 على صاحِبِ الا فُجِعْتُ بِصاحبِ
 تَقَطَّعُ أَحشائي اذا ما ذَكَرتهم
 وتَهَلُّ عيني بالدموعِ السواكِبِ
 وكنت امرأً جَلدًا على ما يَنوبني
 ومعترفًا بالصبرِ عندَ النواكِبِ
 فهدَّ أبو سفيانَ رُكني ولم أكن
 جزوعًا ولا مُسْتَنكِرًا للنواكِبِ
 غَنينا معاً بضعا وخمسين حجة
 خيلي صفاء ودُّنا غيرُ كاذِبِ
 فأصبحت لما حالت الارضُ دونه
 على قربه مني كمنٍ لم اصاحبِ

(١) الابيات لسلمة بن عياش شاعر بصري من مخضرمي الدولتين وهي
 في الاغانى ٢٥٨/٢٠ يرثى بها صديقه ابا سفيان بن العلاء .

وقال أبو العباس الاعمى (١) :

ليت شعري من أين رائحة المـ
سك وما إن أخال بالخيف إنسـ

حين غابت بنو أمية عنها
والبهاليل من بني عبد شمس

خطباء على المنابر فرسا
ن" عليها وقالة" غير خرّس

لا يصابون صامتين وإن قا
لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس

بحلوم إذا الحلوم استخفت
ووجودٍ مثل الدنانير ملّسـ

عن خدّاش بن فراس النميري قال اغارت علينا بنو جشم بن بكر بظهر
البشر فأصابوا منا أخوين فارسين سيدين يقال لاحدهما مسعود وللآخر حاتم ابنا
شيزم وكانت له اخت سيدة برزة يقال لها : رائطة بنت شيزم فبكتهما ورتتهما
طويلا وكانت احراً ما تكون اسيّ وأسفا وأطول ما تكون حزنا ولهفاً اذا صاح
صائحنا ، وذعر سارحنا ، وركب فارسنا ولقد رأيتها على مثل تلك الحال في بعض
الايام ، والناس ناثرون والاصوات متواترة والخيل متبادرة ، والصارخ هاتف
وهي تندبهما وتقول :

لهفي على الاخوين كالـ أسدين مسعود وحاتم^٥
السّيدين ، المانعيـ نِ الذائدين عن المحارم
الفاثقين ، الراتقيـ نِ السابقين الى المكارم

(١) كان من شعراء بني أمية المعدودين والابيات في الاغاني ٢٣٠/١٦

مع قصتها .

الضارين جماجم الأبطال بالبيض الصوارم
 والطاعنين بكل ما رنة وقاصمة وقاصم
 كانا يدي فثقلنا بالساعدين وبالمعاصم
 فبقيت كالطير المقصص ريشه واهي القوادم
 لا أستطيع ولا أطيق اردني عني كف ظالم
 مع كل رنة مأتم لي مأتم وعلى مأتم
 فاليوم اخضع للذليل للمحارب والمسالم

كلمة في الكتاب :

ما قدمته هو جزء يسير من الفصل الاخير من المنازل والديار وفيه الغناء ،
 للتعريف بطريقة المؤلف واختياره للمقطعات العربية عن فكرته والمناسبة لمنهجه
 وهى بقاء الاهل والاخوان ولا يسعني الا ان اسجل اعجابي الذي لا حد له بطول
 اناة المؤلف وصبره في تقليب الدواوين وكتب المختارات حتى استطاع ان يسقط
 على الاشعار الملائمة لكل فصل وفيها دليل على سعة ثقافة المؤلف ، واطلاعه الواسع
 على روائع الشعر فى عصوره المختلفة الى عصره ، أما مختاراته فهى من الجودة
 والحسن بمكان ولا عجب اذا جاءت رائعة وهو الذواقه والاديب الصيرفي للبيان ،

قد عرفناك بأختيارك اذ كان دليلاً على اللبيب اختياره

لم يكن اسامة فى بقية الفصول يختلف عن هذا النسق العالمي الذى قدمت

نماذج منه •

كان المؤلف يتوخى ان يكون النص المختار فيه لفظ مما عنون به الفصل وهو
 الزام يضيق فيه على نفسه فيما هو موفور من الشعر ومع ذلك فقد اتم فصوله
 ومنتخباته وفق ما وضع لها من تخطيط يسرت له في نجاحه هذا :

خصلتان أعانتة : طول معاناته للجمع والتبويب مدة ست عشرة سنة والثانية
 كثرة محفوظه ومعرفته لمصادر بحثه ومنبع مختاراته ، والكتاب لا مثيل له فيما الفه
 المؤلفون في بابهِ وربما لم نجد مثيلاً له في كتب المختارات وعيون الاخبار ، والبصائر

والذخائر ، والقاريء الكريم سيرى نفسه ينتقل من موعظة الى عبرة ومن حكمة الى حكمة فيها التأسى والاعتبار والسلوة وانفراج الهم ، سيتقلب من روض الى روض يزخر بالذوق ويزدحم باللغة وينضح بالادب الغض وبالمعاني الانسانية ، وفي الكتاب كما اسلفت اخبار واشعار للمؤلف تضيف مادة حية جديدة لحياة اسامة .

سجل اسامة فى المنازل والديار جملة من شعره وشعر اهله :

قال فى ص ٥٢ الجزء الاول :

« قلت : ابي على من تقدم ذكره من الشعراء أفضل المزيّة ، إذ كنت دونهم صاحب الرزيّة ، فكان شعرى اولى ان يقدم على اشعارهم ، وإن قصّرت بي البلاغة عن اقتفاء آثارهم ، لكن للمتقدم سبق ، وهو بالتقدمة أولى وأحق ، وإن كنت وهم كما قال ذرّ لابيه : يا أبه ، مالك اذا تكلمت ابكيت الناس ، واذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ ، قال : يا بنيّ ليس النائحة المستأجرة كالثكلى » .

اختار من شعر أخيه عز الدولة أبى الحسن على بن مرشد المولود سنة ٤٨٧ هـ بشيزر وسمع الحديث ببغداد وكتبه بط حسن وكان فهماً شاعراً قدم دمشق غير مرة واستشهد رحمه الله على باب غزة فى شهر رمضان سنة ٥٤٥ هـ فى حرب الفرنج فى الحملة التى قام بها مع اسامة ، اختار له :

يا منزلاً لعب البلى برسومه شعفاً بهجته فليس يريم

لا تبعدنّ وجاد ربك وابل

يروى ثراك اتيه ويُسيم

فأسق الربوع من الدموع سجالها

ان الرسوم لها عليك رسوم

وله :

سل المنازل عمن كان يسكنها من الاجبة والاخوان ما صنعوا

تُخبرك وعظاً بلا لفظٍ فقد نظرت آمالهم والمنايا كيف تطرّع

وهكذا بعد نفض الصور خاوية
 بني ابي إن عدا دهر^١ ففرقنا
 تضحى المنازل اعلاهن متضع^٢
 فهم^٣ نفسي بكم ما عشت مجتمع^٤
 جفون عيني ومات اليأس والطمع^٥
 وان دهرأ رمى عن جيده دُرأ^٦
 امثالكم لزمان عاطل ضرع^٧

وفي بقاء المنازل اختار من شعره^(١) قال :- وهذا شيء من شعري في هذا
 المعنى بعدما اصابنا من الزلزال ما اصابنا :

الى الله اشكو روعتي لمنازل خلت^١ ، وجوى^٢ قلبي لأهل المنازل
 سيوفي اذا ما نزلتني ملمة^٣

حصوني اذا خفت^٤ الردى ومعاقلي

مضوا سلفاً قلبي فلم احظ^٥ بعدهم

من العيش والعمر الطويل بطائل

وقال :

هذي منازلهم عفت^١ وتفرقوا

فسل المنازل عنهم ماذا لقوا

تُخبرك ان الارض قد وارتهم

وأبت^٢ لهم ان يسمعا او ينطقوا

وبقيت بعدهم^٣ لهم^٤ فادح^٥

وكآبة^٦ تُضني وخطب^٧ يطرُق^٨

أرجو اللحاق^٩ بهم ، ودون لحاقهم

باب من الاجل الموقت مُعلق^{١٠}

(١) المنازل والديار ص ٥٤ - ٥٨ ولم يكن فى الديوان .

فإذا نهاني عن رجاء لقاءهم
بأسي ، هفا قلب اليهم شقيق
وقال :

قل للذي فقد الاجبة واشئ
يسقي منازلهم دموعاً تسجم
سَل عنهمْ صرفَ الزمانِ فانه
بهم من الدار المَحيلة أعلم
افناهم ريب المنون وهذه
آثارهم عظة لمن يتوسم
هي شيمة الايام كفُ تبتي
مُد كانت الدنيا وكفُ تهدم
وإذا رأيتَ محسدين فقلما
ترجيهم الايام حتى يُزَحَموا
وترى تقلبَ هذه الدنيا بنا
وكأنتنا فيها سكارى نُومُ
وقال :

يُعنفني في الدار صحبي على البكاء
فيا ويحَ قلبي من خَلِيٍّ وجاهلٍ
وقالوا ابكي للمنازل قلت لا
ولكنما ابكي لاهل المنازل

وقال :

حيا ربوعك من ربي ومنازل
سارى الغمام بكل هامٍ هامل^(١)
وسقتك يادار الهوى بعد النوى
وظفاء تسفح بالهتون الهاطل^(٢)
حتى تروض كل ماح محل
عافٍ وتروي كل ذابِل
أبكيك أم ابكي زماني فيك أم
اهليك أم شرح الشباب الزائل ؟

وقال : ولم تكن فى الديوان :

أنظر منازل آل مُنْقِذَ إِنِّهَا
عِظَةُ اللَّيِّبِ وَعِبرَةٌ لِلنَّاطِرِ
كانوا بها فى نعمة محروسة
بمكارم وذوابلٍ وبواتر
ما رامها ملكٌ ولا ذو قُدرة
الا انتى عنها بقلب طائر
متلهفاً ما اسطاعها ومن الذي ؟
يلجُ العرينَ على الهزير الخادر^(٣)
فأصابها قَدَرٌ فأهلك من بها
واعاد شامخها كرسم دائر

(١) من الديوان ص ٣٠٤ .

(٢) سحابة وظفاء مسترخية لكثرة ماثها .

(٣) الهزير من اسماء الاسد ، واسد خادر اى مقيم فى عرينه .

فاذا ذكرتهم عرتبي حصرة
تمرى سحائب دممي المتبادر

وقال ولم توجد بالديوان :

يا منزلا كان العيز مقترنا
بالسيف والمال مقرونا الى الكرم

من خاف جوراً وعندما ثم لاذ به
لاقي الاماين من جور ومن عدم

أفتت حمتك احدث الزمان فيا
لله من فتكها بالاسد في الاجم

أعيت مناواتهم غلب الملك الى
ان جاءهم قدر قد خط بالقلم

فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم
كان ما خولوه كان في الحلم

ولم تدع منهم الا حديثهم
كما تحدث عن عاد وعن إرم

فيا لقلبي لاحزان اكاتهما
عليهم ولدمع غير مكتتم

وقال ولم تكن في الديوان :

غاضت دموعي في المنازل وادعوى

صبرى وراجعي الرقاد النافر

إن لم اسح بها سحائب أدمع

ينجاب خشيته الغمام الباكر

أَحْمِلُ الْإِطْلَالَ مَنَّةً عَارِضٍ
وسحاب دمي مُسْتَهِيلٌ ماطرٌ

إِنِّي إِذَا بِشَوْنٍ عَيْنِي بَاخِلٌ
وبعهد من سكن المنازل غادرٌ

وقال ولم تكن في الديوان :

هذي منازلهم وانت بهم مُعْتَى مغرم
فأسفح دموعك في تراها ها أو يمازجها الدم^(١)
واسأل بهم صرف الزمان فإنه هو اعلم
يخبرك ان القوم قد قدموا على ما قدموا
وغداً يُخَيِّم حيث حلّوا في القبور وخيموا

وفي ص ١٢ من الجزء الثاني من المنازل والديار له الايات التالية وهي
لم تكن في الديوان :

أشتاق اهلي واوطاني وقد مُلِكَت^(٢)
دونِي وافنى الردى اهلي واجبابي

فأستریح الى رؤيا القبور فني
أمثالها حلّ اخواني واترابي

ولست أحيا حياةً استلذت بها
من بعدهم ولحاق القوم أولى بي

وفي ص ١٩ من الديار القطعة التالية مثبتة بالديوان ما عدا البيت
الاخير وهي :

وقد افردتني الحادثات فليس لي

أنيس ولا في طارق الخطب أعوانٌ

(١) أو هنا بمعنى الى او الا ويمازجها منصوبة بان مضمرة بعد او .

(٢) ملكها نور الدين زنكي وكان يؤمل ان يؤمر على ارض قومه .

كأنِّيَ من غير التراب نَبَتُ بي الـ
بلادُ فمالي في البسيطة أوطان

أجولُ كما جالت قِذَاءُ بِمَقْلَةٍ
واسري وساري النجم في الأفق حيران

إذا قلت هذا حين ألقى عصا السُرى

دعاني الى الترحال ظلم وعدوان

وفي ص ١١٢ سجل لجده وعمه ووالده لكل منهم أبياتاً وهم أهل بيت
الشعر فيهم طبعاً وتادبا ، فاختر لجده قوله :

لله ما طيفٌ أَلَمَّ بِفَتِيصَةٍ تحنو رؤوسهم على الأكوار
كيف اهتديت لراحلين تزودوا ما شاء قومك من دُجَى ونهار
لفظتهمُ دار الإقامة فيكمُ فنضوا عقال مَطِيَّةِ الاسفار
ورنوا الى الحي المقيم بأعين ينهلن من ماء الدموع الجاري

واثبت لعمه عز الدولة ابي المرهف نصر بن علي رحمه الله هذين البيتين :

لهفي لدار عفاها كل مُنْهَمِرٍ
جَوْنٍ مَلِثٍ عليها رائحٌ ساري

وما عفا ذكر اجبابي الذين لهم
حزني مقيم ودمعي اترهم جاري

وقال والده مجد الدين مرشد بن علي أبو سلامة رحمه الله :

أيا دارَ التصابي والتصافي وخضب العيش في السنة الجماد
لقد جارت عليك صروفُ دهرٍ رمتك بكل داهية نَادٍ (١)

(١) في اساس البلاغة دامية نَادٍ بوزن عقام ، ونَادَى بوزن نصارى
وتأدته الداهية تنأده : قدحته وبلضت منه .

فكم لي فيك من اخوان صدق تملك صفو ودهم قيادي
قضت بفراقهم نوب الليالي فميعاد التلاقي في المعاد
وقال أخوه أبو الحسن علي بن مرشد :

أصبحت دور آل مرشد قفرا
بعد عزٍ وهية وجلال

عظة للعيون فيها اعتبار
ونذير من حادثات الليالي

تُخبر الغافلين أن اقتناء الـ
يخلق فانٍ مُعرَّضٌ للزوال

فعلها السلام بعد بلاها
من حزين ما حزنه الدهر بال

وقال اسامة : ولم تكن بالديوان

يا حيرة النفس امي وجهة سلكوا
ومن هم في سواد القلب حلال

لا أوحش الله داراً كنت أعهدا
مغنى بكم وهي بعد الين أطلال

وقال :

كفى حسرة في النفس بعد أحبة
وقرب أعادٍ يشتهون حامي

لعمرك ما دار الفتى حين لا يرى
أحبته فيها بدار مقام

وأثبت لنفسه في ص ١١٣ - ١١٨ ولم يكن هذا الشعر في الديوان قال :

يا دار غيرك البلى وتحكمت
أصبحت تعرفك القلوب توهماً
لم يبق منك الدهر رسماً مائلاً
لهفي على الزمن القصير قطعته
لم يبق منه سوى جوى متسعر
وقال : ولم تكن في الديوان :

سقى دارهم هامي الغمام وهامله
ونورَ زاوي الروض فيها وذابله
وعاد بها طيب الليالي التي خلت
وغبطة عيشٍ قد تقصت غياطله
منىً يتمناها على بعد نيلها
كذوبُ الاماني زاهب القلب زاهله
وبعضُ الاماني ضلّةٌ ، واذا انقضت
أواخر دهر كيف تُسنى أوائله
ديارٌ بها صاحبت شرخ شيبتي
أجاده طوراً وطوراً أهزله
أروح الى لهو الصبي ونعيمه
واغدو على لبتِ كميّ أنازله
عهدت بها عينَ المها دون حُجبها
اسود الشرى يلقي الردى من تصاوله

(١) الغياطل : واحدة الغيطة وهي الاكل والشرب والفرح والامن .

وسرب ظباء تُحَجَّبُ الشمسُ دونه
 وتُحَجَّبُ عن طيف الخيال عقائله
 وكل أخي بأس كريم تخاله
 إذا ما انتضى سيفاً جلته صياقله
 فلم يبقَ مما كان إلا ادِّكارُهُ
 وحسرةُ قلبٍ لا تَقْرُ بلابله
 وكنت أرى ما سرني غير زائل
 ويخطئني نهج الحزم مَنْ هو جاهله
 فما كان الا الطيفَ يُحَسَّبُ في الكرى
 يقيناً ، فان بان الكرى بان باطله

وقلت :

يقول صحابي قد اطلت وقوفنا
 على الدار مسلوبَ الاسى والتماسك
 أفي كل دار قد عفت أنت واقف
 تروي ثراها بالدموع السوافك
 كأنك في رسم الديار مُتمم
 وفيما عفا من ربها قبرُ مالك (١)
 فقلت نعم هذي ديارٌ عهدتها
 بها معشري مثل النجوم الشوابك

(١) مالك : هو مالك بن نويرة من ارداف الملوك يقال له فارس ذى
 الخمار وذو الخمار فرسه وفي امثالهم فتى ولا كمالك ممن منع الزكاة بعد
 وفاة الرسول قتله ضرار بن الازور بأمر من خالد بن الوليد ، وتمتم اخو مالك
 شاعر فحل وله في اخيه المراثي المشهورة .

أصابهم ريبُ الزمان فأصبحت
قفاراً وهم ما بين ناءٍ وهالك

وقال :

يقولون قد اعولتَ في الدار ما كفا
وليس على ربعٍ عفا بمُعَوَّل
وكم قدر ما تبقى الدموع اذا جرت
على كل ربع أو على كل منزل
فقلت نعم هذي ديار عهدها
عرين اسودي في الخطوب ومَعْقِلِي
فقد أصبحت قفراً وفرَّق شملهم
حوادثُ دهرٍ بالفراق مُوَكَّل
سأبكيهم أو يمزجَ الدَمُّ أدمعي
فينهلَّ سِمْطاً كالجُمانِ الْمَفْصَلِ (١)

وقال في ص ١١٦ ولم تكن في الديوان :

يا دار أنتِ التي كان الجميع بها
وكان في ربك الولدان والحشم
وكنت للضيف والعافين مُرتَبَعاً
يقتادُهم نحوك الاكرام والكرم
أصبحت قفراً وأضحى أهلك افرقوا
أيدي سبا وانتت عن قصدك الهمم
ما أعجبَ الدهرَ عيشَ الناس أجمعهم
إن سرهم صرفه أو ساءهم حُلْم

(١) الابيات لم تكن في الديوان .

وقال : ولم توجد في الديوان

دار على قلل الجبال تفجرت
فيها بحارُ فضائلٍ ومكارم
فيها الندى والوجود حقاً لا الذي
كنا نُحدث عن سماحة حاتم
وفوارس جمعوا المكارم والعلى
لينَ التواضع في قلوب ضراغم
أفهام ريب المنون فلم يدع
منهم سوى ذكرٍ كحلُم النائم

وقال :

يا دار لو روَّت نحوك أدمي
لسفحتها بك أو يمازجها الدَّمُ
لكنَّ دمعَ الحزن يُحسب قطره
ماءً بروداً وهو جمرٌ مُضرمٌ
وإذا رأيتك قفرة من معشري
وبني أبي وهمُ لعمرِكِ ما همُ
فكأنني عاينت حفرة مالك
وكأنني وجداً عليهمُ مُتمم

وقال ص ١١٧ :

وا وحشتي في الدار لما أصبحت
موحشةً من الظباء العينِ

كانت عريناً وكناساً فأغتدت
 مقفرة الكناس والعرين
 تقارن الاسدُ بها عين المها
 والدهر قطاعُ قوى القرين
 فأصبحت كما ترى ليس بها
 الا دواعي الوجد والحنين

وقال :

نظرت الى دار الاجبة قفرة
 وقد كان فيها العزُّ والكرم المحضُ
 فلما رأى صحيي عليها تلددي (١)
 ودمعي بكى بعضٌ وعفني بعضُ
 وقالوا أفق للارض تبكي فقلت لا
 ولكنني أبكي لمن وارت الارضُ

وقال :

يا دار ان بَخِلْتُ على مغناكِ سارية العهد
 فلا مُطِرَنَّكَ من دمو عي ما ينوب عن الغوادي
 حتى تعود رُبَاكَ حا ليةً مفوفة الوهاد
 كم حلَّ ربَعك من غضيض الطرف ممنوع الوداد
 يستوقف الابصار فهي عليه حائمة صوادي

(١) التلدد : التلفت يميناً وشمالاً تحيراً .

وصروف هذا الدهر تطرق بالحوادث أو تغادي
عادتها رداً للأمور من الصلاح إلى الفساد
يُحسِنُ لا عمداً ويأْتينُ الإساءة باعتماد

وكتب إلى أخيه عز الدولة أبي الحسن علي بن مرشد وهو بعسكر عماد
الدين زنكي بأربل^(١) قال :

وانَّ امرءاً اضحت بأربلَ داره
وفي شيزرٍ إخوانُهُ وشجونهُ
لغَيْرِ مَلُومٍ في الحنين اليهم
ومعذرة ان تستهلَّ جفونهُ

(١) ديوانه : ١٥١ ، وأربل مدينة من مدن العراق الشمالية مركز لواء
أربيل ، كان صاحبها ولجندها اثر في حروب المسلمين مع الافرنج .

بُيُوتُ الْأَدَابِ

حققه العلامة المحقق أحمد محمد شاكر وعاونه في اخراج الكتاب أخوه الأديب الفاضل محمود محمد شاكر والاخوان من أبرز الادباء في تحقيق التراث ولهما أيادي مشكورة ومسامحي مشهورة في خدمة اللغة والادب والحديث ونشره على نفقته لويس سر كيس ، والمخطوطة كانت محفوظة لدى العلامة الدكتور يعقوب صروف وقد وصفها في مجلة المقتطف أيلول ١٩٠٧ المجلد الثاني والثلاثين ، صفحة ٩٥٣ - ٩٦٠ .

وهذه النسخة كتبت في حياة المؤلف اسامة سنة ٥٧٩ هـ وأهداها لابنه الامير مرهف ، وقد بذل الاستاذ أحمد شاكر جهداً كبيراً حاول أن يخرجها مثلاً يحتذى في جودة الطبع ودقة التصحيح ، ولم يبخل صديقه الاديب لويس سر كيس بشيء من النفقة في سبيل ذلك ، كما جاء في مقدمة الكتاب ، وقال :

« والمؤلف رحمه الله يذكر في أوائل الابواب بعض الاحاديث النبوية ولكنه لم يكن من العلماء بالسنة فيأتي بأحاديث منها الصحيح ومنها غير الصحيح ولم استجز لنفسي ان اترك حديثاً واحداً من غير بحث عن أصله وصحته ، نصيحة للامة وأداءً للامانة ، وعلى الرغم من كل هذا فاني عجزت عن معرفة كثير من الاحاديث التي فيه ، ولذلك انصح كل قارئ أن لا يحتج بشيء من الاحاديث في الكتاب الا بما صرحت انه صحيح أو حسن ، واما الاحاديث التي لم اكتب شيئاً عنها أو أشرت الى اني لم أجدها فانه لا يجوز الاحتجاج بها الا ان يثبت للقارئ صحتها بالطريق العلمي الصحيح المعروف عند أهل هذا الفن ، وهذا مما يجب على كل مسلم مراعاته بالدقة التامة في كل كتاب ، والحديث عن رسول الله (ص) شديد والاحتياط فيه واجب » . وقال فاني لا اظنني مغالياً اذا قلت ان هذا الكتاب من أجود كتب الادب وأحسنها ، وسيرى قارئه أنه يتنقل فيه من روض الى روض ، ويجتني أزاهير الحكمة وروائع الادب ويقتبس مكارم الاخلاق ، وفيه ميزة اخرى جليلة ان فيه أقوالاً من نثر ونظم لم نجدها في كتاب غيره من الكتب المطبوعة .

طبع سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م في المطبعة الرحمانية وأعاد طبعه قاسم الرجب صاحب مكتبة المثني في الاوفست في جملة الكتب النادرة التي أعاد طبعها ، وحظي الكتاب بمقدمة للدكتور يعقوب صروف وترجمة وافية لاسامة بن منقذ بقلم احمد محمد شاكر كمقدمة للكتاب •

والنسخة الخطية نصاً في آخرها على ان الفراغ من نسخها « في صفر سنة تسع وسبعين وخمس مئة وأهداه الى ولده الامير مرهف » •

قال الامير مرهف « حبابي مولاي والدي مجد الدين مؤيد الدولة وفقه الله هذا الكتاب الذي هو من تأليفه بدمشق المحروسة في شهر سنة : اثنين وثمانين وخمس مئة ، وكتبه ولده مرهف بن اسامة حامداً مصلياً » •

منهج الكتاب :

الكتاب مادته الادب والاخبار على غرار عيون الاخبار لابن قتيبة ومحاضرات الراغب الاصفهاني والأمالى للقالبي ، يعتمد في مادته على الاشعار والاخبار والنوادر ويبتدىء الباب بأيات من القرآن الكريم تناسب الباب وتتلوها أحاديث نبوية ثم أقوال وحكم ومختارات من الشعر تناسب الفصل ، وقسم الكتاب الى أبواب ينطوي تحتها فصول يقدمها بأي الذكر الحكيم ويختتمها بأقوال الأبناء ممن عرفوا بالبلاغة والحكمة ، فباب في الوصايا وباب في السياسة والشجاعة والآداب والاخلاق وهلم جرا •

والباب الذي عقده المؤلف تحت عنوان : البلاغة هو اوسع الابواب واشتمل على مقتبسات من جوامع الكلم والحكمة من كلام النبوة وكلام الصحابة ، وغيرهم ، ومن محاسن الشعر في المديح والتشبيه ووصف النساء والتشبيب ، والاعتذار ، والعتاب والمراثي ، والغزل ، ومن كلام الحكماء ونوادرهم •

وعني المحقق بوضع فهراس مفصلة هي مفتاح الكتاب فجعل فهرسا لابواب الكتاب وآخر للاعلام ونالاً للاماكن ورابعاً لايام العرب وخامساً لقوافي الشعر ، واجزم ان المؤلف كان قد وضع لبنات كتابه وجمع له مادته منذ ان كان ينتخب

ويجمع مادة كتابه (المنازل والديار) فكان كلما مرَّ بقطعة اعجبته اثناء قراءته ومراجعته. لا تصلح ان تكون ملائمة لكتاب المنازل والديار ووجدتها صالحة لتضم تحت عنوان من فصول كتابه اللباب اختارها ووضعها في القسم الذي تلائمه ، وهكذا لم ينته من كتابه الاول الا وكان قد حضر مادة كتابه الثاني ، ومسوداه جاهزة وكاملة ، وحين علت به السن واصبح مستطيعا بغيره كما يقول أبو العلاء عن نفسه وكما هو حال علامتنا ساطع الحصرى في مذكراته ، اخذ يستعين بغيره بنسخ له او يملي عليه ويعود من ارتضاه مساعداً يقرأ له ما نسخه فيجرب بعض التصويبات والتصحيحات مما هو موجود في النسخة الخطية .

بهذه الطريقة تم استنساخ النسخة التي اهداها لولده مُرْهَف قبل وفاته بستين اذ وافاه الاجل وفاضت روحه سنة ٥٨٤ هـ .

ولم يقدم لها المؤلف كما فعل بكتاب الاعتبار ، والمنازل والديار وكتاب نقد الشعر - البديع - وكتاب العصا - فالكتاب بدأ رأساً من غير تمهيد ، بدأ بالوصايا وختمه بأقوال الحكماء من سليمان الحكيم وبرسين الحكيم وافلاطون وانهاه يقول : (قل مؤلف الكتاب غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين : ما للعلم غاية يدركها الراغب ولا نهاية يقف عندها الطالب ، هو أكثر من ان يحصر واوسع من ان يجمع ، والاعمار متلاشية مُنْتَقِصَةٌ ، وحوادث الزمان فيها مُعْتَرِضَةٌ ، ولولا ان النفس اذا غولبت غلبت وإن زُجرت لَجَّتْ وأبَتْ لكان اشتغال من بلغ من السنين إحدى وتسعين باعمال البر والثواب اجدى عليه من الاشتغال بتأليف كتاب بعدما بالغ الزمان في وعظه في قواه وسمعته وبصره لا بلفظه ، وأندرُ تَغْيُرُ حاله ودنو ارتحاله فهو مقيم على وفاز مَيَّت في الحقيقة حيٌّ بالمجاز مستكين لاسر رب العالمين واثق بما وَعَدَ به ابن التسعين على لسان الامين^(١) صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى اصحابه البررة

(١) يشير الى حديث ورد في الاعمار ، اوله ما من معمر يعمر في الاسلام الخ . نذاذا بلغ تسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي اسير الله في أرضه ، وشفع لاهل بيته ، رواه احمد في المسند رقم ١٣٢١٢ ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ من حديث انس بن مالك مرفوعاً .

المتقين وازواجه الطاهرات امهات المؤمنين صلاة دائمة الى يوم الدين •
فى كتاب اللباب ثبت المؤلف مقطوعات من شعره وردت فى الصفحات :
٤٧ ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٣٨٠ ، ٤١٨ ، ٤٢٩ ، ٤٥١
فى الصفحة ٤٧ قال :

لا تحقرن من الضعيف عداوة
فالنار يحرق جمرها وشرارها
واحذر مداواة العدو وكيد
ان العداوة ليس تخبو نارها
وفى ص ١٨٤ قال وهي مثبتة فى الخريدة :

ان يحسدوا فى السلم من زلتى من العز المنيف
فما اهين النفس فى يوم الوغى يوم الصفوف
فلطالما اقدمت اقدا م الحتوف على الحتوف
بعزيمة امضى على حد السيوف من السيوف
وفى صفحة ١٩٥ قال :

سل بي كماء الوغى فى كل معترك
يضيق بالنفس صدر ذى الباس
يُنِيَّوْكَ بَأْنِي فِى مَضَائِقِهَا
ثبت " اذا الخوف هز الشاهق الراسي
اخوضها كشهاب القذف يصحبنى
عضب كبرق سرى او ضوء مِيقاس
وقال ص ٢٠٢ :

سأنفق مالي فى اكتساب مكارم
اعيش بها بعد المات مخلدا

واسعى الى الهيجاء لا ارهب الردى
ولا اتخشى عاملاً ومهندا
بكل فتى يلقى' المنية باسماً
كأنَّ له في الموت عيشاً مخلدا
وقال ص ٢٠٣ :

قلبي وصبري إلفان 'مذ خلقا
تقاسما صادقين لا افترقا
أمشي الهوينا ، والخطب' في طلبي
يُوضِعُ طَوْرًا وتارة عَنَقَا
أحنو ضلوعي في كل حادثة
على فؤاد لا يعرف القلقا
لا يزدديه خَوْفُ الحِمَامِ ولا
عهدته في ملمة خفقا ،
وفى ص ٢٢٥ :

تجهل في الاقدام رأبي معاشر
أراهم اذا فرُّوا من الموت أجهلا
ايرجو الفتى عند انقضاء حياته
وإن فرَّ عن ورد المنية مزحلا (١)
اذا انا هبت الموت في حومة الوغى
فلا وجدت نفسي من الموت موثلا

(١) الزحل بالزاي الموضع الذى تزحل اليه .

واني اذا نازلت كبش كتيبة

فلست ابالي أيتنا مات أولا

قلت وبالله التوفيق : قد اوردت في كتابي المترجم بكتاب [الاعتبار] عجائب ما باشرته وحضرته وشاهدته من الحروب والمصافات والوقائع منذ كنت ابن خمس عشرة سنة الى ان تجاوزت التسعين وما نالني من الجراح والمكارة .
وانا القائل

الوم الردى كم خضته متعرضا

له وهو غني معرض متجنب

وكم أخذت مني السيوف مأخذ ال

حمام ولكن القضاء مغيب

الى ان تجاوزت الثمانين وأنقضت

بلهنيته العيش الذي فيه يرغب

فمكروه ما تخشى النفوس من الردى

الذو واحلى من حياتي واطيب

وذكرت ما شاهدته من اقدام الرجال وعجائب تعرف الاجال ففئيت بما

اوردته هناك عن الاطالة هاهنا واقتصرت على ما اوردته .

وقال ص ٣٨٠ من قصيدة يعتذر فيها :

هني اتيت بجهل ما قدفت به

فأين فضلك والحلم الذي عرفا

ولا ومن يعلم الاسرار حلقة من

يبر فيما أتى إن قال أو حلفا

ما حدثني نفسي عند خلوتها

بما تُضغني فيه اذا انكشفا

وقال في الصفحة نفسها في جواب عتاب وصله من أخيه رحمه الله :

أبا حسن وافى كتابك شاهراً
صوارم عتب كلُّ صفح لها حدُّ
فقابلت بالعتبي مضيض عتابه
ولم يتجهمه الحجاج ولا الردُّ
وأعجيني عييَّ لديه ولم ازل
إذا لم تكن خصمي : لي الحجاج اللدُّ
فيا جذا ذنبُ اليَّ نسبته
وما خطأ مني أناه ولا عمد
ولو كان ما بائعته فظنته
لكفَّره حقَّ الاخوة والودُّ
فأهلا بعتبٍ تستريح بشه
ويؤمنني أن يستمر بك الحقدُ
لقد راق في قلبي ولذَّ سماعه
بسمعي « فزدني من حديثك يا سعد »

وفي صفحة ٤١٨ قال في الوداع :

يا عين في ساعة التوديع يشغلك الـ
بكاء عن لذة التوديع والنظرِ
خذي بحظبك منهم قبل بينهم
ففي غدٍ تفرغني للدمع والسمهرِ

وقال في ص ٤٢٩ :

يهون الخطب ان الدهر ذو غير
وَأَنْ أَيَّامَهُ بَيْنَ الْوَرَى دَوْلُ
وَأَنَّ مَا سَرَّ أَوْ سَاءَ مَتَقِيلٌ
عَنَّا وَالْآ فَاِنَّا عَنْهُ نَتَقِيلُ

وفي ص ٤٥١ قال :

الناس أشباه فَاِنِ خَطْبٌ عَرَى
حَطَّ الدنبي وشادَ قدر الأفضل
كالعود مُشْتَبِهٌ فَاِنِ حَرَقْتَهُ
كُرِّهَ الدُّخَانَ وَطَابَ عَرْفُ الْمَنْدَلِ

وهذا نموذج من الباب الاول الذى افتتح به المؤلف الكتاب قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الجهاد أو الشجاعة :

عقد الامير اسامة بن منقذ هذا الباب بعد فصل الكرم لاتصال الشجاعة بالكرم ، فهما خصلتان متلازمتان مكملتان بعضها للآخرى ، فقلما رأينا شجاعاً الا ورأيناه كريماً ، وما رأينا بخيلاً الا ورأيناه جباناً ، وقد روي عن الامام علي عليه السلام أنه قال : جنونان لا أخلاقيهما الله : الشجاعة والكرم ، والبخل منقصة تحط صاحبها وتحقر من يتصف بها يعيش البخيل دهره ، مهموماً مكروهاً بغيباً حتى من أهله وأولاده ، قال تعالى « ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم سيطوقون بما بخلوا به يوم القيامة » والشجاعة تمثلت عند اسلافنا بالجهاد في سبيل الله ، والمؤلف حين يتحدث عن الشجاعة والجهاد يتحدث عنها حديث الخبير الذي عاناها منذ ان كان يافعاً حتى

غدا شيخا يدب على العصا ، وقد قدم الجهاد على سائر أنواع الشجاعة لما فيه من اعلاء كلمة الله والنود عن حياض الوطن والدفاع عن بيضة الاسلام والحفاظ على كرامة المسلمين وحرثهم من ان يذلهم فاتح او يستعمر أرضهم مستعمر وما اصاب المسلمين الضعف والوهن في عهودهم الاخيرة ودُخِل عليهم من اقطارها الا حين ضعفت فيهم روح الجهاد ، اختار المؤلف لهذا الباب نحواً من أربعين آية من القرآن الكريم تحت على الجهاد والقتال وتحضُّ على الصبر واختار من الاحاديث النبوية ومن الشعر العربي وقصص اخبار الابطال المحاربين ما فيه اذكاء روح الحماسة في النفوس وطبع الشباب على الشجاعة وترغيبهم على الجهاد .

اختار من سورة البقرة قوله تعالى :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (١٩٠) . »

« وقاتلوهم حيث ثقتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١) . »

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ، (١٩٣) . »

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، . »
ومن سورة آل عمران : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم اذا ضربوا في الارض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ولئن قتلتم في سبيل الله او متم لغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم او قتلتم لألى الله تحشرون) ١٥٨ .

ومنها : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً ، بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم

يلحقوا بهم من خلفهم الا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ١٧١ •

ومن سورة النساء : (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يعْلَبْ فسوف نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)) ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وأجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ، (٧٥) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا (٧٦) ، ومنها : (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً (١٠٤) •

ومن سورة الانفال : يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ومن يولّهم يومئذٍ دُبُرُهُ الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئةٍ فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، (١٦) •

ومنها : يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئةً فامتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتشعلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين •

ومن سورة التوبة : (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدّوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويجزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين •

ومنها : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » •

ومنها : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون •

يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » •

ومنها : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة : يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والفرقان ، ومن أوفى بعهد من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم •

ومنها : وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبىكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فعم المولى ونعم النصير •

ومن سورة محمد (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أنكثتموهم فشدوا الوثاق فاما مناً واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم بعض • والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم) •

ومن سورة الحجرات « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » •

ومن سورة الصف : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ، ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، واخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » (١) •

واختار من الاحاديث ما فيها الترغيب والحث على الجهاد نختار منها :
عن هشام عن الحسن رحمه الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لغدوة^(١)
أو روحة^(٢) في سبيل الله تعالى أفضل من الارض وما عليها ، ولموقف رجل في
الصف أفضل من عبادة ستين سنة » •

وعن ابن عباس رضي الله عنهما « ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث ابن
رواحة رحمه الله في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة ، فقال : اصلي مع النبي
صلى الله عليه وسلم ثم الحق بأصحابي ، وقد غدا أصحابه ، فلما رآه النبي صلى
الله عليه وسلم قال : مالك لم تغد مع أصحابك ؟ قال : أحببت ان اصلي
معك الجمعة ثم الحق بأصحابي ، فقال صلى الله عليه وسلم : لو اعتقت ما في
الارض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم » •

وعن أبي هريرة رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عرض
عليّ أول ثلاثة يدخلون الجنة من بني آدم وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول
الثلاثة الذين يدخلون الجنة - فالشهيد ، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا
عن طاعة الله تعالى وفقير متعفف ذو عيال ، واما الثلاثة نفر الذين يدخلون النار
فأمير مسلط ، وذو مال لا يؤدي منه حق الله تعالى • وفقير فخور •

وعن أنس بن مالك رحمه الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من
عبد يموت وله عند الله خير يتمنى الرجوع الى الدنيا وإن كان له الدنيا لما يخاف
من هول الموت الا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فانه يتمنى أن يرجع الى
الدنيا فيقتل مرة اخرى •

وعن سعيد بن جبير رحمه الله في قول الله تعالى (فصعق من في
السموات ومن في الارض الا من شاء الله) قال : هم الشهداء متقلدوا السيوف
حول العرش وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « والذي نفسي بيده
لو ددت اني اقاتل في سبيل الله فقتل ثم احيا فاقتل ثم احيا فاقتل ثم احيا فاقتل » •
وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال « والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في

سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - الا جاء يوم القيامة وجرحهُ يشغب^(١)
دماً اللون لونُ الدم والريحُ ريحُ المسك » •

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه لما كان يوم أحد قال : من يأتيني
بخبر سعيد بن الربيع الانصاري ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فذهب الرجل
يطوف بين القتلى فقال له سعد بن الربيع ما شأنك فقال الرجل : بعثني رسول الله
اليك لأتية بخبرك ، فقال : فاذهب اليه فأقره مني السلام واخبره اني قد طعنت
اثنتي عشرة طعنة واني قد أنفذت مقاتلي ، واخبر قومنا انه لا عذر لكم إن قتل
رسول الله وواحد منكم حي^(٢) » •

وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : وقوف ساعة في الصف في سبيل
الله تعالى أفضل من قيام ليلة القدر تحت الحجر الاسود •

وروى عنه صلى الله عنه وسلم انه سمع رجلا يقول : اللهم أسألك خير
ما تسأل فاعطني أفضل ما تعطي ، فقال : إن استجيب لك أهريق دمك في
سبيل الله » •

وعن عَسَعَسَ بن سلامة قول : أتى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم الجبل يتعبد فَفُقِدَ وطُلب ، فجيء به الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فقال له رسول الله ما الذي حملك على ذلك فقال يا رسول الله ، أردت
أن اعتزل فاتعبد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفعل ، فان صبر أحدكم
ساعة من النهار في بعض مرابط الاسلام خير^(١) من عبادة رجل خال أربعين سنة ،
وعن عبدالله بن عمرو رضوان الله عليهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : « أول ثلاثة يدخلون الجنة : الفقراء المهاجرون الذين تتقى بهم
المكاره واذا امروا سمعوا وأطاعوا ، واذا كان للرجل منهم حاجة الى السلطان
لم تقض حتى يموت وهي في صدره ، وإن الله عز وجل ليدعو يوم القيامة

(١) يشغب : بفتح الغين المهملة اى يجرى متفجراً اى يتصبب •

(٢) رواه مالك في الموطأ •

الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول تعالى : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي فقتلوا وأوذوا في سبيلي ، وجاهدوا في سبيلي ادخلوا الجنة فدخلونها بغير حساب وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك ، من هؤلاء الذين أثرتهم علينا فيقول الرب عزَّ وجلَّ هؤلاء عبادي الذين قتلوا في سبيلي واوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ •

وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشهيد لا يجد مسَّ القتل الا كما يجد أحدكم القرصة يُقرَّصها » •

وعن أبي عبيسٍ رحمه الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أغبرت قَدماً عبدٍ في سبيل الله فتمسهما النار » •

واورد الامام أبو الحسن يحيى بن نجاح رحمه الله في كتاب (سبل الخيرات) قال يروى عن النبي قال : « الا أخبركم بخير الناس منزلة ؟ رجلٌ اخذ يعنان فرسه يجاهد في سبيل الله •

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً ، بل احياء عند ربهم يُرزقون ﴾ قال ارواحهم كطيور خضري تسرح في الجنة ، ثم تاوي الى قناديل خضري معلقة تحت العرش ، •

واورد الامام الحافظ ابو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل الاصبهاني رحمه الله في كتاب (الترغيب والترهيب) عن انس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله : « الشهداء ثلاثة رجال ، رجل خرج بماله ونفسه محتسباً في سبيل الله تعالى ، لا يريد ان يُقتل ولا يُقتل لتكثير سواد المسلمين فان مات او قتل غفرت له ذنوبه كلها واجبر من عذاب القبر ، وأومن من الفزع الاكبر وزوج من الحور العين وحلت عليه الكرامة ، ووضع على رأسه تاج الوقار والخلد ، والثاني رجل جاهد بنفسه وماله محتسباً يريد ان يُقتل ويُقتل ، فان مات أو قتل جاء يوم القيامة شاهراً سيفه واضعه على عنقه والناس جاثون

على الركب يقول : الا فأفسحوا لنا فانا قد بذلنا دماءنا واموالنا لله عزَّ وجلَّ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسي بيده لو قال ذلك لابراهيم خليل الرحمن او لنبي من الانبياء لتحنى لهم عن الطريق لما يرى من واجب حقهم حتى يأتوا منابر من نور عن يمين العرش فيجلسون ينظرون كيف يُقضى بين الناس لا يجدون غمَّ الموت ، ولا يفتمون في البرزخ ولا تُفزعهم الصيحة ولا يهتمهم الحساب ولا الميزان ولا الصراط ، ولا يسألون شيئاً الا اعطوا ولا يشفعون في واحد الا شفَعوا ويُعطى من الجنة ما أحبَّ وينزل من الجنة حيث احبَّ . »

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الغازي في سبيل الله والحاج الى بيت الله والمعتمرُ - وَفَدُّ الله عزَّ وجلَّ ، سألوا فأعطاهم وَدَعَوْا فأجابهم . »

وعن النبي صلى الله عليه وسلم « انه سُئل : أيُّ الاعمال أفضل ؟ قال الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد في سبيل الله تعالى » .

وشفع المؤلف ما اختار من الايات والاحاديث التي قدمنا جملة سالحة منها بمباحث لغوية مما ورد في اسماء الشجاعة (الباب ١٦٥) .

ثم ذكر من اشتهر بالفتك في الجاهلية ، ومن شهر بالفتك في الاسلام وعدد جماعة ممن عرفوا بالشجاعة والقتال والصبر ، وعاد فخصَّ بعض اصحاب رسول الله ممن شهروا بالجلاد والبسالة قال :

وأما من كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمة الله عليهم اجمعين من الشجعان وكلهم كان مقداما في الحرب حريصاً على الشهادة - ولامير المؤمنين علي بن ابي طالب رضوان الله عليه التقدمة في الاقدام والصيت الشائع في الشجاعة .

ومن أصحاب رسول الله - بل من أهله - ابن عمته الزبير بن العوام رضي الله عنه - المشهور بالاقدام والبأس .

روى المدائني عن مصعب بن عبدالله الزبيري قال : اجمع اهل الاسلام أنه لم يكن في الناس راجل اشجع من علي بن ابي طالب ، ولا فارس اشجع من الزبير بن العوام رضي الله عنهما •

« ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن الجموح رحمه الله شهد بداراً قال : « سمعت القوم - يعني المشركين - وابو جهل في مثل الحرَجَة^(١) يقولون ابو الحكم لا يُخَلَّصُ اليه ، فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوود فلما امكنتني حملت عليه فضربته ضربةً أظننت قدمه من نصف ساقه فوالله ما شبهتها - حين طاحت - الا بالنواة تطيح من تحت مِرْضَخَة^(٢) فضربني ابنه عِكْرِمَة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنني ، واجهضني^(٣) القتال عنها فلقد قاتلت عامة يومي واني لاسحبها خلفي ، فلما أدتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها » ثم عاش رحمه الله الى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه •

ومن أصحاب رسول الله ابو دُجانه سماك بن خرشه بن لَوْدان بن عبدود ابن ثعلبة بن الخزرج رضي الله عنه شهد حروب رسول الله كلها وقال النبي صلى الله عليه يوم احد قبل القتال « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام اليه رجال فأمسكه عنهم ، منهم : الزبير بن العوام رحمه الله حتى قام ابو دُجانه رضي الله عنه فقال ما حقه يا رسول الله قال رسول الله : « تضرب به في العدو حتى ينحني ، قال : أنا أخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه ، وكان أبو دُجانه رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، وكان اذا أعلم بعصاة حمراء علم الناس انه سيقا تل فلما أخذ السيف من يد رسول الله اخرج عصابته تلك فعصَّبَ به رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ابا دُجانه يتبختر : « إنها لمشية يبغضها الله الا في مثل هذا الموضع » •

(١) الشجر الملتف •

(٢) المرضخة حجر يرضخ به النوى اى يكسر •

(٣) اجهضني القتال اى اسرعني واشغلني •

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه فوجدت في نفسي حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فمنعني وأعطاه أبا دُجانة ، وقلت انا ابن صفيه عمته ومن قريش وقد قمت اليه فسألته إياه قبله ، فأعطاه اياه وتركني ، والله لأظننَّ ما يصنع ، فأبتعته ، وأخرج عصاة فعصب بها رأسه فقالت الانصار ، اخرج ابو دُجانة عصاة الموت وكذا كانت تقول اذا تعصب بها ، فخرج وهو يقول :

انا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
 أن لا اقوم الدهرَ في الكبول أضربُ بسيف الله والرسول
 الكبُول : آخر الصفوف وقيل وراء القوم ،

قال الزبير : فجعل لا يلقي احداً الا قتله وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً الا دَقَّفَ^(١) عليه فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه فدعوت الله ان يجمع بينهما فألتقيا فأختلفا ضربتين فضرب المشك أبا دُجانه فأتقاها بدرقته فعضتُ بسيفه وضربه أبو دجانة فقتله ، ثم رأيتُه قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عزل بالسيف عنها وقال : أكرمت سيف رسول الله ان اضرب به امرأة فقال الزبير فقلت : الله ورسوله اعلم » •

ومن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن مالك رضي الله عنه^(٢) حضر القتال يوم مُسَيْلِمة الكذاب وقد قتل اكثر اصحاب مسيلمة ، والتجأ منهم نحو من سبعة آلاف الى حديقة الموت وانما سميت حديقة الموت لكثرة من قتل بها وكان اسمها قبل ذلك « أباض » فأمتنعوا فيها فقال البراء رضي الله عنه : احملوني على الجدار فحملوه فرأى كثرتهم فقال انزلوني فأنزلوه ثم قال : احملوني على الجدار فقال : افٍ لهذا جنسنا^(٣) ثم اقتحم عليهم الحديقة فقاتلهم على الباب حتى

- (١) دقف على الجريح - بالبدال المهملة - وذفف بالذال المعجمة : اجهز عليه .
 (٢) هو اخو انس بن مالك .
 (٣) الجشع بفتح الحاء او كراهة الموت .

فتحه للمسلمين ودخلوا عليهم فقتلوهم اجمعين وقتل من المسلمين نحو من تسع مئة رجل رضي الله عنهم •

وبعد ان عدد اسامة جماعة من الصحابة الفرسان المحاربين ذكر هاشم ابن عتبة المرقال^(١) واثره في حرب القادسية ، وروى خبر عمرو بن معدي كرب وكان من أمره ان الاعاجم استخدموا فيلاً في كتيبة هاجموا بها المسلمين فقال عمرو : « انا حامل على الفيل ومن معه فلا تدعوني اكثر من جزر جزور ، وإن تأخرتم عني فقدتم ابا ثور^(٢) واين لكم مثل ابي ثور ؟ فقدف نفسه في وسطهم فاستلحموه وشجروه بالرماح طويلاً ، ثم أفضى الى السيف ثم سقط من فرسه فتعظفت عليه رجالهم ، ونادى المسلمون ! ابو ثور الله الله فانه إن هلك لم تجدوا منه عوضاً وحملوا عليهم فأخرجوه عن اذاهو قد طعن من كل ناحية واذا هو جاث على ركبته قد ازبد ، يضرب بسيفه يمينا وشمالا واذا سواعد الرجال واسوقهم حوله كأنها اكاريع الغنم ، فلما انفرج عنه الاعاجم اخذ برجل فرس منهم فحرکه الفارس فلم يستطع براحاً فنزل عنه الفارس وانهمزم الى اصحابه وركبه عمرو فقال له رجل : فداك ابي وامي يا ابا ثور كيف تجدك ؟ قال اجدني صالحاً قال فاذا إهابه قد خرق فعصب بالعمائم وعاد الى القتال كأنه لم يصنع شيئاً •

وروى ان عمرو بن معدي كرب الزبيدي رحمه الله قال : لو طفت بظعينة أحياء العرب ما خفت عليها ، ما لم الق عبديها وحرّيتها يعني بالعبدین عنتزة بن شداد ولسليک بن السلکة ، والحرين : دريد ابن الصمّة وربيعة بن مکدّم قال وكلاً قد لقيت واعطاني الله النصر عليه •

قال : وفي السليک تقول امه السلکة وقد قتل :

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضله أي شيء قتلك

(١) هو هاشم بن عتبة بن ابي وقاص ابن اخي سعد بن ابي وقاص الزهري •

(٢) ابو ثور كنية عمرو بن معدي كرب •

أمريضٌ لم تُعَدِّ أمَّ عدوِّ ختلك
كل شيءٍ قاتل حين تلقى أجلك
والمنايا رصدٌ للفتى حيث سلك
أيُّ شيءٍ حسنٍ للفتى لم يك لك

وراح يروي لغترة العبسي ، ولابن الخطيم ولربيعة بن مُكدَّم ولعامر بن
الطفيل ولدريد بن الصَّمَّة ولعمران بن حطَّان وللأشتر بن الحارث ويروي قصصهم
ووفائهم كما روى تمثل مصعب بن الزبير في موقفه وصبره حين تخلى عنه أصحابه
وفراً عنه ولداه ، وهو من الفرسان المشهورين بالحرب والشجاعة ، وروى عن
الفضيل بن خديج •

« قال الفضيل شهدت من مصعب بن الزبير مشهداً ورأيت منه شيئاً ما علمته
لأحدٍ ، اني لمعه في الوقعة^(١) التي قتل فيها وقد اسلمه من اسلمه ، وقتل وجوه
من بقي معه وهو لا يُكْرَهُه ذاك ونسمته ينشد :

ونحن اناس لا نرى القتل سبةً على أحدٍ يحمي الذمارَ ويمنع
بنو الحرب أرضنا به غيرُ فحشٍ ولا نحن مما جرَّت الحرب تفرع
جلاد على ريب الحوادث لا تُرى على هالك عين لنا الدهرَ تدمع

ويستطرد الى ذكر الكثير من اخباره واخبار اهله ويجر الكلام عن وقائعه
وشعره وما جرى له في شيزر والجزيرة وفلسطين وغيرها ، وهذا الفصل يطول
حتى يستغرق ٧٨ صفحة ويختمه بأبيات له :

الوم الردي كم خضته مُتَعَرِّضاً له وهو عني معرض متجنب
وكم أخذت مني السيوف مأخذ الـ حمام ولكن القضاء مُغَيَّبُ
الى ان تجاوزت الثمانين وانقضت بلهنية العيش الذي فيه يُرْغَبُ
فمكروه ما تخشى النفوس من الردي ألدُّ وأحلى من حياتي وأطيب

(١) وقعة - مسكن - حرب وقعت بين مصعب وعبد الملك بن مروان على
الدجيل قتل فيها مصعب رحمه الله وكان من شجعان قريش وكرماؤها •

باب السياسة

ووددت أن انتخب للقارىء بعض مقتطفاته من هذا الباب ويريد بالسياسة حسن المعاملة ولين الجانب وشعور الفرد بالمسؤولية وانه راع ومسؤل عن رعيته ، واقتياد الجماهير وسياسة العامة بالانصاف لها والعدل بينها والعطف عليها لين في غير أهمال وشدة من غير جور ، وما احوج ساستنا ان يتدبروا معنى هذه المقتطفات قال تعالى (من سورة آل عمران) : فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك ، فأعف عنهم ، واستغفر لهم وشاورهم في الامر ، فاذا عزم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين [١٥٩] ومن سورة حم السجدة :

« وَمَنْ أَحْسَنُ فَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، أَدْفَعُ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَاذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ [٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥] » •

ومن سورة حم عسق : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) ١٥ •

ومن الاحاديث :

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ص) « يوم من امام عدل خير من عبادة ستين سنة ، وحدث يقام في الارض بحقه أركى من مطر أربعين صباحا » •

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي (ص) انه قال « من رفق بأمتي رفق الله تعالى به ومن شق على أمتي شق الله عليه » •

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه « ما من الناس أعظم أجراً من وزير صالح مع سلطان يأمره بذات الله فيطيعه » •

وعن أبي رجاء العطاردي رحمه الله قال : سمعتُ أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو على المنبر يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول « الوالي العادل المتواضع ظلُّ الله عزَّ وجلَّ في أرضه ، فمن نصحه في نفسه وفي عباد الله عزَّ وجلَّ حشره الله في ظله يوم لا ظلَّ الا ظله ، ومن غشه في نفسه وفي عباد الله خذله الله يوم القيامة ، ويرفع للموالي العادل في كل يوم وليلة عمل ستين صديقاً كلهم عابدٌ مجتهدٌ في نفسه » •

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أحبَّ الناس الى الله عزَّ وجلَّ وأقرَّبهم منه مجلساً ، الامام العادل •

وعن أبي هريرة رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة درجة لا ينالها الا ثلاثة : امام عادل ، وذو رحمةٍ وصالٍ وذو عيالٍ صبور •

فقال عليُّ رضوان الله عليه : وما صبرُ ذي العيال ؟ قال : لا يَمُنَّ على أهله بما أنفق عليهم » •

وعن أبي هريرة رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة : « عدل ساعة خيرٌ من عبادة ستين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها يا أبا هريرة جوْرُ ساعة أشدُّ وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة » (١) •
وعن عبدالله بن مغفل رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله رفيق يُحبُّ الرفقَ ويُعطي عليه ما لا يعطي على العنف » •

وقال زياد بن أبيه : جمال الولاية شدة في غير افراط ولين في غير اهمال ، وقال معاوية رحمه الله لعمر بن سعيد : ما بين ان تملك الملكَ رعيتهُ وبين أن يملكها الا الحزم والتواني •

(١) نقله المنذري في الترغيب •

وعن المدائني قال : قال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أبه ما السياسة
قال : هية الخاصة مع صدق محبتها واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها واحتمال
هفوات الصنائع فإن شكرها أقرب للايدي منها •

وعن عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها : من أراد الله به خيراً جعل الله له
وزير صدق صالحاً إن نسي ذكره ، وإن ذكره أعانه •

عهد بعض الملوك الى وصيئه فقال :

كن بالحق عمولاً قوولاً ، وعماً جهلت سؤولاً ، وافحص عن الامور
تجلب واستبطن أهل التقوى وذوي الاحساب تزن نفسك وتحكم أمرك واياك
وقبول التزكية فيما لا تشك انك فيه مكذوب فانها خدعة تتبعضها صرعة ،
واستبطن أهل التقوى وذوي الاحساب تزن نفسك ، وتحكم أمرك ،
ولا تختص بسرك الا من يكتمه ولا تول أمرك الا من يهيمه ولا تثق برجل
تهمه ، ولا تعود لسانك الخنا وكثرة التأني ولا تكلف نفسك ما لا تقوى عليه ،
واذا هممت بخير فعجله ، واذا هممت بخلافه فتأن فيه وارحم ترحم •

وعهد آخر الى وصيئه : اتق من فوقك يتتقيك من تحتك وكما تحب
ان يفعل بك فافعل برعيتك ، وانظر كل حسن فالزمه واستكثر من مثله ، وكل
قبيح فارفضه ، وبالنصحاء يستبين لك ذلك ، وخيرهم أهل الدين وأهل النظر في
العواقب ، ولا تستنصح غاشاً ، ولا تستنصح ناصحاً ولكل طبقة مهنة ، ولكل ذي علم
بأمر فهو أولى به •

وانما رأيت آفة الملوك في ثلاثة امور ، فأحسم عنك واحداً واحكم اثنين ،
اتباع الهوى ، وتولية من لا يستحق وطى أمور الرعية عن الراعي ، فانك إن ملكت
هواك لم تعمل الا بالحق ، وان وليت المستحق كان عوناً لك على ما يجب ، ولم
تضع الأمور على يديه ، واذا تاهت اليك الامور من امور الرعية على حقائقها ،
عاش الوضيع وحذر الرفيع وأمسك الظلوم ، وأمن المظلوم •

قال كسرى : اني ضبطت ملكي بأني لم أهزل في أمر ولا نهني قط ،
وأعطيت المغناء لا للرضى ، وعاقبت للأدب لا للغضب ، وصدقتهم الوعد والوعد ،

وعمّمتُ بالعدل والانصاف ، وكففت يدي عن دمائهم وأموالهم الا بحقها •

و غضب كسرى على رجل من أصحابه فأمر بحبسه وقطع ما كان جارياً عليه ،
فقل له بزرجمهر ، ان الملوك تؤدّب الهجران ولا تعاقب بالحرمان ، وقّع بعض
العمال الى كسرى قبّاذ في انطاكية :

للملك جماعة قد فسدت نياتهم وخبّثت ضمائرهم وقد همّوا بما لم يفعلوا
وهم غير مأمونين على المملكة ، وهم فلان وفلان وفلان فان رأى الملك ان يعاجلهم
فعل ، فوقع في رقعة :

انما أملك الاجسادَ لا النيات وأحكم بالعدل لا بالرضى ' وأفحص عن الاعمال
لا عن السرائر •

وروي ان الموبذ سمع ضحك الخدم في مجلس أنوشروان فقال له : اما تمنع
هؤلاء الغلمان ؟ فقال له أنوشروان إنما يهابنا أعداؤنا •

وقال بزرجمهر : عاملوا أحرار الناس بصفو المودة وعاملوا العامة بالرغبة
والرهبة وعاملوا السّفلة بالمخافة صُراحاً •

قال المدائني : لما ولي زياد بن أبيه صعد المنبر بعد صلاة العصر ، فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس اني رأيت خِلالاً ثلاثاً نَبَذْتُ اليكم فيها بالنصيحة : رأيت
اعظام ذي الشرف واحلال ذي العلم وتوقير ذوي الاسنان واني اعاهد الله لا يأتيني
شريف بوضع لم يعرف له شرفه على ضعته الا عاقبه ولا يأتيني عالم بجاهل لاحاه
في علمه ليُهَجِّنَه عليه : الا عاقبه ولا يأتيني كبير بصغير لم يوقر له سنه الا عاقبه ،
فانما الناس بأعلامهم وذوي اسنانهم ، ثم تمثل :

تُهدى الامور بأهل الرأي ما صلّحتْ

فان تولت فبالاشرار تنقاد

لا يَصْلُحُ القومُ فَوَاضَى ' لا سَراةَ لهم

ولا سَراةَ اذا جهالهم سادوا

وقال الحكماء :

ان الملوك حقيقون باختيار الاعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وامورهم من غير ان يكرهوا على ذلك أحدا فان المُكْرَهَ لا يستطيع المبالغة في العمل ، وقالوا :

ينبغي للملك أن يجتنب السُّكْرَ لانه حارس المملكة ، ومن القبيح أن يحتاج الحارس الى من يحرسه •

وقالوا ان السلطان اذا كان حازماً ووزارؤه وزراءً سوء منعوا خيره من الناس فلم يجترى عليه أحد ولم يدنُ منه وانما مثله في ذلك كالماء الصافي الطيب الذي فيه التماسيح فلا يستطيع أحد - وان كان سابحاً وكان الى الماء محتاجا - ان يدخله وانما حلية الملوك وزيتهم أصحابهم إن يكتروا ويصلحوا •

وقالوا ويجب على الملوك تعاهد عمالهم والتفقد لامورهم حتى لا يخفى عليهم احسان محسن ولا اساءة مسيء ثم عليهم بعد ذلك ان لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يُقِرُّوا مسيئاً ولا عاجزاً على العجز والاساءة فانهم إن صنعوا ذلك ، تهاونَ المحسن واجترأ المسيء وفسد الامر وضاع العمل •

وقالوا انما يؤتى السلطان من قبل ست خلال :

الحرمان ، والفتنة ، والهوى ، والفضاظة ، والزمان ، والخرق ، فاما الحرمان فان يحرم من الاعوان والنصحاء والساسة أهل الرأي والنجدة والامانة أو يقصد بعض من هو كذلك منهم •

واما الفتنة فتخرب الناس ووقوع الحرب بينهم ، واما الهوى فالاغرام بالنساء والدعة والشراب ، أو بالصيد وما أشبه ذلك ، واما الفضاظة فأفراط الشدة حتى ينسبط اللسانُ بالثتم ، واليدُ بالبطش في غير موضعهما •

واما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين والموتان ^(١) ونقص الثمرات والفرق وأشبه ذلك ، واما الخرق فأعمال الشدة في موضع اللين واللين في موضع الشدة •

وقال الحكيم يجب على الملك الفاضل أن يُحصن عقله من العجب ووقاره من الكبر وعطاءه من السرف وصرامته من العنف وحياءه من البلادة وحلمه من التهاون وامضاءه من العجلة وعقوبته من الافراط وعفوه من تعطيل الحقوق •

وقالت الحكماء : من كانت فيه ثلاث خلال لم يستقم له أمر : التواني في العمل والتضييع للفرص ، والتصديق لكل مُخْبِر •

وقد قيل أربعة أشياء لا يستقل قليلها: المرض ، والنار ، والدَيْنُ ، والعداوة •

وقلوا إن العاقل وإن كان واثقاً بقوة عقله فليس ينبغي ان يحمله ذلك على أن يجني على نفسه العداوة والبغضاء اتكالا على ما عنده من الرأي والقوة كما ان العاقل اذا كان عنده الترياق لا ينبغي أن يشرب السم اتكالا على ما عنده •

وقال مؤلف الكتاب :

لا تحقرنَّ من الضعيف عداوة فالنار يحرق جمراها وشرارها
واحذر مداواة العدو وكيدة ان العداوة ليس تخبو نارها

وقال العربي :

لله درك ما تظن بثائر حرَّانَ ليس عن الترات براقد
ايقلته ورقدتَ عنه ولم ينم حنقًا عليك وكيف نومُ الحاقد

(١) الموتان بضم الميم بوزن بطلان أو بفتحها مع سكون الواو الموت الكثير

او الوباء في الانفس والانعام والاغنام •

إِنْ تُمَكِّنِ الْإَيَّامَ مِنْكَ وَعَلَّمَهَا
يَوْمًا يَكِيلُ لَكَ بِالصُّوَاعِ (١) الزَّائِدِ

وقال الشاعر :

إذا المرءُ أولاك الهوان فأوله
هوانا وإن كانت قريباً أوأصره
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه
فذره إلى اليوم الذي أنت قادره
وقارب إذا ما لم تكن لك قدرة
وصمم إذا أيقنت أنك فاقره (٢)

وقال الحكيم : ما استعين على الغرم بمثل مجانبه الهوى •

وقال آخر :

من جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان ، ومن جعل دينه خادماً
لملكه طمَّعَ فيه كل انسان •

وقال آخر :

من تمام الكرم ان تذكر الخدمة لك وتسى النعمة منك وتَفْطِنَ للرغبة
إليك وتتغابى عن الجناية عليك •

وقال آخر : ما أقبِحَ منع الاحسان مع حسن الامكان •

وقال الآخر : احسن الى من كانت له قُدَامَةٌ في الاصل وسابقة في الفضل
ولا يُزهِدَنَّكَ فيه سوء الحالة منه ، وادبار الدولة عنه فانك لا تخلو في اصطناعك

(١) الصواع مكيال من المكاييل ، ومنه (قالوا نفقد صواع الملك) •

(٢) فاقره أي كاسر فقار ظهره ومنه « تظن ان يفعل بها فاقرة • »

له واحسانك اليه من نفس حرة تملك رقتها أو مكرمة حسنة تُوفي حقها فان الدنيا تجبر كما تكسر والدولة تُقبل كما تدبر •

وقال آخر : بالراعي تَصْلُحُ الرعية وبالعدل تُمَلِّكُ البرية •

وقال آخر : سلطان السوء يُخيف البريءَ وَيصطنع الدينء •

وقال الحكيم : ليكن مرجِعُك الى الحق ، ومنزِعُك الى الصدق ، فالحق

أقوى معين والصدق أفضل قرين •

وقال : استعن على العدل بخلّتين : قلةِ الطمع ، وشدة الورع •

وقال آخر : أرفق باخوانك وأكفهم غرب لسانك فطعن اللسان أشدُّ من

طعن السنّان وجرح الكلام أصعب من جرح الحُسام •

قال العتّابي :

مما يعين على العدل اصطنعُ مَنْ يُوثر التقى ، واطراحُ من يقبل الرشا

واستكفاء من يَعدِلُ في القضية ، واستخلاف من يشفق على الرعية •

وفل الاسكندر لقوم من حكماء الهند :

أيُّما أفضل : العدل أو الشجاعة ؟ قالوا اذا استعمل العدل استغني عن

الشجاعة •

وقال افلاطون :

من بدأ بنفسه أدرك سياسة الناس ، وقال : اصلحوا أنفسكم تَصلح لكم

آخِرِ تِكْم •

وقال ارسطاطاليس : أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك •

وقال الحكيم : لأن تُحسِنَ وتُكفِرَ خير من أن تُسيءَ وتُشكرَ فمن

أحسن بنفسه بدا ومن أساء فعلى نفسه اعتدى « اه •

وقد استقصى المؤلف بهذا الباب الكثير من أقوال الحكماء والفلاسفة والقادة
والساسة وقد اقتبست جملة صالحة من مختاراته التي استشهد بها أو ضمها تحت
هذا القسم ولو رحت اقتبس من كل باب من أبواب الكتاب لخرجت عن القصد
وانما غاييتي تقديم نماذج توضح طريقة المؤلف وتعرب عن مادة الكتاب وتكشف
عن سعة اطلاعه وتكفي للتعريف بما اشتمل عليه كتاب اللباب من الآداب والاسم
منطبق على مسماه ونصيب الأدب فيه أوفر من غيره ، وفوائده لا تحصى والنفس
لا تمل من قراءته وحسنه يزيدك ملاحظة كلما عاودته نظرا وجمالا وكلما
تصفحته متفهما ، فأنت تتنقل بين مروج نضرة وأفوايه عبقة وعيبة متضوعة تجد
فيه بلاغةً وحكمةً واخباراً وشعراً وان من البيان لسحرا ، وبرغم ان اللباب قد
مضى على تأليفه نحو من ثمان مئة سنة فان موضوعاته لم تبل جدتها وما زالت
مادتها واسلوبها تستسيغها أنفسنا ويرتاح إليها ذوقنا .

البديع
في نقد الشعر

من كتب اسامة التي اربت على العشرين كتابا كتاب - البديع - أو نقد الشعر كما سماه حفظه لنا الزمن من الضياع ، فقد وجد منه نسختان أحدهما في مكتبة البلدية بالاسكندرية والثانية مخطوطة بدار الكتب برقم - ٥ بلاغة - والنسخة الاولى كتبها ناسخها في ١٧ من شعبان سنة ٧١١ للهجرة وعن هذه النسخة صورت دار الكتب نسخة مودعة فيها بعدد - ١٠١٦١ - وقد قام الدكتوران أحمد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد مدير ادارة التأليف بوزارة الثقافة والاشاد القومي وراجعه الاستاذ ابراهيم مصطفى عضو مجمع اللغة العربية ، ومن مقابلة هذه النسخ اخرج لنا الكتاب أقرب ما يكون الى الصواب ، وقد رجع المحققان الى كثير من الدواوين وكتب الادب لضبط النص والتحقق منه فاضفيا على الكتاب في نهجها العلمي فوائد كثيرة •

جاء في مقدمتهما « كان دارسوا البلاغة في عصر اسامة يرمون الى هدفين أولهما دراسة بلاغة القرآن ومعرفة مظاهر فصاحته ، وثانيهما القدرة على تذوق القول الجميل والقدرة على انتهاجه ، وما بقي لدينا من كتب هذا العصر يدل في وضوح على هذين الهدفين وقد يتغلب أحدهما على الآخر في بعض الكتب فترى كتاب البديع لاسامة يغلب عليه ضرب المثل البلاغية للتذوق والاقتداء وكان اسامة ذا ذوق مرهف فاستطاع أن يجمع حشداً من الامثلة المتخيرة في معظم الاحيان » • جمع اسامة ما كان متفرقاً في كتب المتقدمين المصنفة في البديع أو نقد الشعر وذكر محاسنه ومساوئه من حشد الامثلة لكل نوع من أنواعه •

وقف على كتاب البديع لابن المعتز وكتاب الحالي للحاتمي وكتاب المحاضرة للحاتمي أيضاً وكتاب العمدة لابن رشيح القيرواني وكتاب الصنائع للعسكري وكتاب اللمع للعجمي ، فأخذ من هذه الكتب أحسن أبواب كتابه وقال : لهم فضيلة الابتداع وله فضيلة الاتباع ولم يقف عندما وصلوا اليه بل زاد عليهم واعطى أمثلة لانواع لم يذكرها في كتبهم •

فالبديع عند ابن المعتز ثمانية عشر نوعا هي : الاستعارة ، والتجنيس ،

والمطابقة ، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها ، المذهب الكلامي ، الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تجاهل العارف الهزل الذي يراد به الجذ حسن التضمين ، التعريض ، الكتابة ، الافراط في النصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم ، حسن الابتداء •

يقول ابن المعتز « قدمنا أبواب البديع الخمسة ، وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال : البديع أكثر من هذا أو قال : البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها لذلك أحيانا أن نكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر اننا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختصاراً من غير جهل بمحاسن الكلام فمن أحب ان يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً الى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره » •

وكررت أبواب البديع بعد ابن المعتز فجعلها ابن رشيق القيرواني صاحب العمدة ، خمسة وستين باباً من الشعر ، وبلغ اسامة ابن منقذ خمسة وتسعين نوعاً ، وأخيراً جمع منها صفى الدين الحلبي مائة وأربعين نوعاً في قصيدة نظمها في مدح الرسول وكذلك فعل عبدالغني النابلسي في بديعيته التي مدح بها الرسول عليه الصلاة والسلام •

البديع في كتاب اسامة :

اشتمل كتابه على خمسة وتسعين باباً ذكر فيه جملة من أبواب البلاغة التي كانت معروفة في عصره ولم يرتبها على الابواب التي انتهت اليه - المعاني ، البيان البديع - كما فعله السكاكي في مفتاح العلوم - وانما اطلق على كل انواع البلاغة البديع - ولم يهتم للتعريف والقواعد وانما جعل اهتمامه ينصب على الامثلة من الشعر قديمه وحديثه ، فذكر من المعاني مثلاً التميم ، والاحتراس والتذييل والاسهاب ، والاطباب ، والمساواة ، ومن البيان ذكر أمثلة للاستعارة والكنساية والاشارة والاستعارة عنده اوردها في أبسط صورها هي استعارة المحسوس للشيء المعقول ، وأكثر ما مثل له يندرج تحت علم البديع •

والبديع الذي عناه اسامة في كتابه هو تلمس ما في القرآن الكريم وفي شعر الشعراء الموهوبين من جاهليين والعصور التي تلتها حتى عصر المؤلف ومن أمثله التي أوردتها تعرف على الذوق السليم والى الجمال الفني الذي اتبعوه في استعمال البديع الذي يكسب القول زينة ويلبسه بهاء وجمالا ، وتربية الذوق عنده وعند من تقدمه يكون بالمثال الرائع من المنظوم والمثور والاكثار من النماذج والامثلة ولا يأتي عن طريق حفظ القاعدة والتعاريف ، التي لا يخرج القارئ منها بطائل فكم من طالب وجدناه قد افنى عمره بقراءة المختصر والمطول وحفظ تعاريف السكاكي وقواعده المختصرة فاذا أراد أن يكتب رسالة قصيرة نراه لا يُبين ولا يفصح عن غرضه ، بل يعجز البعض من تطبيق القاعدة على مثال من غير أمثلة الكتاب التي حفظها نصاً •

في كتاب البديع ضرب أمثلة كثيرة للتجنيس ، والنفي ، والتذليل ، والتسهييم والتشطير ، والمقابلة ، والتطريف ، والاعتراض ، والمبادئ والمطالع ، والاواخر والمقالع ، والتخليص ، والخروج ، والاعراض ، والاسجام والفك ، والسبك ، والمخالفة والتناقض ، والانتكاث والتراجع والمساواة والاتقاط والاعراب والحشو، والرشاقة والجهامة ، ومن أهم ما عني به الكتاب ذكر السرقات الشعرية فقد عقد في هذا الغرض فصولا عدة بين المقيول منها والمصيب ، وازن بين شعر المتنبي وافكار ارسطو وفند أقوال من زعم ان المتنبي قد أخذ جملة افكاره عن ارسطو •

وعرض الى ذكر ما ينتقص فن القول وجمال الاسلوب ويذهب بكثير من بهاء النص ، فذكر الحشو ، والغلط ، والتفريط ، والمعاضلة ، والتكليف والتقشف مما يقلل من قيمة النص ، وهو في كل ما يعرض له يوضحه بالامثلة من القرآن أو الشعر ثم يتبعهما بأمثلة من النثر الفني لبلغاء الكتاب •

هذه طريقة القدماء في تفهم أسرار البلاغة واكتساب الاسلوب انما يأتي عندهم عن طريق الاكثار من قراءة النصوص وحفظها والاكثار من القراءة للابناء من الكتاب •

بسم الله الرحمن الرحيم :

« الحمد لله الحي القيوم الدائم الديوم ، خالق العلماء والعلوم والمنثور والمنظوم وصلاته على سيدنا محمد الامين المعصوم ، وعلى آله وأصحابه ذوي النجدة والحلوم وسلم تسليماً الى يوم الوقت المعلوم . »

هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنفة في نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه ، فلهم فضيلة الابتداع ، ولي فضيلة الاتباع والذي وقفت عليه كتاب البديع لابن المعتز ، وكتاب الحثالي للحاتمي وكتاب المحاضرة للحاتمي أيضاً وكتاب الصناعتين للعسكري وكتاب اللمع للعجمي وكتاب العمدة لابن رشيقي فجمعت من ذلك أحسن أبوابه وذكرت منه أحسن مقالاته ليكون كتاباً مغنياً عن هذه الكتب لتضمنه أحسن ما فيها وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

نماذج من أبواب الكتاب :

لتوضيح طريقته في بحوثه اقتبس بعض الفصول ليتعرف القارئ على طريقة فهم المؤلف للبلاغة قبل ان يقسم الى معاني وبيان وبديع .

باب التجنيس المغاير : قال :

« اعلم أن التجنيس ثمانية اجناس « فمنها التجنيس المغاير » وهو ان تكون الكلمتان اسماً وفعلاً مثل قوله تعالى حكاية عن بلقيس (واسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقوله عزَّ وجلَّ « فأقم وجهك للدين القيم » وقوله تعالى « يخافون يوماً تنقلب فيه القلوب والابصار ، وقوله سبحانه : « قال اني لعملك من القالين » وقوله تعالى حكاية عن يعقوب ، « يا أسفاً على يوسف » وقوله تعالى « فكلي من كل الثمرات » وقوله جلَّ جلاله « أزفت الآزفة » وقوله تعالى : « اني وجهت وجهي » وقول ذي الرُّمة :

كَأَنَّ الْبُرَى وَالْعَاجُ عِجْتُ مَتُونَهُ

عَلَى عَشْرِ نَهَى بِهِ السَّيْلَ أَبْطَحَ (١)

وقول جرير بن الخطفي:

كَأَنَّكَ لَمْ تَسِرْ بِبِلَادِ نَجْدٍ وَلَمْ تَنْظُرْ بِنَاطِرَةِ الْخِيَامَا

وقول بعض العرب في صفة فوارس: «إنها لخييلٌ تختال» وحضر في مجلس

الرشيد طيبٌ فيه ندىٌ غير طيب الرائحة فقال الرشيد «هذا ندىٌ عن الندى» •

وتظلم رجل الى المأمون من عامله فقال (ما ترك فضةً الا فضيها ، ولا ذهباً
الا أذهبه ، ولا بزاً الا بززه ' ، ولا علقَ مضنة الا علقه ، ولا غلّة الا غلّها
ولا فرساً الا افترسه ، ولا خلعةً الا خلعها ، لا وديعةً الا ودعها ، ولا ضيعةً
الا ضيّعها ، ولا عقّاراً الا عقّره ولا سبداً الا استبدّ به ولا لبداً الا لبّده ، ولا
جليلاً الا أجلاه ، ولا دقيقاً الا دقه ولا مالاً الا مال عليه ولا غنماً الا غنمها ولا
حالةً الا أحالها فهل من معدٍ ؟

ومنه :

رَبَّ خَوْدٍ عَرَقْتُ فِي عِرْفَاتٍ سَلَبْتِي بِحَسْنِهَا حَسَنَاتِي
وَرَمْتُ بِالْجِمَارِ جَمْرَةَ قَلْبِي أَيُّ قَلْبٍ يَقْوَى عَلَى الْجِمَارَاتِ
حَرَمْتُ حِينَ أَحْرَمْتُ نَوْمَ عَيْنِي

وَاسْتَبَاحْتُ حِمَايَ بِاللِحْظِيَّاتِ

وَأَفَاضْتُ مَعَ الْحَجِيجِ فَفَاضْتُ

مِنْ دَمْعِي سَوَابِقَ الْعِبْرَاتِ

لَمْ أَنْلِ مِنْ مَنِيْ مُنَى النَّفْسِ

خَفْتُ بِالْخَيْفِ أَنْ تَكُونَ وَفَاتِي

(١) ذو الرمة اسمه غيلان بن عقبة: البرى: الخلاخل، عيجت لويت

والعشّر شجر ذو اغصان لدنة، نهى به السيل أي بلغ به اليه •

باب تجنيس الترجيع :

اعلم ان تجنيس الترجيع هو ان ترجع الكلمة بذاتها كما قال تعالى « ربهم بهم يومئذٍ لخير » ، وقال جلّ جلاله « ولکنّا کنّا مُرسِلین » •
وقال الشاعر :

ولا مُنِعَتُ دارٌ ولا عَزَّ أهلُها
من الناس الا بالقنّا والقنابل ،

وقال المُخَبِّلُ السعدي :

وأَتَتْ عليه ومالَهُ من مالِهِ
مما أفادَ وما أفادَ عتاقُ

وأبو دُواد الآيادي قبل امرئ القيس بكثير وقد أتى في شعره تجنيسُ
التركيب والترجيع والتصحيف والله العالم هل تصدّ هذا أم أتى طبعاً •

وقال الآخر :

عذيري من دهرٍ مُوَارٍ مُوَارِبِ
له حسناتٌ كلَّهنَّ ذُنُوبُ

وأبو تمام الطائي :

يَمَدُون من أيدٍ عواصٍ عواصِمِ
تصولُ بأسِافٍ قَواضٍ قَواضِبِ

وقال آخر :

آفة السرِّ من جفو نِ دوامٍ دوامِعِ
كيف يخفى مع الدمو ع الهوامي الهوالمِ

وقال أبو عبادة البحرى :

تَسْجُ الرِّبْعُ بِرَبْعِهَا دِيَابِجَةً
مِنْ جَوْهَرِ الْأَنْوَارِ بِالْأَنْوَاءِ

بَكَتِ السَّمَاءُ بِهَا رِذَاذَ دُمُوعِهَا
فَقَدَّتْ تَبَسُّمَ عَنْ نَجُومِ سَمَاءِ

ومنه قول النابغة الجعدي :

يوشك النوى من بعد انسٍ تبدلوا
ونالهم صرف النوى والنوائب

ومنه :

وإذا ظمئتُ فمئدهُ شُربٌ من الانصاف صافٍ

أبو عبادة البحرى :

لئن صدقتُ عناً فربتُ أنفسي
صوادٍ إلى تلك الخدود الصوادف

وقال بعض الفصحاء في رقعة استدعاء :

ما جعلت الماطر الا لليوم الماطر (١)

ومنه في رياض الناظرين :

وإذا هويتَ فقد تعبدك الهوى
أخضع لألفك كائناً من كانا

١٠٤٩

(١) الماطر جمع مفردها مطرة وممطر : ثوب من صوف يتوقى به المطر

يعرف اليوم بالمعطف أو المشمع .

إن الهوان هو الهوى نقض اسمه
فإذا هويت فقد لقيت هوانا
وقال الآخر :

وسألتها بأشارةٍ عن حالها
وعليَّ فيها للوشاة عيون
فتفتت صعداً وقلت : ما الهوى
الا هوان" زال منه النون
ومثله لآخر :

أبي الحبِّ الا أن تكون معذباً
ونيرانه في القلب الا تلَّهبا
فوا كبدى حتى متى أنا واقف"
باب الهوى القى' الهوان وأنصبا
وهذا نموذج من الفصل الذي كُتبه في الطباقي :

باب طبقات التطبيق :

اعلم ان التطبيق هو ان تكون الكلمة ضد الاخرى كما قال الله تعالى « وأنَّه
هو أضحك وأبكى ، وأنَّه أَمَاتَ وَأَحْيَا » وقال : « لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا
تفرحوا بما آتاكم » « سيئاتهم حسنات ، الليل والنهار الظلمات والنور ،
الحي والميت » .

وأخفى تطبيق في القرآن « مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا » .
وقال زهير بن أبي سلمى :

ليث" بَعَثَرٌ^(١) يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا
مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا
وَقَالَ آخِرُ يَصِفُ حِصَانًا :

بِسَاهِمِ الْوَجْهِ لَمْ تَقْطَعْ أَبْجَلَهُ^(٢)
يَصَانُ هُوَ لِيَوْمِ الرُّوعِ مَبْذُولٌ
وَالسَّرِيِّ الرَّقَاءُ :

إِنَّ هَذَا الرَّبِيعَ شَيْءٌ عَجِيبٌ
تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بَكَاءِ السَّمَاءِ
ذَهَبٌ حَيْثَمَا ذَهَبْنَا وَوَدْرٌ
حَيْثُ دُرْنَا وَفَضَّةٌ فِي الْفَضَاءِ
وَقَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ :

لَا تَضْحَكِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ
ضَحِكَ الْمَشِيبَ بِرَأْسِهِ فَبَكَى^(٣)
وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي دَعَائِهِ :

« اللَّهُمَّ إِنْ تَبَتَّلْنِي بِنِعْمَةٍ فَأَشْكُرْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبَتَّلْنِي بِنِقْمَةٍ فَأَصْبِرْ ، »
وَقَالَ آخِرُ :

لَنْ سَاءَنِي أَنْ نَلْتِي بِمَسَاءٍ
لَقَدْ سَرَنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ

(١) عَثَرَ اسْمُ مَوْضِعٍ فِي الْيَمِينِ
(٢) الْبَيْتُ كَمَا فِي الْعَمْدَةِ وَالصَّنَاعَتَيْنِ لَطْفِيلُ الْغَنَوِيِّ ، سَاهِمُ الْوَجْهِ مَتْفِيرُ
الْوَجْهِ ، وَالْأَبْجَلُ عَرَقُ غَلِيظٍ فِي رِجْلِ الْحِصَانِ .
(٣) الْبَيْتُ لِدَعْبَلِ الْخَزَاعِمِيِّ ، كَمَا فِي دِيْوَانِهِ (صَفْحَةٌ/١٦٠)

جـرول الحـطـيـثـة :

وأخذتَ أطرافَ الكلام فلم تدع
هجواً يَضُرُّ ولا مديحاً ينفع

وأبو تمام حبيب بن اوس الطائي :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويتلي الله بعض القوم بالنعم

وقال خالد بن صفوان (١) لرجل يصفه له قال فلان :

« ليس له صديق في السرِّ ولا عدو في العلانية » .

وقال آخر : « كدر الجماعة خير من صفو الفرقة » .

وقال المنصور : لا تخرجوا من عزِّ الطاعة الى ذل المعصية .

وقال بعضهم :

وسري كاعلاني وتلك سـجـيـتي
وظلمة ليلى مثل ضوءِ نهاري

وقال آخر :

فلماذا أبيعُه وبروحي اشتريه ،

وقال : بعض العلماء يجعل التطبيق ان تجيء الكلمة بمعنيين كقوله :

واللؤم فيهم كهل وسنام .

ويسمى التكافؤ

وقال آخر :

أضحى الامين محمد" للدين نور يقبس

(١) خالد بن صفوان من فصحاء العرب توفي عام ١١٥ هـ .

تبكي البدر لضحكه والسيف يضحك إن عبس

وقال آخر :

ومن البلية أن نومي موثق
عن مقلتيَّ وأن قلبي مُطلق

وقال آخر

من النجباء يرضى السلمُ منهم
نفوساً ليس يابأها القتال
جسوم في سروجهم خفاف
صدور في مجالسهم ثقال

ومن الطبايق لفظاً ومعنى للبحترى
معشرٌ أمسكتُ حلومهمُ الأ
رض وكادت من عزمهم ان تميدا
فاذا المحل جاء جاء سيولا
واذا التقع نار ناروا اسودا

باب الظرافة والسهولة :

اعلم ان اشعار العرب والمحدثين قد ورد فيها الظريف السهل كقول بعضهم :

هوى صاحبي ريح الشمال اذا جرت

واشهى لقلبي ان تهبَّ جنُوبُ

يقولون لو عزيت قلبك لأرعوى

فقلت وهل للعاشقين قلوب ؟

المسلمي :

حمليني كل لائمةٍ كل ما حملت محمول

واحكمي ما شئتِ واحتكمي

فحرامي فيك تحليل

والذي أرجو النجاة به

ما لقلبي عنك تحويل

مالدارى منك موحشة" وضميري منك مأهول
واخو حبيك في تعبٍ مطلق دهرأ ومأهول
في بنات الروم لي سكن" وجهها للمشمس اكليل

ومنه :

ولا تحسبا هندا لها العذر وحدها

سجية نفسٍ كل غانية هند

وما خلف اجفاني شؤون بخيلة

ولا بين اضلاعي لها حجر" صلد

وأورد المؤلف لهذا الباب امثلة كثيرة لشعراء متعددين من عصور مختلفة
اكتفى بما عرضت منها فهي تفني بالعرض ، اذ ان الغاية من عرضي لهذه النماذج
هو اطلاع القارىء على طريقة البحث الذى سلكه المؤلف في كتابه .

باب التفريط :

اعلم ان التفريط هو ان يقدم الشاعر على شىء فيأتي بدونه تفريطاً منه اذ لم
يكمل اللفظ او يبالغ في المعنى ، وهو باب واسع يعتمد النقاد من الشعراء وهو مثل
قول حسان بن ثابت

لنيا الجففات البيض يلمعن بالضحي

واسايفنا من شدة تقطر الدما

فرط في قوله : الجففات لانها دون العشرة وهو يقدر ان يقول لدينا
الجفان لان العدد الاقل لا يفخر به ، وكذلك قوله : واسايفنا لانها دون العشرة
يقدر ان يقول وبيض لنا ، وفرط في قوله : الفر لان السواد امدح من البياض

لكثرة الدهن والقرى فيها ، وفرط في قوله يَلْمَعَنَّ بالضحي وهو قادر يقول :
بجرين لان القطر قطرة بعد قطرة •

وقال قدامة انه اراد بقوله الغرّ المشهورات وقوله بالضحي لانه لايلمع فيه
الا العظيم اللامع الساطع النور والذجي يلمع فيه يسير النور كالجحاحب ، واما
اسياف وجففات فانه يضع القليل موضع الكثير كما قال سبحانه وتعالى ، لهم جنات
ودرجات ، وقوله يقطنن دما هو المعروف والمألوف ولو قال يجرين خرج عن
العادة وينوب قطر عن جرى ، كما مسح سوق الابل عن اعناقها ، ومن ذلك
قول الاعشى :

ويأمر للبحوم كل عشيةٍ بقتّ وتعليق وقد كان يسنق^(١)

قال الاصمعي في نقده : أقلُّ حمار لطحان ينال هذا

ومن ذلك قول آخر :

ومن يأمن الحجاج والطير تنقي

عقوبته الا ضعيف العزائم

ان الطير تنقي الصبيان ، وانما قول جرير الخطفي

ومن يأمن الحجاج ، اما عقابه

فمّر ، واما عهده فوثيق ،

وكذلك قول النابغة :

رقاق النعال طيبٌ حجزاتهم

يحيون بالريحان يوم السباب ،

يصونون أجساداً طويلاً نعيمها

بخالصة الاردان خضر المناكب

(١) السنق : البشم سنق سنقاً اذا أكل من الرطب حتى أصابه البشم •

تُحييهم بيض الولائد بينهم

وأكسية الأضرحة فوق المشاجب

هذا كله فاسد لأن العنمة والصعائيك يحيي بعضهم بعضاً ذلك اليوم بالريحان
والبيت الثاني فاسد لانه لا فضيلة في كونها ملونة كل جانب منها لون والبيت
الثالث فاسد لانه لا تكون الثياب الا فوق المشجب ولا يكون على غيره .

باب السابق واللاحق والتناول

وهو ان يأخذ البيت فينقص من لفظه أو يزيد في معناه أو يحرره فيكون أولى
به من قائله ، لكن الاول سابق والآخر لاحق ، مثل قول علي بن الجهم :

وكم وقفه للريح دون بلادها

وكم عقبه للمطير دون بلادي

أخذه الشيخ أبو العلاء رحمه الله فقال :

وسأت كم بين العقيق الى الحمى

فجزعت من بعد النوى المتناول

وعذرت طيفك في الجفاء لانه

يسري فيصبح دوننا بمراحل

وقول الآخر :

له خلائق بيض لا يُغَيَّرُها

صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

أخذه الآخر فقال :

صديق لي له نسبٌ صداقة مثله تجب

اذا نفدت خلائقه تبهرج عنده الذهب

فوقى' عليه بقصر الوزن وفي تفضيله على الذهب بقوله : تبهرج الذهب
ومنه قول طرفة بن العبد :

أسدٌ غيلٌ فاذا ما شربوا وهبوا كل امون وطميرٍ
ثم راحوا عقب المسك بهم يلحقون الارض هُدَّابِ الازر
أخذه عترة فقال :

واذا شربت فأنني مستهلك

مالي وعرضي وافر لم يكلم

واذا صحوت فما اقصر عن ندا

وكما علمت شمالي وتكرمي

فاحترس مما يطعن به على الاول وهو انهم لا يشربون فيعطون من غير عقل،
ومنه قول الافوه الأودي :

وترى الطير على آثارها

رأى عينٍ ثقة ان ستمارا

أخذه النابغة :

اذا ما غزا بالجيش حلقَ فوقهم

عصائبُ طيرٍ تهدي بعصائب

جوانح قد أيقنَ أنَّ قبيله

اذا ما التقى الجمعان أول غالب ،

أخذه الحطيئة فقال :

ترى عافيات الطير قد وثقت به

بشبع من الخيل العتاق منازله

أخذه حميد بن ثور :

إذا ما غزا يوماً رأيت غمامةً
من الطير ينظرون الذي هو صانع

أخذه مسلم فقال:

قد عودَّ الطيرَ عاداتٍ وثقنَ بها
فهنَّ يتبعنَّه في كل مرتحل

موف على مهجٍ في يوم ذي رهج
كأنه أمل يمشي الى أجل

ثم أخذه أبو تمام فقال :

وقد ضللت أعقاب رايته ضحىً
بأقدام طيرٍ في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها
مع الجيش الا انها لم تقا تل

ثم أخذه المتنبى :

له عسكريا خيلٍ وطيروا اذا رمى
بها عسكرياً لم تبق الا جماجمه

وقال في مكان آخر :

وذي لجب لاذو الجناح امامه
بناجٍ ولا الوحش المثار بسالم

تمرُّ عليه الشمس وهي ضعيفة
تطالعه من بين ريش القشاعم^(١)

(١) القشاعم : النسور الكبار وأحدها القشعم .

ومنه قول قيس بن ذريح :

تداويت من ليلي بليلى على الهوى'
كما يتداوى شارب الخمر بالخمير
أخذه من الاعشى اذ قال :

وكأسٍ شربت على غيرة
واخرى تداويت منها بهياً
ثم تبعه أبو نواس :

دع عنك لومي فإن الموم اغراء
وداوني بالتي كانت هي الساء

باب الاستعارة

اعلم ان الاستعارة هو ان يستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول ، كما قال
الله عزَّ وجلَّ « لا تُظلمون فتيلاً » و « ولا تظلمون نقيراً » و « ما يملكون من
قطمير ، والاستعارة أوكدُ في النفس من الحقيقة ، وتفعل في النفوس ما لا تفعله
الحقيقة ، وقوله : وفتيلاً ، أنفى للكثير والقليل من قوله شيئاً وقوله تعالى :
« واخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمة » « وانه في ام الكتاب » « واشتعل الرأس
شيئاً » و « نسلخ منه النهار » « عذابُ يومٍ عظيم » •

وقال عليه الصلاة والسلام :

« ضُمُّوا ما بينكم حتى تذهبَ فحمةُ العشاء » •
وقال عليه الصلاة والسلام « أرغبُ راغبهم وأحللُ عقدةَ الخوف » •

وقال عليه الصلاة والسلام :

« اتسع نطاق الاسلام فلا حاجة الى الكحل والخضاب » •
كتب علي عليه السلام الى الخوارج : « الحمد لله الذي فضَّ حيزَ متكم
وفرق كلمتكم » •

وقال عبدالله بن وهب (١) الخارجي « لا خيرَ في الرأيِ الفطيرِ » (٢) والكلام
القضيبي (٣) ان غيوب الرأي يكشف عن محضه والفكرة مخ العمل •
واحسن الاستعارات قول ذي الرُّمة :
اوردته وصدور الليل مُسِنَّفَةً (٤)

والليل بالكوكب الدرّي منحور'
وقال ذو الرُّمة أيضاً :

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى
ولفّ الثرى في ملاءته الفجر'
وقال أبو تمام :

لا تسقني ماء الملام فأنني
صَبٌّ قد استعذبت ماء بكائي
وقال أيضاً فيها :

فسقاه مسك الطلّ كافور الندى
وانحلّ فيه خيط كل سماء
ومنه :

نطاردهم فنودع البيض هامهم
ويستودعون السمهيّ المقوما
ومنه :

تحبي الروامس ربعها فتجده'
بعد البلى ، وتميته الامطار'

(١) عبدالله بن وهب من الازد كان ذا علم وشجاعة وفصاحة أمره الخوارج
عليهم ، وقتل سنة ٣٨ هـ •

(٢) الكلام الفطير : كل كلام لم تختمر فكرته ، الفطير العجين قبل
ان يختمر •

(٣) القضيبي : المرتجل ، اقتضاب الكلام ارتجاله •

(٤) أسنفت الناقة اذا تقدمت الابل •

هذا بيت قد جمع فيه الاستعارة والمطابقة لان فيه البلى والجدة والامامة والحياة

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لبعض الخوارج : لما فغَرَ فمُ الباطل ،

• نجمت نجوم الحق

وقال يصف الدنيا : لم يُمسِ أحدٌ منها على جناح أمنٍ الا اصبحَ منها

• على قوادم خوف

ومن بديع الاستعارة في المشور قول بعض العرب : خرجت في ليلة خندس ،

قد أُلْقَتْ على الارض اكارعها^(١) ، فجمعت صورة الابدان فما كدنا نتعارف

• الا بالاذان

ومدح اعرابي قوماً فقال اولئك غُررٌ تُضَى في المشكلات وتصفي اليهم

آذان المجد ويصومون عن الفحشاء ويفطرون على المعروف •

ووصف آخر روضة فقال :

جرت بها الريح اذيالها ، وحطَّت بها السحابُ أنقالها •

وقال آخر :

سأبكيك للدنيا وللدين انني

رأيت يدَ المعروف بعدك 'سَلَّتْ

العباس بن الاحنف^(٢) :

قد صحب الناس أذيال الظنون بنا

وفرق الناسُ فينا قولهم فِرَقا

فكاذب قد رمى' بالظن غيركم

وصادق ليس يدرى انه صدقا

(١) أي أطرافها القاصية •

(٢) شاعر أكثر شعره الغزل ولم يتكسب بشعره توفي سنة ١٩٢ حقت

ديوانه ونشرته الدكتورة الشاعرة عاتكة الخزرجي • كما نشر ديوانه الاستاذ

عبدالمجيد الملا •

الكتاب برغم انه لم يختلف كثيراً عن منهج المؤلفين البديعين أو البلاغين الذين سبقوا اسامة بن منقذ وبرغم ان المؤلف ليس له الا التعاريف وبعض التعليقات الا ان للكتاب أهمية كبرى انه جمع مادة غزيرة واحتوى خلاصة لكتب لم تصلنا مثل كتابي العاتمي (الحالي ، والمحاضرة) وكتاب اللمع للعجمي ، واستقى مادته من ابن المعتز والصناعيتين واقتبس خير مقالاتهم كما جاء في مقدمة المؤلف وللكتاب خاصية لا أقول انفراد بها انما توسع فيها هي هذه الحصيلة الغنية من الامثلة التي اختارها من مئات الشعراء من العصر الجاهلي الى عصر المؤلف فاستشهد لعدد كبير من الشعراء كما استشهد بكثير من الآيات والأحاديث وأقوال المنشئين ، فالكتب صورة لثقافة اسامة من جهة ووثيقة ناطقة لوفرة المصادر الأدبية والنقد من جهة ثانية وتفهم اساليب البلاغة بالاعتماد على النص وعلى ادراك الصورة وادراك ما فيها من أبعاد ذوقية وفنية لم تقف عند التعاريف أو الاخطاء النحوية واللغوية ، يتعداها الى ما في النص من جمال وبراعة ومعان وتجنيس أو طباق أو كناية أو مجاز أو استعارة ، والكتاب بأبوابه التي بلغت خمسة وتسعين بابا وما جمع المؤلف في كل باب من الشواهد الزاخرة بالصور الفنية الرائعة الكثيرة والاسلوب السهل في العرض والتبسيط انما يربي الذوق من جهة ويعلم أساليب البلاغة وأسرارها من غير أن يتعب رأس المتعلم ويحشوه بالقواعد المجردة والتعاريف الثقيلة والتي يخرج منها الدارس بعد العناء الطويل خالي الوفاض قد عتمت عليه الصورة وأنبهت على باصرتيه مد الرؤيا لهذا العلم النوقي •

اعيد القول واعلنه عن تجربة بأن كتب البلاغة التي نهجنا في تدريسها في مدارسنا الثانوية والعالية لا تعلم ولا تربي ذوقا أدبيا ولا تفيد ملكة وخير منها طريقة القدماء التي تعتمد على الأكتاف من الشواهد والتطبيق على النصوص شعرية أو نثرية وبهذه الطريقة يتعلم القارئ النقد ويتفهم الصورة الادبية ويحصل على فهم مرهف للغة وأساليبها ، ومن هذه الكتب يتحسس الدارس الجمال أو القبح في ما يقرأ أو يسمع وهذه هي الغاية من تعليمنا المعاني والبيان والبديع •

كِتَابُ الْعَصَا

كتاب العصا باصطلاحنا اليوم نسميه مقالة اذ لا يخرج عن كونه مقالة أدبية جمعت مادتها من النصوص الأدبية في استعمال العصا •

لم يشر الى وجوده أو طبعه أكثر الكتاب الذين كتبوا عن اسامة أو ترجموا له مع ان الكتاب قد نشره المستشرق (درنبورغ) في باريس سنة ١٨٩٣ مع مقتطفات من أخبار المؤلف وشعره وشعر عدد من سروات آل منقذ ، والفضل في ارشادي الى ذلك المستشرق الصديق قسم الرجب الذي تفضل وأعارني نسخته النادرة مشكوراً ، ولم يرها أو يطلع عليها الاستاذ عبدالسلام هارون المحقق البارع الذي نشر الكتاب في كتابه نوادر المخطوطات وقد عثر عليها مصادفة الاستاذ العلامة أحمد أمين رحمه الله ، بين أوراق وكراسات اشتراها من وراق : قال : (وأخذت اقلب فيها فوجدت أوراقاً شتى من كتب لم أدر ما هي ورسائل صغيرة بعضها قيم . . . ورأيت كراسة صغيرة كتب عليها : « كتاب العصا لاسامة بن منقذ ^(١) » فعهد بها الى الاستاذ عبدالسلام هارون ليقوم بتحقيقها ونشرها اسهاماً من الاستاذ أحمد أمين في احياء (نوادر المخطوطات) ^(٢) وصحح بذلك الوهم الذي وقع فيه الاستاذ أحمد محمد شاكر في مقدمته لكتاب (لباب الآداب) وحسب ان كتاب اسامة هو كتاب (القضاء) لا العصا ورد على فليب حتي الذي ذكر كتاب (العصا) من جملة مؤلفات اسامة بن منقذ ، والمؤلف يذكر كتابه (العصا) في مواضع كثيرة من كتبه ، فلما وقعت الرسالة بيد أحمد أمين كتب مقالا في الثقافة عرف بالكتاب تعريفاً موجزاً ولم يشر الى جهد المستشرق ونشره لها ولو عرف بذلك لذكره وقد ذكر اسامة ان الباعث له على وضع كتابه هذا قصة سمعها من والده خلاصتها ان أبا يوسف القزويني قال لابي الحسن بن بويه (وكان يرافق والد اسامة

(١) فيض الخاطر ج : ٤ : ١٤٣ - ١٤٧ •

(٢) هذه النسخة احدى نسخ ثلاث : الاولى نسخة ليدن رقم ٣٧٠ وعليها تاريخ ١٠٩٤ وهي التي نشرها درنبورغ - أو على صورتها - ١٨٩٣ ، والثانية الامبروزيانا بميلان ورقمها ١٢٥ وعليها تاريخ ١٠٦٧ ، والثالثة النسخة التي حققها عبدالسلام هارون ونشرت في نوادر المخطوطات •

الامير مرشد بن علي في زيارة العلامة القزويني) • ما أحوجك ان يكون ما في يدك فوقها ، يشير الى ان تكون العصا فوق يده التي أمسكت بكتاب من كتب القزويني من غير استئذان وكان الكتاب هو كتاب العصا - قال اسامة : « ولي منذ سمعت هذا من ستين سنة أتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر فلا أجد من يعرفه ، وكلما تعذر وجوده ازدادت حرصا على طلبه الى أن حداني اليأس منه ان جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب « العصا » ولا أدري أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره ، ولا ارتاب ان مؤلف ذلك الكتاب وقع له معنى فأجاد تميقة وتأليفه ، وأنا فاتني مطلوب ففرغت الى تجويزه وتلفيقه » وربما كان ذلك الكتاب الذي يفتش عنه اسامة هو كتاب « العصا » للجاحظ هذا ما علق به عبدالسلام هارون ، ولا احسبه كذلك فالبيان والنيين كان معروفا لدى المؤلف وقد استقى منه كثيراً وكتاب العصا أو فصل العصا الذي اثبتته الجاحظ في كتابه البيان والتبيين كان محوره مزاعم الشعبية وطموحهم على العرب واستهزاءهم بالخطباء الذين جعلوا العصا تكأة يعتمدون عليها - وليس في حملها ما يشحذ الذهن ، ويقولون ان حمل العصا بأخلاق الغدادين أشبه وهو بجفاء العرب وعنجهية أهل البدو ، ومزاولة اقامة الابل على الطرق اشكل ، ^(١) وقد ردَّ عليهم الجاحظ باسهاب وفتنَّ مزاعمهم وأبان ما للعصا من محاسن ويسوق الامثلة والاحبار والاشعار والبراهين على عظم شأنها وكريم فضلها - ^(٢) •

وقد نهج اسامة في كتابه نهجاً يختلف عن نهج الجاحظ اتسم تأليفه بطابعه الذي جرى عليه في أكثر كتبه هو العناية بسرد ما يعرض له في حياته من أحداث وما يجمعه من أخبار ويستشهد بطائفة من أشعاره كما هي طريقته في كتبه التي عرضت نماذج منها ، وقد حفظ لنا كتاب العصا جملة من أشعاره لم تُسبَّط في ديوانه كما اثبت نصوصا نادرة لشعراء كثيرين منهم أبو العلاء المعري وقد آثرت

(١) البيان والتبيين ٣ : ١٢ •

(٢) مقدمة البيان •

ان اثبت خلاصة لهذه الرسالة بعد مقارنتها على نسخة المستشرق (درنبرغ)
لندرتهما واشاعة لفائدهما وهي مكملة لسيرة الامير اسامة ودالة على سعة فضله .
بعد المقدمة :

- فصل في تسمية العصا -

قال أبو بكر محمد بن دريد رحمه الله : انما سميت العصا عصا لصلابتها
مأخوذ من قولهم عصَّ الشيء وَعَصَا وَعَسَا ، اذا صُلِبَ ، واعتصت النواة اذا
اشتدت ، فانما العصا مثل يضرب للجماعة ، يقال شقَّ فلان عصا المسلمين يريد
المفارق للجماعة فيقتل ، وأعصَّ الكرم اذا خرجَ عيدانُه ، وفي الحديث عن
النبي صلى الله عليه وسلم « لا ترفع عصاك على أهلك » يريد الادب ، ويقال
لعظام الجناح عِص ، وَعَصَوْتُ الجرح اذا داويته ، والعِصِيَّان خلاف الطاعة
قال دريد بن الصيمَّة :

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
غوايتهم أو انني غير مهتد

وقد سميت الهراوة وجمعها هراوى : قال ابن فارس في كتاب مجمل اللغة
هَرَوْتُهُ بالهراوة اذا ضربته بها .

قال العباس بن مرداس السلمي أيبانا ذكر فيها الهراوة أنا ذاكرها وموردها
لحسنها وجزالتها وهي من مختار الشعر وقد اختارها أبو تمام حبيب بن أوس
الطائي في حماسته في باب الادب وهي :

ترى الرجلَ التحيفَ فتزدرية
وفي أثوابه اسدٌ مزير
وينعجيك الطريرُ فتبليه
فيخلفُ ظنكَ الرجلُ الطريرُ

فما عِظْمُ الرجال لهم بفخري
ولكن فخرهم كرم وخير
ضِعَافُ الطير أطولها جسوماً
ولم يطل البزاة ولا الصقور
بُعَاثُ الطَّير أكثرها فراخا
وامُ الصقر مَقَلات نزور
بعاث الطير : صغارها وفيها ثلاث لغات : ضم الباء وفتحها وكسرهما ، والمقلات
التي لا يعيش لها ولد .

لقد عظم البعير بغير لب
فلم يستغن بالعِظْم البعير
يُصْرِفه الصبي بكل وجه
ويجسه على الخسف الجريز
وتضربه الوليدة بالهراوى
فلا غيرٌ لديه ولا نكير
فإن الكُ في شراركم قليلاً
فاني في خيـاركم كثير

ذكر أبو هلال العسكري اللغوي رحمه الله في كتاب الاوائل قال : أول من
خطب على العصا وعلى الراحلة قس بن ساعدة الايادي فيما ورد عنه من
خطب قوله :

« أيها الناس اسمعوا وعُوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت
آت ، ليل داج وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهـر وبخار تزخر ، وجبال مُرساة
وأرض مُدجاة وأنهار مجرأة ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا فأقاموا

أم تركوا فناموا يقسم قس" بالله قَسَمًا لا إثمَ فيه ان لله ديناً • هو ارضى' وافضل
من دينكم الذي أتم عليه ، انكم لتأتون من الامر منكرا ، ثم انشأ يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردً للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الاصغر والاكابر
لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الباقيين غابر
أيقنت اني لا محالة حيث صار القوم صاير

قال المؤلف - اطال الله بقاءه - العرب تقول ، فلان ممن قرعت له العصا
اذا كان يرجع الى الصواب ، وينقاد الى الحق ويستقيم عند رأيه اذا نبه ، وتقول
فلان صلب العصا ، اذا كان ذا نجدة وحزامة وتقول اذا تفرقت الخلطاء واختلفت
آراء العشيرة ومرج الامر انشقت ، وتقول للمسافر اذا آب واستقرت به داره القى
عصا السيار ، فألقت عصاها •

ثم أخذ يروي مختارات من الشعر والنثر مما جاء فيها العصا من ذلك قول
الحجاج • والله لاعصبتكم عصب السلمة ، ولألحونكم لحو العصا ولأضربنكم
ضرب غرائب الابل •

والتلمس يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا
وما علّم الانسان الا ليعلمها
وقيس بن ذريح يقول :-

الى الله اشكو نية شقّت العصا
هي اليوم شتى وهي امس جميع
مضى زمن" والناس" يستشفعون بي
فهل لي الى لبني الفداة شفيع

والعرب تقول : فلان شقَّ العصا ، اذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة
(صلب العصا) يقال فلان صلب العصا اذا كان جلدا قويا على السفر والراحلة .
وقال المؤلف :

ايرجو لي اللاحي من الحب مَخْلَصًا
وقلبي اذا ما رضته بالأسى عصى
ولو انَّ ما بي بالحصى فلق الحصى
الى الله أشكو نيةً شقت العصا
هي اليوم شتى وهي أمسِ جميع
أطاعت بنا لبني افتراء التكدب
وصد التجني غير صد التجنب
فيا لك من دهر كثير القلب
مضى زمنٌ والناسُ يستشفعون بي
فهل لي الى لبني الغداة شفيع

وقال المؤلف (١) :

هذه الابيات من شعره الذي لم يرد في ديوانه :
رمتا الليالي بافتراق مشنت
« اشتَّ وأناى من فراق المحصَّب » (٢)
تخالفت الاهواء واشقت العصا
وشعَبنا وشك النوى كل مَشَعَبِ
وقد نثر التوديع من كل مقلة
على كل خد لؤلؤاً لم يثقب

(١) هذه الابيات من شعره الذي لم يرد في ديوانه .

(٢) الشطر الثاني من قصيدة لامرئ القيس اولها :

خليلي مرّاً بي على ام جندب نقضُ لبانات الواد المعذب

وقال مهيار الديلمي من قصيدة له :

ما قَصَّرت يد الزمان شدًّا ما
تطول في نقصي وفي نقصي مرر^(١)
عصا شظايا ومشيبٌ ذائع
ومنزل ناء وأجباب غُدُر
وصاحبٌ كالسداء إن أخفته
غورٌ وهو قتل إذا استتر

وقال المؤلف (٢) :

زدني جوىً يا حُبَّهم وأضِلني
يا مرشدي عن منهج السُلوان
لا تنهي عنهم فإنَّ صبابتي
لا تستطيع تطيع مَنْ يَنْهَاني
أحبتهم أزمان غصني ناضرٌ
حتى عَسَا وَعَصَى بنان الحاني
فارجع بيأسك لستَ أول أمرٍ
شقَّ الغرام عصاه بالعصيان

ومن شعره أيضا :

كم ذا التجني وكثرة العللِ لا تأمنوا من حوادث الملل
ولا تقولوا صبُّ بنا كَلِيفٌ فأول اليأسِ آخر الأمل
ولست ممن يريد شقَّ عصا
الذنب ذنبي والحب شُفَعَ لي

(١) المرر جمع مرة وهي الطاقة من طاقات الحبل كتابة عن الشدة .
(٢) من شعره وهي من ديوانه .

هبوني اخطأت عامداً فهبوا
خجلة عذري ما كان من زللي

العرب تقول : « طارت عصا بني فلان شِقَقاً » •

وقال الاسدي :

عِصِيَّ الشَّمْلِ مِنْ أَسَدٍ أَرَاهَا

قد انصدعت كما انصدع الزجاج

ويقال : فلان شق عصا المسلمين « ولا يقل شق ثوبا ولا غير ذلك يقع

عليه اسم الشق » •

« القى العصا » يقال القى عصا التسيار اذا أقام وترك السفر وكان العرب

عنت بقولها (القى عصاه) أي وصل الى بغيته ومراده •

قال الاصمعي واسمه عبدالملك بن قريب :

فحطَّت اليها منقلها وألقت عصا السَّفَرِ المِسْعَرِ

وقال راشد بن عبدالله :

وخبَّرها الرواد ان ليس بينها

وبين قرى نجران والدرب كافر

فألقت عصاها واستقرت بها النوى

كما قرَّ عيناً بالاياب المسافر

واستشهد بقول سيد الملك الامير علي بن مقلد جد اسامة يخاطب

والي حلب :

خِيَّمَتَ فِي حَلْبِ العَوَاصِمِ بَعْدَمَا

قلدت خوفك نازح الاقطار

لا ترَضَّها دار الثَّوَاءِ وَلَا تَقْلُ

في مثلها تلقى عصا التسيار

استحي من أجدات قومك أن ترى

عرض البسيطة وهي دار قرار

وراح يقصُّ أخباراً عن زيارته للقدس وليت السلسلة ولرجل زاهد اسمه
جرار في شيزر ، وعن ذلك الامام المصلي والافرنج لم يتعرضوا له ولم يبصروه ،
وقصَّ تحكيمة مع الامير مجاهد الدين بوزان في جمع من العميان وقعت بينهم
وبين صاحب الوقف خصومة وكانوا نحو ثلاث مئة اعمى فتلاحوا ساعة ولم يقدر
اسامة والامير صاحبه على اصلاح البين بينهم فانهاالت العصي على بعضهم بعضاً •

وقص خبر جذيمة بن الابرش وفرسه العصا ، وختم القصة وتكذيبها بأبيات
من نظمه : قال :

لو سرتَ في عرض البسيطة طالبا

رجلاً خبيراً بالحروب مجرباً

عاني الحروب مجاهراً ومخاتلاً

طفلاً الى ان عاد همّاً أشيا

قتل الاسودَ ونازل الابطال في الـ

يهجاء واقناد الكميّ المحرّباً

لم تلق مثلي من يكاد يُريه حسُ

منُ الرأي ما قد كان عنه مُغيّباً

وأرى مسير الألفِ تطلب وترها

ضمنَ الغرائر فريّةً وتكذبا

وقال الفرزدق يمدح بها هشام بن عبدالمك في قصيدة طويلة :

رأيت بني مروان جلّتْ سيوفهم

عشاً كان في الابصار تحت العمائم

عصا الدين والعودين والخاتم الذي
به الله يُعطي ملكه كلّ قائم

عصا الدين : السيف : والعودان : العصا والمنبر •

وقال معن بن أوس المزني :

إذا اجتمع انقبائل كنت ردفاً امام الماسحين لك السببلا
فلا تُعطى عصا الخطباء فيهم وقد تُكفَى المقادة والمقالا

وقال آخر في عصا الخطابة :

إذا اقتسم الناس فصلَ الفخار

اطلنا الى الارض ميل العصا

تقول العرب :

ما تزال تحفظ اخذ حتى يأخذ القناة فعند ذلك يفضحك أو يمدحك ،
تقول : اذا قام الخطيب والقناة بيده فقد قام المقام الذي يخرج منه مذموماً
أو محموداً •

وفي حديث زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد رضي
الله عنهما وقد تكلم أبو طالب وذكر رغبته فيها فقال (ورقة بن نوفل) ، « ابن
أخيك الفحل لا يُقرع بالعصا أنه » •

وذكر المؤلف زيارته قبر يحيى بن زكريا عليهما السلام بقرية (بطينه)
من أعمال نابلس وزيارته لكنيسة القرية ورؤيته لمن فيها من التسوس ووازن بين
اجتهادهم واجتهاد العلماء المسلمين ثم زيارته مع معين الدين أنر للصوفية في
زاويتهم وفضل انقطاعهم لندرس والعبادة على من رأى قبلهم في تلك الكنيسة
والمؤلف كلف باخبار الصالحين يروي كراماتهم بكتبه •

وقال :

يقال : « يوم اطول من ظل القناة وأحر من دمع المقلاة » ، قال عبدالله

ابن الدمينة •

ويوم كظل الريح قصّر طوله

دمُ الزَّقِّ عنا واصطفاق المزاهر (١)

ويقال رجل كالقناة وفرس كالقناة قال عروة بن الورد (٢) :

منى ما يجيء يوماً الى المال وارثي

يجد جمعَ كف غير ملأى ولا صفر

يجد فرساً مثل القناة وصارما

حساماً اذا ما هُزَّ لم يرضَ بالهبر

ويقال للرجل اذا لم يكن معه عصا : باهل وناقه باهل" اذا كنت بغير صرار •

وفي بديع ما جاء في عصا الكبر للمؤنف وهي لم تروا في الديوان •

قال أسامة بن منقذ :

أسفي على عصر الشباب تصرمت°

أيامه لا بل على أيامي

لم أبكهِ أسفاً على مرح الصبا

ووصل غنية وشرب مدام

لكن على جلدِي وخوضي معركا

يرتاع فيه الموت من إقدامي

بيدي حسام كلما جرّدته

يوم الوغى أغمدته في الهام

ولصدر معتدل الكعوب حطّمته°

في صدر كبش كتيبة قمقام

(١) البيت ليزيد بن الطثرية كما في الحيوان •

(٢) الصواب انه لحاتم الطائي ديوانه ١٢١ ، والحامسة ٢ : ٣٧٤ •

ونزالِ فرسانِ المهاجِ وكلُّهم
 فرقٌ لهولٍ تقحمي ومقامي
 ولقتلي الأسدِ الضواري نحتها
 كالرعدِ قَعَقَعَ في مُتونِ غمام
 تَلَقَى إذا لاقيتها اسداً له
 بأسٌ "يُبيحُ بهِ حمي' الاجسام
 لو أنَّ عينَ ابي زبيدٍ (١) عاينت
 فكاته لاقراً بالاحجام
 فحملت من بعد الثمانين العصا
 متيقنا انذارها لحسامي
 وقال أيضاً في المعنى ولم تكن مروية في ديوانه ، رويت في الاعتبار :
 مع الثمانين عاث الضعف في جلدِي
 وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
 اذا كتبت فخطي جسدٌ مضطرب
 كخط مرتعش الكفين مرتعد
 وإن مشيتُ وفي كفي العصا ثقلت
 رجلي كأنني اخوض الوحل في الجلدِ
 فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً
 من بعد حطْمِ القنا في لبَّةِ الأسدِ

(١) أبو زبيد شاعر مخضرم وصاف للأسد كان يغشى مجلس أمير المؤمنين
 عثمان بن عفان له ديوان شعر جمعه وحققه الدكتور نوري القيسي ، وطبع ببغداد ،
 سنة ١٩٦٧ م .

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد

قال المؤلف :

دخل علي بالموصل سنة ست وعشرين وخمسمائة رجل من اهل الموصل
نصراني يعرف بابن تدرُس وهو شيخ كبير يمشي على عصا ليسلم عليّ وانشدني
والعصا بيده قبل السلام :

احمدُ اللهَ اذ سلمت الى ان
صرت امشي وفي يدي عكّازه
نعمة ليتني بقيت عليها
خالداً لا اشال فوق جنازه

وقال آخر :

عصيت العصا ايام شرح شبيتي
فلما انقضى شرح الشباب اطعتها
أَحْمِلُهَا ثِقَلِي وَيَحْسِبُ كُلُّ مَنْ
رآهَا بكفي اني قد حملتها

وقال اسامة رحمه الله :

حَمَلْتُ ثِقَلِي فِي السَّهْلِ الْعِصَا
وَنَبَتَ بِي حِينَ حَاوَلْتُ الْحَزُونََا
وَإِذَا رَجَلِي خَاتَمِي فَلَا
لَوْمَ عِنْدِي لِلْعِصَا فِي أَنْ تَخُونَا

قال المؤلف رحمه الله : اشدني الخطيب مجدالدين ابو عمران موسى
ابن الخطيب قدوة الشريعة يحيى الحصكفي^(١) بظاهر مياًفارقين في شعبان
سنة ٥٦١ هـ :

كبرتُ الى أن صرت أمشي على العصا
لتجبر ما اعدى الزمان على الوهنِ
يقولون ما تشكي وهل من شكاية
اشدّ على الانسان من كِبَر السنِ

وقال المؤلف رحمه الله :

اذا تقوس ظهر المرء من كبرٍ فعاد كالقوس يمشي والعصا وترٌ
فالموت اروح شئ يستريح به والعيش فيه له التعذيب والضررُ
وقال رحمه الله : وهي في ديوانه :

اذا عاد ظهر المرء كالقوس والعصا
له حين يمشى وهي تقدمه وترٌ
وملّ تكاليف الحياة وطولها
واضعفه من بعد قوته الكبر
فانّ له في الموت اعظمَ راحةٍ
وأمناً من الموت الذي كان ينتظر

وقال رحمه الله :

حناني الدهر وأفنتني الليالي والغيرُ
فصرت كالقوس ومن عصاي للقوس وتر

(١) النسبة الى حصن كيفا الحصكفي انظر عن الحصكفي ، الاعلام (٩/١٨٣)

وقال المؤلف رحمه الله والابيات لم ترد في ديوانه :

مُزَوَّرٌ دَهْرٌ خَائِنٌ خَاتِلٌ
من بعد حمل الاسمر الذابل
عصاي مشي الصائد الخاتل
الى نزال البطل الباسل
من الردى كالتقيدر النازل
من طوله لم احظ بالطائل
على فراشي مية الخامل
بين القا والاسل الناهل

قَصَّرَ خطوي وحتى' صعدي
وصار كفي مالكا للعصا
امشي بضعفٍ وانحاء على
كأنني لم امش يوم الوغى'
ولم اشق الجيش لا اختشي
فانظر الى ما فعل العمر' بي
يا حسرتا اني غداً ميت'
هلا أتاني الموت يوم الوغى

وقال رحمه الله هذه الابيات ولم ترد في ديوانه :

افنى وكم افنى من الاعوام
فكأنها وتر لقوس الرامي
ودلائل المعروف والاقدام
نائي المواطن من كرام الشام
اولاد مُنْقِدٍ فى ذرى وسنام
بدم العدى مخضوبة الاعلام
تحميه دونهم سيوف الحامي
والآمنين معرّة الجرام
عادوا تقال الظهر بالانعام
من باذلٍ متبرع بسّام
في المحل عن صوب الغمام الهامي
لشظاهم الآساد فى الآجام

نظرت الى ذي شية متهدم
يمشي وتقدمه العصا وقد انحنى
ورأت سمات الاريحية والندى
واستخبرت عني فقلت لها امرؤ
قالت من ايم الناس انت فقلت من
من معسرٍ ابدأ تروح رماحهم
تحمي البلاد سيوفهم وتبيح' ما
النازلين بكل نعر خائف
واذا اناخ السائلون بجوهم
كم فيهم عند الحقوق اذا عرت
تُغني يداه اذا هما همتا ندى'
يتهللون طلاقةً ويخافهم

قِالَتِ فَأَيْنَ هُم ؟ فَقلْتُ ابادهم
 دهرٌ وهَلْ باقٍ على الايام
 ووددت لو ناهلْتُهُم كَأَسِ الردى
 ووردتُ قِلبَهُم حِياضِ حِمامي
 فحِياةٌ مثلي بعد عِزِّ باذخ
 ومعاشرِ غلبِ ومالِ نام
 ونفاذِ أمرٍ لا يردُّ ، مطيعُهُ
 فيما قَضَى القاضى من الاقوام
 لاشك من نِصصِ الحِمامِ وراحتي
 بالموتِ غايةً مُنَيَّتِي ومرامي
 فبكت بزفرةٍ مُوجِعٍ لو صادفت
 حجراً لذاب من الزفيرِ الحامي

وقال المؤلف وهذه الابيات لم ترد في ديوانه :

غَرَضْتُ من الحِياةِ فكل امرى
 تصرَّم بالحوادث والخطوب (١)
 فما ظَفِرَتْ يدي بسرورِ يومٍ
 بغيرِ همومِ حادثةٍ مَشوبِ
 صَباً كالسكرِ أعقبه شباب
 تَقَضَّى بالوقائع والحروب
 ووافى بعده شيبٌ بغيضٌ
 فلا سقيا لأيامِ المشيبِ

(١) يقال غرض عرضاً : من باب تعيب اى ادركه الملل والضجر .

أراني طيب لذاتي ولهوي
يُعدُّ من الجهالة والعيوب
وإداني الى كبرٍ وضعفٍ
وأدواءٍ خَفِينٍ على الطيب
إذا رمتُ النُّهُوضَ حسبتُ أني
حملتُ ذُرَى الشناخب من عسيب (١)
فإن أنا قمت بعد الجهد أمشي
فمشي حين أعجل كالديب
تُسَيِّرني العصا هوناً وخلفي
مسير الموت كالريح الهبوب
وأفنى الموتُ اخواني وقومي
وأترابي فهنا أنا كالغريب
وفيما قد لقيت ردىً وموتاً
ولكن ليس قلبي كالقلوب

وقال أيضاً وكتب بها في كتاب الى ولده الامير أبي الفوارس مُرْهَف الى
مصر يطلب منه عصا من آبنوس ، والابيات لم ترد في الديوان « وعصا الابنوس
كانت تستعمل في بلادنا ويصنع لها رأس من الفضة أو الذهب أو المينا » ،
قال رحمه الله :

أريد عصا من آبنوسٍ تقلني
فإن الثمانين استعادت قوَى رجلي

(١) الشناخب جمع شنخوب وهو رأس الجبل وعسيب جبل بعالية نجد

ولو بعضا موسى اتقيت لأدها
على ما بها من قوة حَمَلُها ثَقَلِي
ولكن تمنينا الرجاء بباطل
وكم قَدَرُ ما تُرْجِي المنايا وكم تُنْلي
إذا بلغ المرء الثمانين فالرَدَى
يناديه بالترحال من جانب الرِّحْلِ

وقال أيضاً والابيات لم ترد في الديوان :

الوم الردى كم خضته متعرّضاً
له وهو عني مُعْرِضٌ مُتَجَنِّبٌ
وكم أخذت مني السيوفُ مآخذال
حمام ولكن القضاء مُعَيَّبٌ

الى ان تجاوزت الثمانين وانقضت
بُلْهَنِيَّةُ العيش الذي فيه يُرْغَبُ
وأصبحت أستهدي العَصا فتميل بي
لضعفي عن قصدي كأنني أُنْكَبُ

فَمَكْرُوهُ ما تخشى النفوس من الردى
الذُّ وأحلى من حياتي وأعذب

وقال أيضاً والابيات لم ترد في الديوان :

قد كان كفي مألِفاً لمهندٍ
تُفدى القلوب له وتُفري الهامِ

ولأسمرِ لَدنِ الكعوبِ وجاره^(١)

حيث استمرَّ الفِكرُ والاهتمام

يتزايدُ الأبطال عني مثل ما

نفرت من الأسدِ الهصور نعام

فرجعت أحمل بعد سبعينَ العصا

فأعجب لِمَا تأتي به الأيام

وإذا الحمام ابى معاجلةَ الفتى

فحياته لا تكذبُ حِمَامُ

ولعلني اسرفت في تلخيص كتاب العصا وما حيلتي والمؤلف قد سجل فيه

كثيراً من شعره ولم يشبهه في ديوانه فأردت جمعه ونشره لما فيه من دلالة على

حياته ويلقي ضوءاً على حالته النفسية أيام أدبر شبابه ووهن عظمه واشتعل رأسه

شيئا وعلت به السنون وراح يدب على العصا •

ويختم الكتاب بهذه الابيات لبعض المغاربة :

ولي عصا في طريق السير أحملها

بها أقدم في تأخيرها قدمي

كأنها وهي في كفي أهشُ بها

على ثمانين عاماً لا على غنمي

كأنني قوس رامٍ وهي لي وترٌ

أرمي عليها رماء الشيب والهرم

(١) الوجار : جحر الوحش والضبع •

إِخْوَانِيَّاتٌ وَمُرَاسَلَاتٌ

شعر اسامة الذي اشتمل عليه ديوانه ينضح بالمودة والوفاء لأهله واخوته ويرشح بالحنين لوطنه ولاصدقائه ، والتشوق للقائهم والاحتفاظ بصداقاتهم ، يضم لهم الحب ، ويعمر صدره بذكراهم والبر بهم والحنين اليهم ، لا يفصم عرى صديق او قريب وإن وجدَ منهم الجفوة وإن لقي منهم الغدر لا يبدأ أحداً بقطيعة ولا يخاصم امراً ، طبعت نفسه على التسامح وجبلت على حب الخير واتسع صدره لحب الناس حتى الافرنج اعداؤه وقت الحرب له مع فرسانهم صداقات ومودات •

تصدر هذه المراسلات قصائده الى أبيه الذي أحبه واحترمه وله في نفسه مكانة لا يدانيها أحد من الناس فهو استاذة وهو رفيقه وقت الحرب في ميادين القتال ، وفي الاحراش والغابات وراء صيد الوحش والطيور •

فكان أول من هفت اليه نفسه وتسعر بحبه قلبه بعد ان غادر شيزر ، همه ان يكسب رضاه وما كان يعنيه شيء بقدر ما يعنيه ان يحصل على موافقته بالابتعاد من ذلك الجو الذي كان يحياه مع عمه وزمرته المناقفة ، فكتب اليه قصيدة قافية يستأذنه بها وهي أولى رسائله الى والده ، وقد قدمت بعض أبياتها حين بحثت أسباب رحلته الاولى من شيزر وانضمامه الى عماد الدين زنكي • قدم القصيدة بأبيات غزلية على طريقة الشعراء الذين يفتتحون قصائدهم بالغزل صفحة (٨٧) من الديوان •

ومنها :

يا ابن الاولى جمعَ الفخار لبيتهم

ما شئتوه من العطاء وفرقوا

وتملكوا رقَّ الاكارم بالذي

فكوا به رقَّ العتاة واطلقوا

اشكو الى عليك همماً ضاقَ عن

كتمانهِ صدري وما هو ضيقُ

وطوارقاً لهمم أقرّ بها الكرى
 وتلظُّ بي صباحاً فما تفرقُ
 لو لم أمني النفس أنك كاشفٌ
 كرُّ باتها عنها لكادت تزهب
 أنا عائد بك من عقوق مجبطِ
 عملي فمصيبي لأمرك موبق
 لا تلزمني بالهوان وحمله
 ان احتمال الهون ثقلٌ مرهق
 دعني وقطع الارض دون معاشرِ
 كلُّ عليٍّ لغير جرمٍ مُحَنَقُ
 تغلي عليّ صدورهم من غيظهم
 فتكاد من عيظِ عليٍّ تحرقُ
 تعسى اذا نظروا اليّ عيونهم
 حتى كأن الشمس دوني تُشرقُ
 كسدتُ عليّ بضائعي فيهم فلا
 أدبي ولا نسبي عليهم ينفقُ
 أعياء عليّ رضاهم فيئت من
 أدراكه ما النجم شيء يلحق
 إن أغشهم قالوا خلوبٌ ماذق
 أو اجفهم قالوا عدو أزرق
 قد أفسدوا عيشي عليّ وعيشهم
 فأنا الشقي بهم ، وبى أيضاً شقوا

فاسمح ببعدي عنهم برضاك لي
 ان الذي ترضى عليه موفق
 فلعلَّ بعض العمر وهو أقلُّه
 ألا يكدرَ بالهموم ويُمَدَّقُ
 فضلُ الاقارب بِرُّهُمُ وحنوهم
 فاذا جفوني فالاباعد أرفق
 أتظنني أرجو عواطف ودَّهم
 اني اذا عبدُ المطامع ، أخرق
 بيني وبينهم هِنَاتٌ في الحشا
 منها ندوب ما بقيت وما بقوا
 لا تغتفر برجائهم أن يُحسنوا
 كم قد رأينا من رجاء يُخفِقُ
 خذ ما تراه ودع أحاديث المنى
 ان الاماني فيهم لا تصدق

والوشاة يسعون الى قلب الاب الحنون ينقلون اليه أخباراً مخلتقة عن اسامة
 تجعل الشيخ يفتقر في كتبه فلما وصلت أبناء هذه الجفوة الى سمع اسامة فزع
 لها وقلق من جرائها ونزل على نفسه غمٌ وحزن فكتب اليه قصيدة من الموصل
 عبَّر فيها عن عواطفه الملتهبة وأعرب عن لواعج صدره تنطق بالرهبة والاشفاق
 من تغير قلب أبيه عليه وان كان موضعه من قلب أبيه لا يرقى اليه الواشون ولا
 يغيره عنه كيسه أو حمقه على حد تعبيره وبدأ قصيدته بالتشوق والشكوى من ألم النوى
 وما يجن جنانه من لوعة الفراق وما يكنه صدره من الحب لايه واخوته وأصدقائه
 ونفى ان يكون مغتبطاً بالعيش من بعدهم أو ان الصبر والسلوان لاجابه وأهل

بيته من خلقه اشتملت مقدمة القصيدة على أربعة عشر بيتاً تسيل رقة وتعبق بأنفاس
الشوق ، موضعها من الديوان صفحة ٨٩ ثم يقول بعدها :

إيهاً ، بحقك مجد الدين تعلم أنَّ

الصبرَ عنك والسلوان من خلقي

أو أنني بعدَ بُعدي عنك مُغْتَبِطٌ

بالعيش اني به لا تكذبنَّ شقي

يا ويحَ قلبي من شوقٍ يقلقله

الى لقائك ماذا من نواك لقي

وناظرٍ قُرِحَتَ أجهانه أسفاً

عليك في لجةٍ من دَمَعِهِ غَرِقِ

وبعد ما بي فاشفاقي يُهددني

بشوب رأيك بالتكدير والرنق

وإنَّ قلباً قد رانت عليه من الـ

واشين بي جفوة يهماء كالغسقِ

ونافسوني في حُسنِي ظنونكَ بي

حتى غدوتَ وسوء الشك في نسقِ

بهم تباريح أشواقِي اليك وما

أجِنُّ من زفراتِ بانجوى نطقِ

أما كفاهم نوى داري وبعذك من

عيني وفرقة إخوان الصبّا الصدُقِ

وأني كلَّ يومٍ قطب معركة

درثية السمر والهدية الذلُقِ

أغشى الوغى' مفرداً من اسرتي وهم
هم إذا الخيل خاضت لُجَّةَ العلقِ
هم المحامون والاشبال مُسَلِّمَةٌ
والمقنون الردي بالأوجه الطلقِ
وموضعي منك لا تسمو الوشاة له
ولا يُغَيِّرُهُ كَيْسِي ولا حمقي
وإنما قالة" جاءت فضاقَ لها
صدري ولو غيرك المعنيّ لم يَضِقِ
كذَبْتُهَا ثُمَّ نَاجَتْنِي الظنون بأنَّ
الدهر ليس بمأمونٍ فلا ثقِ
كم قد اعصُ بما تمرى (١) مذاقته
ونقصَ البارد السلسال بالشرقِ
تقعم الخوف ممن أنت آمنه
قد تنكأ الكَلِمَ كفُ الآسي الرفق
فقلت مالي وكنمي ما يخالجنني
فيه الظنون كفعل الغضب الملق
ادعو لما بي صدى صوتي وموضع
شكوايي وحاملَ ثقلي حيث لم أطق
فان يكن ما نمي' زوراً وأحسبه
فعنده العفو من ذي الهفوة العقق (٢)

(١) مري الطعام فهو هنىء مريء .

(٢) العقق : العاق .

وإن يكن وأحاشي مجده ثلجت
عباه حرّاً حشاً بالهمّ مُحترقِ
هو الأبى الذي تخشى بواده
ويرتجى عفوّه في سَورة الحق
عباه تلقى ذنوبي قبل معذرتي
وماء وجهي مَصونٌ فيه لم يرق
لا غيّرَت رأيه الايام فيّ ولا
نالت مكانيّ منه لعقّةُ الحدق (١)

وكتب الى أبيه بعد ان أعرض عنه وأجابه بالصمت والاطراق : قال
لا تُفسدَنَ نصيحتي بشقاق
وأبيك ما السلوانُ من أخلاقي
حظّرَ الوفاء عليّ أن أسلو فلا
فكّ السُّلُو من الغرام وثاقي
لا ترجونَ لي الشفاء من الجوى
والياس كل اليأس من افراقي (٢)
كيف الافاقه لِدديغَ أخي الهوى
من دائهِ والسُّمُّ في الدرياق (٣)
وأغنّ راعتي النوى بفراقه
ولكيم فجمت ولا كذا بفراق

(١) لعقة الحدق : الاصابة بالعين .

(٢) افرق المريض اذا برىء .

(٣) الدرياق هو الترياق دواء ضد السم .

أخلو بأفكاري لتدني شخصه
 خُدَعُ المنى من قلبي الخفاق
 فإذا تسامح لي الزمان بقربه
 من بعد بَيْنِي° فرقة وشِقَاقِي
 باثتُه وجدِي وقلت يرق لي :
 فأجابني بالصمت والاطراق
 ومنها :

إن جُرْتُ عن نهج الكلام فمرشد^(١)
 لك مرشدٌ بمكارم الأخلاق
 فاعمدْ لمجد لدين تلق المجد ما
 لاقيته أكرم به من لاقِي
 فإذا وصلت الى أغرَّ محجب
 مخلوقةٍ كفاءه' للأُنْفَاقِ
 فاربِع بربِعٍ لا يزال نزِيلَه
 حسنُ الثناء ، وخشيةُ الخلاق
 وابلغ تحية نازحٍ قذفت به
 أيدي النوى في اسحق الآفاق
 قد كان بالشامي يُعرف برهة
 من دهره والآن فهو عراقي^(٢)

(١) مرشد بن علي هو والد اسامة ومجد الدين لقبه .
 (٢) يشير الى اقامته بالموصل وهي جزء من العراق ، وبخطيء من يعد
 الموصل من الجزيرة أو من تركيا .

انضى الوجيف^(١) ركابه وجهاده
فكأنهن قلائد الاعناقِ

وهو الجليد على خطوب زمانه
لا يشتكي منها سوى الاشواق

ينزو^(٢) لذكر أبي سلامة قلبه
فيكاد يمرق من حشا وصفاق

وأهتف به : يا خير من أرجوه
للأواء او ادعوه يوم تلاق^(٣)

بي لوعتان عليك يضعف عنهما
جلدي : من الاشواق والاشفاق

فالشوق أنت به العليم وغالب الا
شفاق مما أنت فيه ملاقِ

فكتب اليه والده قصيدة مطلعها :

اتظن أنني بعد بعدك باق
أجزي عن الاشواق بالاشواق

ويقول فيها :

أبا المظفر دعوة^١ نشفي الظما
مني وإن أضحي بها إحراقي

لم استكين أبداً لخطب نازل
الا لبعـدك فهو غير مطاق

(١) الوجيف ضرب من سير الخيل والابل .

(٢) ينزو بمعنى يهفو .

(٣) اللأواء ، المصيبة العظمى ، الخطب الجلل .

فاذا اطعت' الوجدَ فيك أطاعني
قلبي ويُبدي إن عصيت شقاقي

فاذا ذكرتكَ خلتُ اني شارب
تملُّ سقاهُ من المُدامة ساق

وقف مؤدبه الشيخ الجليل أبو عبدالله محمد بن يوسف المعروف بأبن
منيرة رحمه الله على القصيدة فكتب اليه :

يا راكب الشدنيّة الغيداق (١)
ومتابع الزمّان بالأعناق

في فتية وصلوا السرى حتى انبرت
أجسامهم أخفى من الأرماق

والقصيدة طويلة تجدها مثبتة في الديوان ص ١٢٠ - ١٢١ .

ومنها :

يا أيها المولى الذي بعباده
عني قربت من الردى المعتاق

لي انه الشاكي الشجيُّ لما به
إما ذكرتَ ، ولوعةُ المشتاق

وإذا الجفونُ نظرن بعدك نزهةً
عاقبتهن بدمعي المهرّاق

لا تطلبن مني المسرّة انها
عذراء قد متّعتهُ بطلاق

(١) الشدنيّات محرّكة من الابل منسوبة الى موضع باليمن او فحل
والغيداق الطوال ، والزمّان والاعناق نوع من السير .

أَمَّا أَبوكَ فَدَاؤُهُ مُسْتَحْكِمٌ

مَا أَنْ لَهُ بِسُوءِكَ مِنْ أَفْرَاقٍ

كَيْفَ السَّلْوُ لَهُ وَأَنْبَى صَبْرُهُ

عَنْ مُصْطَفَى بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

ذُو مَهْجَةٍ تَنْزُو إِلَيْكَ وَمَقْلَةٍ

تَبْكِي عَلَيْكَ إِلَيْكَ بِالْأَشْوَاقِ

وَكُتِبَ إِلَى وَالِدِهِ قَصِيدَةً بِدَأْهَا بِالغَزْلِ وَالْحَيْنِ وَالشُّكْوَى مُطْلَعَهَا (١) :

إِنْ لَمْ تَطِيقَا يَوْمَ زَامَةٍ

أَنْ تَسْعِدَا فَذَرَا الْمَلَامَةَ

وَمِنْهَا

ابْنِي السَّرَى وَالْيَيْدُ ، لَا

أَغْرَى الزَّمَانَ بِكُمْ عُرَامِهِ (٢)

هَلْ فِيكُمْ مِنْ مَبْلَغٍ	عَنِ السَّلَامِ أَبَا سَلَامِهِ (٣)
وَتَحِيَّةٍ كَشَدَى فَيْدٍ	قِ الْمَسْكِ صُفْقٍ بِالْمَدَامِهِ
'تَهْدَى' يَضُوعٌ نَسِيمَهَا	لَأَغْرَى عَصَاءَ مَلَامِهِ
مَنْ جَامِحِ الْعِزْمَاتِ لَا	يَرْضَى عَلَى هُونِ مَقَامِهِ
وَقَعْنَ غَارِبَهُ الْخَطُوبُ	وَلَمْ يَزَلْ يَأْبَى الظَّلَامِهِ
بِابْنِ الْخَضَارِمَةِ الْكِرَامِ	مِ أَوْلَى الْمَكَارِمِ وَالْكَرَامِهِ
مَنْ كُلِّ سَيِّئَةٍ تَسْحِجِ	يَدَا الْعَافِينَ سَامِهِ (٤)
خَضَلَ الْجَنَابَ إِذَا تَرَدَّ	ي الْجَوْءُ مِنْ مَحَلِّ قَامِهِ

(١) . تقدم اولها ص ٩٧ من الديوان .

(٢) . السرى سير آخر الليل وقبل عامته ، والبيد مفرده بيداء

والعرام الشدة .

(٣) . كنية والده مرشد بن سديد الملك .

(٤) . سامة : السام الذهب والفضة .

أَسَامَ خَسْفًا ثُمَّ لَا أَبِي فَلَسْتَ إِذَا أَسَامَهُ
هِيَهَاتَ لَا تَرْضَى الْمَعَالِي صَاحِبًا يَرْضَى اهْتِضَامَهُ
وَعَلَامَ يَخْشَى النَّاسَ مَنْ لَمْ يَخْشَ فِي حَالِ حَمَامِهِ
مَنْ لَا تَرَاهُ إِثْرَ شَيْءٍ فَائْتِ يَبْدِي النَّدَامَهُ
وَإِذَا حَوَى الرِّغْبَاتِ أَمْضَى لِلْعَلَا فِيهَا احْتِكَامَهُ
لَوْ أَنْكَرْتَ اجْفَانَهُ طَيْفَ الْخِيَالِ جَفَا مَنَامَهُ ،

لا يرتضي المقام في دار أو وطن يسام فيه الخسف أو يهان فإن لم يردَّ
الظلم أو يشر على من يريد به الاهانة إذاً فليس اسامة ، وثورته ابسط اشكالها
ان يهجر موطنه ويفارق اولئك الذين هضموا حقوقه •

اسامة لا يؤرخ شعره :

برغم ان اسامة قد رتب ديوانه بنفسه وقسمه على الموضوعات ووضع كل
جزء من القصيدة تحت ما يناسبها الا ان النقص البارز في شعره انه اغفل تاريخ
القوائد واحيانا لم يذكر الغرض الذي من اجله اشأ القصيدة ، فلما حاولت ان
ارتب مراسلاته ووقف هذا الانبهاج من الزمن حائلا دون رغبتني ولذلك جعلت
رسائله التي مع والده اولا ومع اخوته ثانيا ثم اعقت ذلك برسائله مع اصدقائه
الذين بدأهم او اجاب على رسائلهم وفق الفترات الزمنية وتنقلاته في الاقطار التي
تنقل فيها وعاشر امراءها واعيانها من العلماء والادباء والشعراء •

وفي الديوان مقطعات كتبها الى اخويه عز الدولة وبهاء الدولة والى ابنه
مُرْهَفَ وابن أخيه شمس الدولة والى ابن عمه الامير ناصر الدين محمد بن
سلطان ، وقد اعيناني تعين زمن هذه المراسلات لذلك يجوز ان يكون بعض ما
تقدم حقه ان يتأخر ولكن ليس في هذا التقديم او التأخير ما يغير الفكرة او يغير
من الصلة وهذه المكاتبات محورها التواصل والتعاطف والتشوق والتذكر والشكوى
من الفراق والنعي على الدهر الذي سعى لتشتيت الشمل وتفريق الجمع •

كتب الى أخيه بهاء الدولة ابى المغيث منقذ رحمه الله :

أيا منقذي والحادثات تنوشني

ودافع همي اذ ترادف بعثه

لساني عن شكري ، اياديك مُقْحَم

وانت فأعلى من ثناء أبته

.....

تحملت عني كل خطبٍ يؤدني

وناهلتني عيشي وقد بان خبته

فدي لك يا طوع الاخاء أمينه

على غيبةٍ مُستكرهٍ الودِ رثه

نسي لما يُولي وما طال عهده

ملول لمن يهوى وما دام لبته

وما اشتكي شوقي اليك تجلداً

على انه بلبالٍ قلبي وبثه

وقاسمني قلبي على الصبر عنكم

ولا عجب ان بان بعدك حثه

وما زال يشيه اليك حفاظه

وغدرُ صروف الدهر عنك تحته

.....

وما ضعفتني الحادثات وانني

كمهدك وعر الخلق في الخطب وعته

جرى على الاهوال والموت مُحجِم

مرير القوى والدهر قد بان نكته

كظوم على غيظٍ يضق به الحشا

فلمست وإن آد اصطباري أبته

ولم أرث الصبرَ الجميلَ كلاله^(١)

ولكنه عن مرشدٍ لي ارثه

عن المتري أخلافَ دهرٍ تشابهت

اطايبه الا عليه ، وغُثه

نداهُ ربيعٌ يُنعش الناسَ سببه

إذا اخلف الوسميُّ جادَ ملته^(٢)

يضاعف داء الحاسدين كماله

على أنه يشفي من الداء نفثه

وكتب الى أخيه عز الدولة :

يا ثانياً للنفس وهو لناظري أعزُّ ثالث

ونجى فكري دون سا ثر من اناجي أو احادث

أشكو فراقك فهو او جمع ما لقيت من الحوادث

شكوى مشوق يستريح اليك والمصدور نافث

والوم دهرأ جدَّ في تشتيت شملي وهو عابث

انبي علقت من اصطبأ ري عنك أسباباً رثائث

عاهدته الا تضعضه النوى وأراه ناكث

وكانَ قلبي حين يخطر ذكركم في كف ضابث^(٣)

وبقايَ بعد فراقكم خطب لعمر أيبك كارث

وكتب الى أخيه بهاء الدولة :

يا من هواء على التسائي والتداني في ازدياد

أصبحت مُغترباً لبعذك بين أهلي في بلادي

(١) الكلاله : للميت ان لا يرثه والد ولا ولد .

(٢) اللث دوام المطر والندی واللث المطر دام أياما لا ينقطع .

(٣) ضابث : قابض عليه بكفه .

مستوحشاً مع كثرة الخلا ن وحشة ذي انفراد
وأقل ما لاقت بعدك من تباريح البعاد
شوق^١ اليك أباح فيض مدامعي وحمى رقادي

وكتب الى أخيه عز الدولة :

أبا حسنِ وافي^١ كتابك شاهراً
صوارم عتب كل صفح لها حد^٢
فقابلت بالعُتبي مضيض عتابه
ولم يتجهمه الحجاج ولا الجحد
وأعجبنى عي^٣ لديه ولم أزل
إذا لم تكن خصمي لي الحجج اللد^٤(١)
فيا جذا ذنب^٥ الي نسبته
وما خطأ مني أتاه ولا عمد^٦
ولو كان ما بلعته^٧ فظنته
لكفّره حق^٨ الاخوة والود
فأهلاً بعتب تستريح بشه
ويؤمنني ان يستمر بك الحقد
لقد راق في قلبي ولد^٩ سماعه
بسمعي « فزدني من حديثك يا سعد »

وفي الديوان أكثر من مقطوعة الى اخوته وكلها تنضح بالاخوة والشوق
والشكوى •
وكتب الى ابن أخيه شمس الدولة وقد سيره الى مصر الى الملك الصالح
قال :

(١) عجز بيت لابي فراس الحمداني •

أيا غائباً يُدنيه شوقي على النوى
لأنت الى قلبي من الفكر أقرب
وما غاب من اقفاه عيني وخطري
له مطلع من ذا وفي تلك مغرب
غبطتك نعمى فزت دوني بنيلها
وفخراً له ذيل على السحب يسحب
جوارك من يحمي على الارض جاره
ويطلب منه جوده كيف يطلب
هو البحر تروى الارض عند سكوته
وتغرق في تياره حين يغضب
فمن لي لو كنت الرسول ببابه
لتبرد رؤياه حشى تلهب
وابلغ ما انفتت في أملي له
من العمر عشراً كلها لي متعب
فما رق لي فيها نسيم أصائلي
ولا راق لي فيها من الهم مشرب
ولولا رجاء الصالح الملك الذي
به طال واستعلى على الشرق مغرب
وكتب الى ولده مُرهف وقد تملك نفسه الاسى لما يجد من الحنين الى ولده
مواصلتي كتبني اليك تزيدني
اليك اشتيافاً بل عليك تأسفاً

ولي اسوةً في الناس لو نفع الأسي
فمن قبلنا يعقوب فارق يوسف
ولكنَّ نفسي قد تملكها الاسي
وقلبي اذا سكته بالاسي هفا
وما أحسب الايام تقنع بالنوى
ولا أنَّ صرف الدهر بالفرقة اشتفى

وكتب الامير مرهف الى أبيه رقعة مع مستميج يطلب نداء وكان الامير مؤيد
الدولة اسامة يعيش منقطعاً عن الناس معتزلاً الحياة العامة في حصن ناء في الشمال
الشرقي من جزيرة ابن عمر لا انيس له غير ما يكتبه أو يقرؤه فكتب الى ولده
هذه الايات والاسي يحز نفسه والألم يعصر وجوده كله لأنه لم يجد ما يسعف
معتفي نداء وقد اضطر ان يقبض يده بعد ان عود الناس بسطها بالجود فقال

ابا الفوارس ما لاقيت من زمني
أشد من قبضه كفي عن الجود

رأى سماحي بمنزور تجانف لي
منه وجودي فاجتاح موجودي

فصرت إن هزني جان تعوّد ان
يجنني نداي رأني يابس العود

وكتب اليه بمناسبة مائلة :

أبا الفوارس إن انكرت قبض يدي
من بعد بسطها بالجود والكرم

فالذنب للموت أرجاني الى زمن
غلّت أكف الندى بؤساء بالعدم

كفى بنا فرقة ريب المنون كفى :

وجد اسامة من أخيه عز الدين جفوة واستمر هجره له وأعرض عن الرد على رسائله ولم يكن منه ما يستوجب هذه القطيعة فأثار هذا التجافي كوامن نفسه فهرع الى قريحته فنظم اليه هذه القصيدة الغراء وقد عبر فيها عن هواجسه ونوازع نفسه واستعقب فيها أخاه واستل سخيمة صدره ومنحه الرضا ، بدأها بهذا العقب المحجب :

اطاع ما قاله الواشي وما هرّفا

فعاد يُنكر منا كل ما عرفا

وصدّ حتى استمرّ الهجرُ منه فلو

المّ بي منه طيفٌ في الكرى صدّفا

يجني ، وعندى له العُتبى فوا عجبا

من مُعْتَبٍ ما جنى جرماً ولا اقترفا

ملكه طائعاً قلباً تعسّفه

وقلما يملك الاحرارَ من عسفا

لي منه ما ساءني : من هجره ، وله

مني الرضا بقضاياه وإن جنّفا

مالي أرى بيننا والدار جامعة

قريبة ، من تجنيكم نوى قذفا^(١)

لا تعجلوا بفراقٍ سوف يُدرّكنا

كفى بنا فرقة ريب المنون كفى

صلوا فؤاداً اذا سكّنت روعته

هفا ، ودمعاً اذا نههته وكفا

(١) النوى القنف : البعيدة .

لکم هوای ، وإن جرتم وجورکم
مُسْتَحْسَنٌ منکم لو لم یکن سَرَفَا
کذاک حظی من الاحباب : مَنْ سَکَنَتْ
نفسی الیه جانبی الهجرَ والشنفا
حتى لقد غَیَّرَ الجَدُّ العُثورُ فلا
لِعَا لَهُ ، ماجداً ما کان مُطَرَّفَا
وابتزنی رأی عز الـدین مُسْتَلْبَاً
من بعد ما عمَّنی احسانه وضمفاً
أضافنی عبه هماً شجیت به
أبان عن ناظری طیبَ الـکری ونفی'
أته عنی أحادیثٌ مُزخرَفَةٌ
ما إن بها عنه وهو الألمعی خفاً
لکنها وافقت من قلبه مللاً
لم یَسْتَبینُ صَحةَ الدعوی ولا کشفاً
وما الرضا ببعیدٍ من خلائقه
وهی السلافة رات رقّةً وصفاً

ومنها :

أریتنی بعد بسر هجرة وقلی'
وبعداً برّاً ولطفٍ قسوةً وجفاً
فعدت صفرید مما ظفرت به
کأن ما نلته من کفّی أختطفاً

هَبْنِي أُتَيْتَ بِجَهْلٍ مَا قَدَفْتَ بِهِ
فَأَيْنَ حِلْمُكَ وَالْفَضْلَ الَّذِي عُرِفَا
وَلَا ، وَمَنْ يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ حَلْفَةَ مَنْ
يَبْرُؤُ فِيمَا أَتَى إِنْ قَالَ أَوْ حَلَفَا
مَا حَدَّثَنِي نَفْسِي عِنْدَ خَلْوَتِهَا
بِمَا تُعْغِضُنِي فِيهِ إِذَا انْكَشَفَا
لَكِنَّهَا شِقْوَةٌ حَانَتْ وَأَفْضَىةٌ
جَبْتَنِي الْهَمَّ مِذَّ عَامِينَ وَالْأَسْفَا
تَدَاوَلْتَنِي أُمُورٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ
لَوْ حَمَلَّ الطَّوْدُ أَدْنَى ثِقَلِهَا نُسِفَا
وَأَقْصَدْتَنِي سَهَامَ الْحَاسِدِيِّ عَلَى
فُوزِي بِقَرْبِكَ حَتَّى قَرِطَسُوا الْهَدَفَا
وَبَعْدَ مَا نَالَنِي إِنْ جَدْتَ لِي بَرَضَا
فَقَدْ غَفَرْتَ لِدَهْرِي كُلِّ مَا سَلَفَا
وَذَاكَ ظَنِّي فَإِنْ يَصْدُقُ فَأَنْتَ لِمَا
رَجَوْتُ أَهْلًا ، وَإِنْ يُخْفِقُ فَوَا أَسْفَا
حَاشَاكَ تَعْدُو ظَنُونِي فَيْكَ مُخْفِقَةً
أَوْ يَنْشِي أَمَلِي بِالْأَسِّ مُنْصَرِفَا
وَجُنَّتِي مِنْ زَمَانِي حَسَنَ رَأْيِكَ لِي
أَكْرَمُ بِهَا جَنَّةُ لَا الْبَيْضَ وَالزَّغْفَا (١)

(١) الببيض السيوف ، والزغف الدرع اللينة المحكمة .

الفت منك حنواً منذ كنت وقد

فقدته ، وشديد فقدُ ما أَلِفَا

فَعُدَّ لِحَسَنٍ مَا عَوَّدَتْ مِنْ حَسَنٍ

يا من اذا جاد وفيَّ أو أذمَّ وفيَّ (١)

ورسائله الى والده وولده واخوته وبني عمومته كثيرة اكنفى بما قدمت منها في مواضع مختلفة من الكتاب وفيها الغنَاء للدلالة على ما كان بين اسامة وعشيرته من المودة وصلة الرحم وحبه الشديد لاهله ووفائه لوشائج القربى فاذا رث جبل منها من أحد منهم بادره بالعتاب وباشره بالتشوق اليه وجدد العهد معه ، وفي الديوان أمثلة كثيرة للترام اسامة لأهل بيته وانتقل الى مكاتباته مع أصدقائه وأقدمها قصيدته الى معين الدين أنر حاكم الشام وقد تقدم بعضها في بحثي عن أسباب هجرته الى مصر سنة ٥٣٩ هـ والقصيدة طويلة تقع بأكثر من خمسين بيتاً قدمها بغزل رقيق وعتب صديق عفيف •

قصيدته الى معين الدين أنر قال (٢) :

أَقْصِرْ ، فَلُومِي فِي حَبِّهِمْ لَمَمٌ
وَنَاصِحُ الْعَاشِقِينَ مَتَهُم

ومنها :

فَوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْهِمْ ثِقَةً
بِهِمْ فَلَمَّا تَحَكَّمُوا ظَلَمُوا
وَمَا كَذَا تَحْفَظُ الْمَوَائِقَ فِي الْـ
حَبِّ وَتُمَحِّي الْعُهُودُ وَالذَّمُّ
فِيهَا هَفْوَةٌ نَدِمْتُ عَلَى
مَا كَانَ مِنْهَا لَوْ يَنْفَعُ النَّدَمُ

(١) اذم له عليه أخذ له النعمة ، أي اجاره •

(٢) كان وزيراً لحاكم دمشق شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري

توفي سنة ٥٤٤ هـ •

ومنها :

يا ركباً تقطع اليداء همته
والعيش تعجزُ عما تُدرك الهمم
بلِّغْ أميري : معين الدين مالكة
من نارح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خيرُ الترك فضلك الـ
جِفاء والدين والاقدام والكرم
وأنت أعدل من يشكى اليه ولى
شكّية انت فيها الخصم والحكم
هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم
تضيع واجب حقي بعد ما نهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم
ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من
ودّ ، وإن اجلبّ الاعداء ينصرم
لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم
حتى استوت عندك الانوار وانظلم
باعوك بالبخس يبغيون الغنى ولهم
لو انهم عدموك ، الوبل والعدم
والله ما نصحووا لما استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من مقال في سفارتهم
وكم سَعَوْا بفسادٍ ضلَّ سعيهم

ومنها:

ولستُ آسى' على الترحال عن بلدٍ
« شهب البزاة سواء فيه والرخم »

تعلقتُ بجبال الشمس منه يدي
ثم اثننت وهي صفراً ملؤها ندم

لكن فراقك آسائي وآسفني
ففي الجوانح نار منه تضطرم

فأسلم فما عشتَ لي فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من يؤسه نِعَم'

يعزو اسامة انقطاع ما بين معين الدين وبينه الى كيد الحساد وسعي الوشاة
الذين وثق بهم معين الدين أنر وهم ما زالوا يسعون بغشهم حتى افسدوا قلبه
وما نصحوه في ما أشاروا به ، وقد حرفوا المقال وبدلوا الحقيقة وفق خطة دبروها
للايقاع بين الاميرين فقال يعاتبه :

وما ظنتك تنسى حق معرفتي
« ان المعارف في أهل النهى ذمم »

فوقعت الجفوة وتآلب الخصوم على اسامة فهجر الشام وولى وجهه الى مصر
بعد خدمة دامت ثمانين سنين ، ولم يأس الا لفراق صديقه الذى وثق به وقد اخلص
له اخلاصا لا يرقى اليه الشك ولا تحوم حوله الظنون وان اجلب الاعداء
وكاد الكائدون •

جربهم مثل تجريبي لتخبرهم فللرجال اذا ما جربوا قيم

هل فيهم رجل يُغني غنّاي إذا

جلا الحوادث حدّ السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ضاق به

ذرعُ الرجال يدأ يسطوبها وفم

لكن رأيك أذناهم وابعديني

« فليت انا بقدر الحب تقسم »

هم الاعادي وقاك الله شرهم

وهم بزعمهم الاعوان والخدم

إذا نهضت الى مجدٍ تؤلّه

تقاعدوا ، فادا سيده هدموا

وسمع اسامة بانتصارات صديقه الامير معين الدين أنر على الافرنج فكتب اليه

مهنئاً ومثنيا ، وفيها يظهر أسفه اذ حرم من أجر المشاركة في هذه الحروب

التي كان واياه شفعاً في حربهم وهو اليوم وتر وكان حظه من تلك الحروب

ذكراً معطراً ثم هو اليوم ماله فيمن يجاهد ذكر ، قال :

كل يوم فتح مبين ونصر

واعتلاء على الاعادي وقهر

صدق النعت فيك أنت معين الـ

ـدين إن النعوت قال " وزجر

بك زاد الاسلام سيفه المخـ

ـذم عزاً وذل شرك وكفر

ومنها :

كل ذخر الملوك يَفَنَى وذخراك هما الباقيان : أجرٌ وشكرٌ
للندی مالك المباح وما مالك الا جُرْدٌ وبيضٌ وسُمرٌ
عمَّ أهلَ الشَّامِ عدلك لکنَّا بَعُدنا وغاية البعد مصرٌ
فحرمتنا من بينهم رَيعٌ ما كنا زرعنا ، ونال زيد وعمرو
أمن العدل اتنا في بلاد الكفر شفعٌ وأنت في الغزو وتر
كان حظي من ذاك ذكراً شَفِيعاً
ثم مالي فيمن يجاهد ذكرٌ

بين الامير اسامة والملك الصالح طلائع بن رُزيك صاحب مصر^(١) :

كان بينهما ودٌ وإخاء ، أعجب كل واحد منهما بصاحبه وكان طلائع يرغب
رغبة صادقة ان يوسد الى صديقه اسامة ولاية اسوان أو غيرها وان يشركه في
الحكم إن عاد الى مصر ولكن الاحداث التي عرضت لاسامة وهو في مصر ايام
الوزير عباس بن باديس والدسائس التي كانت تحاك في البلاط الفاطمي من
الخليفة لوزرائه ومن الوزراء للخليفة وتدخل النساء في الحكم وفساد الجند
وتعدد ثوراتهم كل ذلك زهده بمصر والحكم فيها أو مجرد التفكير في العودة
اليها ، وقد مر بنا ان الملك العادل نور الدين قد نصحه بالبقاء بجواره ، وتوالت
بينهما الرسائل وتداولت القصائد وتتابعت هدايا الملك الصالح . فكان من حقها
الشكر ومن حقها الاعلان والذكر ، قرأ الملك الصالح طلائع رقعةً بعث بها اسامة
الى صديقه الوزير نظام الدين فيها الايات التالية :

وما سكنت نفسي الى الصبر عنكم

ولا رضيت بَعْدَ الديار من القرب

ولكنَّ أيامي قضت بشيتاتنا

ففارقكم جسمي وجاوركم قلبي

(١) طلائع بن رزيك قتل ٥٥٦ هـ .

ولو جمعنا الدارُ بعد تفرقِ
لكتم من الدنيا ونعمتها حسبي
فوقف طلائع على الابيات فأجاب عنها بقصيدة طويلة منها :

من اليوم لا اغترُّ ما عشتُ بالحب
ولا أطلب العبي' من الخِلِّ بالعب

ولا ارتضي بالبعد من ذي مودة
واقف منه بالرسائل والكتب

أخلاي لو رمت دنواً لما أبى'
سرى العيس بل ركض المظهمة القب'

ولكنكم بعتم وفاءً بغدرةٍ
غداة اشتريتم وحشة البعد بالقرب

واقصيدة طويلة وفيها يبرىء ساحة اسامة من الاشتراك بتلك الاحداث
التي انتهت بمقتل ابن السلار ، الوزير الملقب بالملك العادل ، وقتل الخليفة من
قبل عباس بن باديس وابنه المظفر .

وحاشاكم ما ختم العهد مثله ولا لكم فيما جرى منه من ذنب
ويقول له فيها :

وكتتم الى قلبي اذا ما لقيتكم
على ظمأ اشهى من البارد العذب

واني على ما قد عهدتم محافظ
على الود منكم في بعاد وفي قرب

أحن الى أخلاقكم وأعدكم
بلا مريية من جملة الاهل والصحب

اسامة' لي منه اعترام اسامة
ومرهف فيه هزّة' المرهف الرحب

وكتب اليه طلائع بخط يده ومن شعره قصيدة مطلعها :

أيها المتقد أنت على البعد صديق لنا ونعم الصديق'
ليس فيما تأتيه من برّ أفعالك للطالب الحقوق حقوق'
فلهذا نرى مواصلة الكتب تباعا اليك مما يليق
وتناجيك بالمهمات اذ أنت بالقاتها اليك خليق
وأهم الامور أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق
واصلتَهُم منا سرايا فأشجاهم بكور" منّا لهم وطروق'
وأباحت ديارهم فأباد القوم قتل ملازم وحريق
وانظرنا بزحفا برء نور الدين علما منا بان سيفيق
ما لهذا المهم مثلك مجدّ الدين فانهض به فأنت حقيق
قل له لاعداء رأي ولا زال لديه لكل خير طريق
أنت في حسم داء طاغية الكفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتم بالجهاد اجرک کي تلقى رفيقا له ونعم الرفيق

وهذه الدعوة الى توحيد خطة الهجوم والحرب المشتركة ضد الافرنج قد
توالت في رسائله وقصائده والملك العادل نور الدين كان يتخوف من دسائس
البلاط الفاطمي وكانت له خطة تجاه الخليفة ظهرت بعد طلائع ولكن الفكرة
التي نادى بها ابن رزيك قد نمت بذرتها وأتت أكلها على يد صلاح الدين
ابن أيوب بطل حطين وفتح القدس •

فأجابه اسامة :

کم الى کم يلحى' المحب المشوق

وهو من سكرة الهوى لايفيق

حملوه وهو الضعيف من التع

نيف فيهم والموم ما لا يُطبق

شجعوه على القطيعة والصمت من الصدِّ والفراق ففوق

والايات التي أجاب عليها اسامة لم نجد فيها لاتصريحاً ولا تلميحا للفكرة

التي نادى بها طلائع ، فعاد وكتب اليه :

أيها السائر المجدُّ الى الشام تباري ركابهُ والخيول

خذ على بلدة بها دار مجد الدين لاربع ريعها المأهول

وتعرف أخباره واقراء منا سلاما فيه العتاب يجول

قل له : أنت نعم ذخر الصديق اليوم لكنك الصديق الملول

لا كتاب ولا جواب ولا قول به لليقين منا حصول

غير انا نواصل الكتب اذ قصّر منك البر الكرام الوصول ،

وراح يعدد حروبه ويُشيد بما فتح الله على جنده من النصر وما صنعه

اسطوله وما ناله من الافرنج برغم قلته فأسر وفتح في عكا وطرطوس وأخيراً

يتوصل الى غرضه :

فابلغنا قولنا الى الملك العادل فهو المرجو والمأمول

قل له : كم تماطل الدين في الكفار فاحذر ان يفضب الممتول

سر الى القدس واحتسب ذلك في الله فبالسير منك يشفى الغليل

فأجابه بقصيدة على نفس الروي :

وعاد فكتب اليه قصيدة ميمية طويلة منها :

فقولوا لنور الدين لافلّ حده

ولا حكمت فيه الليالي الغواشم

تجهز الى أرض العدو ولا تهن

وتُظهر فتوراً إن مضت منك حارم^(١)

فكتب اليه اسامة بهذه القصيدة التي بلغت ستة وستين بيتاً ، منها :

لك الفضل من دون الورى والمكارم

فمن حاتم ما نال ذا الفخر حاتم

وصلت فأغيت الانام من الحيا

وصلت فخافت من سطواك الصوارم

تكفلت للاسلام انك مانع

حماء ، مبيح ما حمى الكفر هادم

فأصبحت ترعى سرحة بصريمة

من العزم لم تبلغ مداها العزائم

رمىت العدا بالأسد في اجم القنا

على الجرد تقتاد الردى وهو راغم

بمثل أتي السيل ضاق به الفضأ

وضاق على الاعداء منه المخارم

يارين شهب القذف يحملن مثلها

من الحنف للباغي الرجيم رواجم

والقصيدة على طولها لم أجد فيها الا بيتاً واحداً يشير الى نور الدين وأنه

في حرب مع الافرنج

وقد شمر الملكان في الله طالبي

رضاء بعزم لم تعقه اللوائم

(١) حارم مدينة بالشام غزاها نور الدين مرات ، وحاصرها حتى فتحها .

بجدٍ هو العضبُ الحسامُ وحدُهُ
لعادية الاعداء والكفر حاسم
وقاما بنصر الدين والله قائم
بنصرهما ما دام للسيف قائم

وكتب اليه قصيدة هي من غرر الشعر قال العماد « لو عاش الطائيان
لأقرا بفضلها وان خواطر المبتكرين لتقصر على مثلها على ان الشعراء المحدثين ما
منهم الا من نظم على رويها ووزنها واستمد خصب خاطره من مزنها » مطلعها :

أجيرة قلبي إن تدانوا وإن شطوا
ومنية نفسي انصفوني أو اشتلوا
عصيتُ اللواحي فيكم وأطعتم
مقالهم ما هكذا في الهوى الشرط
ولو علموا مقدار حظّي منكم
وهمي بكم زال التنافس والغبط
إذا كان حظي منكم في دنوكم
صدود وهجر فالتداني هو الشحط
ومنها :

ومنّ علّقتُ بالصالح الملك كفه
فليس له دون العلاء والغنى شرط
ومن دونه إن رابَ خطبٌ ذوابل
وبيض وجرّدٌ لا القتادة والخُرط (١)
انارت جدودي مذ علقت بجبله
وكان لها في خطب عشوائها خبط

(١) اقرأ القصيدة في باب المختارات من شعر اسامة .

له نائل يسري الى كل أمل
« اذا جيرة سيموا النوال فلم يُنطوا » (١)

على كل وجه نضرة" من نواله
وفي كل جيد من صنائعه فرط'
وكم أملٍ جَعَدِ أُنَى اليأس دونه
تلقاه' من أنعامه نائل سبط

وكنت أرجي منه ما دونه الغنى
اذا ما غدا في كفه الرفع والحط

فلما ورى زند المعالي بكفه
وقال نداء للوفود : الاحطوا

نأت بي الليالي عنه لكنَّ جُودَه
اتاني ولم يحجزه نأي ولا شَط'
كذا الغيثُ يسري طالباً كل طالبٍ
فكلُّ له من فيض وابله قسط'

فأنزرتُ حظي من مواهبه الغنى'
وايسرُ تخويلي العشرة والرهط

يشير اسامة الى صنيع طلائع والى أياديه في تسفير أهله وعشيرته وكانوا
زهاء خمسين بين تابع ومتبوع ، آواهم بعد فتنة الوزير عباس بن باديس وأجرى
عليهم الرزق الوافر وهياً لهم سفينة بعد الحصول على أمان بلدوين الثالث بطلب

(١) القتاد شجر صلب له شوكة ، والخروط الدابة الجموح تجتذب
رسنها والذوابل : الرماح ، والجرد الخيل القصيرة الشعر .

(٢) الشطر الثاني من بيت لابي العلاء المعري :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا

بظلمهم ما ظل ينبتة الخط

من الملك العادل نور الدين زنكي فلما سمع بانتهاب أموال اسامة من قبل الافرنج
وقد ذكرت خبرها ، اسف لما حصل لاسامة فأرسل اليه مالاً كان انزر حظه من
مواهبه الغني جباه نقداً وعينا وأنفساً ونوّله ما لم يُنل ملك قط مثل نواله ،
كما يقول :

جباي نفوساً لا نفساً من اللهى^(١)
ونولني ما لم يُنل ملك قط

وما الناس الا آل رزّيك إنهم
همُ الذادة الشبان والسادة الشُمت

بنو الحرب في يوم الوغى وبنو الندى
اذا ما بلاد الناس جرّدها القحط

والقصيدة بطولها يجدها القارىء في الديوان ص ٧٨ - ٨٠ وتمتها في ص

١٧٤ - ١٧٥ •

فأجابه طلائع بقصيدة من نفس الروى والقافية ، وفيها يحرضه على
الجهاد ، مطلعها :

هي البدر لكنّ الثريا لها قرط'

ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

وفيها يعرض بالهدنة التي عقدها الافرنج مع نور الدين ويحذره من كيدهم
وخياناتهم وعدم تمسكهم بالمعاهدات والعهود الا اذا كان فيها مصلحتهم ، ومنها :

فقولوا لنور الدين ليس اجائف ال

جراحات الا الكي في الطب والبَط'

(١) اللهى بالضم العطايا مفردها لهوة •

(٢) الغمط مفردها اشمت بياض يخالطه سواد كتابة عن الكهول •

فدع عنك ميلاً للفرنج وهدنة
 بها أبدأ، يُخطي سواهم ، ولم يخطوا
 تأمل ، فكم شرط شرطت عليهم
 قديماً وكم غدر به نقض الشرط
 وشمر ، فإنا قد اعننا بكل ما
 سألت وجهنا الجيوش ولم يبطوا
 ودونك مجد الدين عذراء زقها
 اليك الوفاء المحض والكرم السبط
 هدياً (١) تهادى بين حسن وفائنا
 وانعامنا ذا التاج زان ، وذا القرط
 على انها تشتط إن هي ساجلت
 « اجيرة قلبي إن تدانوا وإن شطوا »

اسامة يستلف من التجار على بيت مال مصر :

كان لاسامة راتب في ديوان مصر بصفته أحد امراء الاجناد فاستلف المبلغ
 من تجار من الشام وكتب لهم رقعة بصدرها هذه الايات ، أرسلها الى الملك
 الصالح قال :

يُلطُّ بالدين من مولاة مَسْلَمَة

حتى يخلصه السلطان والحكم

لكن مولاي يقضي ما استدنت ولا

يلقى سؤالي منه الصد والسأم

(١) الهدي : العروس .

فكفه البحر لكن موجه بدر

وجوده الغيث لكن وبَلُّهُ نِعَمٌ

فأمر الملك الصالح بتجديد التوقيع ووفاء التجار واستمرار الاطلاق ، وكتب
اليه ، قصيدة من نظمه وبخطه :

أقسمت بالوجود منا انه قسم

وبالمودة منكم انها رَحِمٌ

إنا لنحفظ فيكم معً بعدادكم

شريعةً سنها في ديننا الكرم

وكلما رام واثم نقض مذهبها

أضحت تؤكد الأخلاق والشيم

لسنا كقومٍ ولا نزري على أحد

وكلوا ، فلما رجوتم عدلهم ظلموا

لم يعرفوا لكم قدراً وإن كرمتم

أخلاقهم وعرفنا قدر فضلكم

وليس ذاك لشيء غير انهم

بالطبع لا تنفق الآداب عندهم

والعرب أقل داء يهلكون به

ان تملك الحكم في أعناقها عجم

بل عندنا إن سألتم واثقين بنا

في حاجة نِعَمٌ ، جوابها نِعَمٌ

اسامة يسترفد طلّاح بن رزيك :

وكتب اسامة الى طلّاح بعد النكبة التي نكبه اياها بلدوين بنقضه عهده
وانتهابه لعشيرته وأهله ولم يترك لهم من أموالهم ومقتنياتهم الا ما يتبلغون به في
وصولهم الى الشام وكان مع والديه من النقد والاموال ما يقدر بثلاثين الف ديناراً وأشد

ما أحزنه وملاً صدره غيظاً انتهابهم لكتبه التي زادت على أربعة آلاف مجلد ، فأرسل الى الملك الصالح هذه الابيات الشاكية ولأول مرة نجد اسامة يفارق ابيه ويخالف طبيعته فيطلب العون ويجهر بالشكوى وهو الذي يرى مجرد الشكوى ذلة وضراعة ، قل :

غرني لامع السراب وهذا البحر دوني عذب المياه شراب
سرت استقرىء المحول وفي أرضي مرعى عين وواد قشيب
سوء حظي أنأى عن الملك الصالح والحظ ينتهي ويثوب

ومنها :

أنا أشكو اليك دهرأ لحا عو دي وأعراه فهو يبس سليب
وخطوباً رمى بها حادث الد هر سوادى وكلهن مصيب
أذهبت تالدي وطارفي الطا ري فضاع انوروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وبحر^(١) ذا غريق فيء وذا منهوب
وابائي أراه عن حملة المن ضعيفاً وهو القوي الركوب ،

فأجابه بقصيدة طويلة وفيها الدعوة والترحيب ان نشط اسامة للسفر الى مصر ، وفيها حث الامير على تحريض نور الدين لحرب الأفرنج وتوحيد الهجوم قال فيها :

يا أخلاي بالشيام لئن غب تم فشوقي اليكم لا يغيب
غصبتنا الايام قربكم منا ولابد أن ترد النصوب
ولكم إن نشظتم عندنا الاكرام والرفد والمحل الخصيب

(١) في ثورة الجند على الوزير عباس بن باديس نهبت دار اعوانه ومنها دار الامير اسامة فنهبوا امواله وخيله وسلاحه ومائتي بقرة والـف شاة وغلـال هذا ما يشير اليه الشطر الاول في مصر والشطر الثاني كان في البحر حين نهب الافرنج السفينة التي حملت امه وزوجه وأتباعه ، وما زالت صلته بنور الدين جديدة وان كان لم يقصر في مد يد العون له في ادرار الرزق عليه وانزاله داراً وأقطعه أرضاً يغلفها والواقع تعريض طلائع بنور الدين دافعه الحسد حين يقول :
والعرب اقتسل داء يهلكون به أن تملك الحكم في اعناقها العجم

ومنها :

وإذا ما حرضت فالشاعر المفلد قى فيما تقوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا يُنكر ان التدبير منك مُصيب
قصدنا ان يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضاق بأدناهم الفضاء الرحيب

وليس ما قدمته من الشعر هو كل ما كان من المراسلات بين اسامة وطلائع
بل الأكثر هو الذي لم اقتبس منه أو أشير اليه فقد استمرت المراسلات بينهما
زمناً طويلاً الى أن قتل بمؤامرة من قبل الخليفة العاضد الذي تزوج ابنة طلائع
وبرغم هذه الصلة وبرغم اخلاص طلائع للمذهب الفاطمي وصدقه في الخدمة
وجهاده للأفرنج وحب الناس له لما رأوا من عدله واصلاحاته كل هذا لم يمنع
الخليفة من اغتياله ليعاني بعده استبداد شاور وضرغام وخياناتهما ، واستغانتها
بالأفرنج ولم يكن الخليفة بأحسن منهما سريرة حتى قضى أسد الدين شيركوه
وصلاح الدين على الحكم الفاطمي •

وطلائع بن رزّيك من أصل أرمني عراقي كان متحمساً للمذهب الفاطمي
انفرد بحكم مصر بعد الوزير عباس وبعد ثورة الجند عليه ، أخلص في الجهاد
ولم يهادن الأفرنج كانت اساطيله تغزو الساحل الشامي وجيوشه البرية تحارب
الأفرنج في قطاع غزة وعسقلان وغيرها ، فقد اسامة بقتله صديقاً محبباً برأ به تأنيه
هدايا وأمواله من غير طلب وقد ازدهرت الآداب مدة حكمه وقصد الشعراء
وازدحموا في بلاطه •

ولاسامة مراسلات ثرية وشعرية كثيرة مع أعيان البلاد الذين عرفهم في
اسفاره وهجرانه فممن كاتبهم : الوزير نظام الدين في مصر تبادل الرسائل
والقصائد منها في صدر رقعة :

نظام الدين لا سقيا لخطب

رمانا بالنوى بعد اجتماع

عدا حتى على حسن اصطباري
وضَنَّ عليَّ حتى بالوداع
ولو أمَّلتُ أن القساك حتى
أبشك مضمراً القلب الشعاع
لسررتي الاماني أو لسرت
جوى قلبي لبعثك والتياحي
وكتب اليه أيضاً آياتنا منها :

وما سكنت نفسي الى الصبر عنكم
ولا رضيتُ بعد الديار من القرب
ولكنَّ أيامي قضت بشتاتنا
ففارقمكم جسمي وجاوركم قلبي
ولو جمعنا الدار بعد تفرق
لكتم من الدنيا ونعمتها حسبي
وكتب اليه .

نظام الدين كم فارقت خيلاً
وكم صلَّيتُ حشاي لظى اشتياقي
فلم أجزع لِفَجْئَاتِ التناهي
ولم أفَرِّقَ لروعات الفراق
وها أنذا لبعثك إلف همَّ
تفيض له النفوس من المآقي
أمتي قلبي الخفياق شوقاً
اليك بقرب أيام التلاق ،

وكتب الى السيد النقيب ضياء الدين نقيب الموصل وكانت بينهما مراسلات
ومساجلات شعرية ، يعتذر بهذه الايات اليه لتأخير كتبه عنه ، والكتاب في
ورق أصفر .

فَصَّرْتُ فِي خَدْمِي تَقْصِيرَ مَعْتَرَفٍ
وَمَا كُنَّا يَفْعَلُ الْإِخْوَانُ وَالْخُدَمُ

حَتَّى تَعْصِفَ لَوْنُ الطَّرْسِ مِنْ وَجَلٍ
فَإِنْ صَفَحْتَ جَرَى فِي وَجْتِهِ دَمٌ

وَلَوْ تَجَافَتْ لِي الْإِيَامُ عَنْ وَطْرِي
لَنَابَ عَنِ قَلَمِي فِي سَعِيهِ الْقَدَمِ

وَبَعْدَ عَذْرِي فَقَدْ أَقْرَحْتَ مِنْ أَسْفٍ
جَفْنِي وَأَدْمَى بِنَانِي بَعْدَكَ النَّدَمِ

أَطَعْتُ حَكْمَ اللَّيَالِي فِي فِرَاقِي مِنْ
« وَجَدَانِنَا كُلِّ شَيْءٍ بَعْدَهُ عَدَمٌ »

لَمْ لَا تَصَامَمْتَ عَنِ دَاعِيِ الْفِرَاقِ وَمَا
بِالِي صَلَّيْتُ لِنَظَاهُ ، وَهُوَ يَحْتَدِمُ

فَإِنْ تَقَلَّنِي اللَّيَالِي عَثْرَتِي وَأَفْزَى
بِالْقُرْبِ مِنْكَ فَمِعَادُ اللَّقَاءِ الرَّدَمُ (٢)

وكتب اليه ضياء الدين نقيب الموصل :

أَبَا الْمُظْفَرَ أَشْوَاقَ مَبْرَحَةٍ وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِكُمْ لِلْبَيْنِ أَحْمَالُ

(١) ضمن بيت المتنبي في سيف الدولة .

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

(٢) الردم موضع بمكة .

وأتم حيث إطلائي بينكم
وما نأت دار من يبيديه اطلال
فكيف بي إن غدا الهرماس' مشربكم (١)
وحال من دونكم مرت" وأجبال (٢)
إذا تخبرك الركبان عن كبد
تدمى' وعين لها سح' وتهمال
وعن مودع قلب قد رحلت به
يعتاده لكما هم' وبلبلان ،

فأجابه اسامة :

يا خير من علقت كفي مودته
وصدقت لي في علباه آمال
ماذا أقول ، وقلبي قد تخلف عن
جسمي وزمت' لوشك البين أجمال
وكم فجعت بردعات الفراق ولا
كهنه لم يرعني قط' ترحال
وقبل وشك النوى قد كنت أخذرها
كأن ذاك التوقى قلبها فال
فإن تمادت بنا أيام فرقنا
وكل ساعات بعدي عنك آجال

(١) الهرماس نهر .

(٢) مرت" : المرت المغازة بلا نبات أو ارض لا يجف ثراها ولا ينبت
مرعاها ، الحبل من الرمل المجتمع الكثير العالي .

فاحفظ فؤاداً مقيماً في ذراك ولا
تُسلمه للشوق ان الشوق قتال

وكتب الى الشريف النقيب ضياء الدين نقيب الطالبين بالموصل :

ضياء الدين ما شوق دعائي
فاسمّني بمصرَ من العراق

بمحدودٍ ، فأنرحه ولا في
قوى الاقلام تسطير اشتياقي

ولكني سأرجئه وأرجو
مشافهتي به عند التلاقي

اذا ما كنت جارك ذا اشتياق
اليك فكيف بي بعد الفراق

ولي شكوى من الايام أضحت
لها نفسي تردّد في التراقي

اكلف من أذاها فوق وُسعي
وأحمل كارهاً غير المطاق

ويلزمني الاباء الصبرَ فيما
ينوب ، وطعمه مرّ المذاق

ومَغْفُورٌ لها ، إن أسفعتني
بقربك ما لقيتُ ، وما الاقي

وكتب اليه القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن علي بن الزبير من مصر
افتحه بهذه الايات :

أأجابنا ما مصرُ بعدكم مصرُ
ولكنها قفرٌ اليكم بها فقر

وإن تخلُ يوماً بقعةً من سُخُوصِكُمْ
فلم يخلُ يوماً من مودتكم صدرُ

وإن تُنثِكم عنا المهامه والسرى
تقريبكم منا المودة والذكر

رحلتكم فعاد الدهر ليلاً بأسره
وليسَ له الا بأوبتكم فجر

تُرى فاضَ مالقى من الهمِّ والأسى
لبعدكم فاسودَّ من صبغه الدهرُ

وكيف الوم الليل إن طال بَعْدكم
وقد غاب عني منكم الشمسُ والبدر

فكتب اليه اسامة هذه الابيات جواباً عنها :

تذكَّرُهُ أَجْبَابُه الأَنجَمِ الزَهْر
فيا ويحه ماذا به صنع الذَّكْرُ

همُ مثلها : بعداً ونوراً ورفعةً
ولكنَّ لها إن شُبِّهَتْ بهم ، الفخر

وقد كنت أشكو هَجْرهم في دنوهم
فمن لي لو دام التداني والهجر

سقى مصرَ جودُ الصالحِ المَلِكِ إنه
هو الوابل المحيِّ البرية لا القطر

.....

ففيها كرام أسعروا بجوانحي
بعدهم جمرأ به يُحرقُ الجمر

ومن عادتي الصبر الجميل' وليس لي
 على بعدهم لادرّ درّ النوى صبر'
 اذا ما « أمين الدين » عنّ ادّكاره
 ذهلت كأني خامرت' لبيّ الخمر
 يُذكرُ نيه الفاضلون وإن غدوا
 جداول إن قيسوا به وهو البحر'
 اذا حضر النّادي فرضوى رجاحة'
 وإن قال فالدرّ المنظم والسحر
 ويعجبني منه تدفق' علمه
 وأعجب منه كيف يجمعه صدر
 تناءت' بنا الداران والود مُصقّب' (١)
 فللقرب شطر' والبعاد له شطر
 كأن الليالي اذ قضت بفراقنا
 ففي جورها إن ليس تجمعا مصر'
 أحلّ' بها إن غابَ عنها وإن أغب'
 يحلّ' بها فاعجب لما صنع الدهر'
 فليت تلاقينا ، ولو بعض ساعة
 يحمّ' وشيكا قبل أن ينفذ العمر'
 لأحضى' برؤياه واشكر مته' (٢)
 وإن لم يقم عني بواجبه الشكر

(١) أصقبت دارهم دنت وقربت .

(٢) المن : الانعام .

وكتب في صدر كتاب :

لأشكرنَّ اهتماماً منك يذكرني
في البعد حتى كأنني مصقب الدار
بَعُدْتُ عنه فما أنكرت خَلَّتَهُ (٣)

مع التائي وكم أنكرت من جار

وكتب الى ابن عمه الامير ناصر الدين ابي عبدالله محمد بن سلطان حاكم
شيزر ، يستعينه في فكك أخيه نجم الدولة محمد بن مرشد من اسر الافرنج وقد
مرَّ خبره والايات تُعد من أبلغ الشعر وأروعه فلم يحركه الشعر ولم يثر نخوته
هذا الدعاء المثير ولا حرك شهامته قول ابن عمه :

أنا ابن عمك فاجعلني بفك أخي
من أسره لك عبداً ما شئت قدمي

فملك مثلي لا يغلو بما بذل الـ
مبتاع فيه ولا يُستام بالقيم

وقوله :

هذا ابن عمك في أسر الفرنج له
حول تجرَّم في الأغلال والظلم

يدعوك ، لا بل أنا الداعي نذاك له
يا خير من علقته كفُّ معتصم ،

لو كان الامير ناصر الدين مُعماً مخولاً لاستجاب لنداء الدم ولكن الام (١)
السلجوقية التي غذته غرست في صدره الغلَّ لابن عمه اسامة ولاحوة اسامة

(٣) الخلة بالضم الصداقة ، وبالفتح الطبيعة .

(١) هي خاتون بنت تاج الدولة تتش امير حلب وعمها ملك شاه صاحب
اصبهان وكانت شديدة الاعتزاز بعشيرتها .

وجعلته يحقد عليهم لما وقر في نفسه ان اسامة يزاحمه على الأمرة ويسعى لخلعه
وطرده وكان لهذه الاميرة التركية اليد السوداء في تغير الامير سلطان
على ابن أخيه بعد ان كان يحبه ويقدمه على جميع شباب آل منقذ الشجعان •

والعربُ أقتل داء يهلكون به
أن تملك الحكم في أعناقها عجم

اسامة يكتب عماد الدين الكاتب :

كان عماد الدين الاصفهاني الكاتب كثير الاعجاب باسامة لا يفارقه اذا حلَّ
في الشام فاذا رحل مع الناصر صلاح الدين في اسفاره وحروبه كان يكتبه
ويواصله ويستشيره بأمر من صلاح الدين •

وفي شوال سنة ٥٧١ رحل مع السلطان الى حلب فكتب اسامة اليه هذه
الإبيات :

عماد الدين أنت لكل داع
دعائك لعونه خير العماد

تقوم لنصره كرمًا اذا ما
تقاعد ذو القرابة والوداد

فضى لك بالعلأ كرمُ السجايا
وما أوتيت من كرم الولاد

أشك وحشتي لك واشتياقي
إليك وما لقيت من البماد

واني في دمشق ومن حوته
لبعدك ذو اغتراب وانفراد

ومثلك إن تطلبه خير
بهذا الخلق ليس بمستفاد

أنار بك الزمان فلا علتسه
لفقد علاك أنواب الحداد

وكتب اليه :

يا عمادي حين لا معتمد وصدى صوتي في الخطب الملم
والذي بؤاني من زأيه في أعالي ذروة الطود الأشم
منذ فارقتك انسي نافر وسنى صبحي كليل مدلهم

وفي آخر الرسالة تحية يهديها الى صلاح الدين قال :

خادم المجلس العالي يخدم بالثناء والدعاء ويومي بالتحية من بعيد كما يومي
باصبه الغريق ، وعنده من الشوق مع قرب العهد الى شهى رؤيته ، والوحشة
لخدمته ما يعجز الاقلام شرحه ويحرق الطرس لفحه ، وهو ينحرف عن مقام
الاشتكاء الى مقام الدعاء ويرغب الى الله ان يكلاؤه بحفظه في سفره ومقامه ويجزل
حظه من فضله وانعامه :

اسامة يرسل السلطان صلاح الدين :

اذا حلَّ السلطان الناصر دمشق كان اسامة من أقرب المقربين اليه يدني
مجلسه ويؤنسه ويذاكره ويسمع لرأيه ويشاوره في أمور الحرب واذا مضى الى
الغزو كاتبه وأخبره بوقائعه وكان مشغولاً بقراءة ديوانه وتأمل أفكاره واستحسان
قصائده ولا يفارقه ديوانه والمكاتبات بينهما متداولة بقلم ابن العماد الاصفهاني ،
واسامة الذي كان يتبرم من ثقل الايام ويكره ان يدعى له بطول العمر
وكان يقول :

واذا دعوت بطول عمري لامرئ
فاعلم بانك قد دهوت عليه
صار يقول :

حمدت على طول عمري المشيبا
وإن كنت أكثر في الذنوبا

لأنني حيت الى ان لقيتُ

بعد العدو صديقاً حياً

قال العماد الكاتب وصلت من اسامة الى الملك الناصر صلاح الدين في صفر
سنة اثنتين وسبعين (يريد ٥٧٢ هـ) قصيدة فقال لي القاضي الفاضل خذها واوردها
في الخريدة والجريدة ، وهي (١) .

لا زلت يا ملك الاسلام في نعم

قَرَيْنُهَا المسعدان : النصرُ والظفرُ

تردي الاعادي وتستصفي ممالكهم

وعونُك الماضيان : السيفُ والقدرُ

أعدت للدهر أيام الشباب وقد

أظله الهرمان : الشيب والكبرُ

وجاء غيثُ نذاك المسلمين فمن

سحابه المغنيان : الدرُ والبدرُ

وسيرة عدل في الانام كما

قضى به الصادقان : الشرع والسورُ

ففق بنصرٍ على الكفار انهم

يُرديهم المرديان : الغدر والاشرُ

تناهم إذ رأوا اقبال ملكهم

اليهم المزعجان : الخوف والحذر

وما الفرار بمنجيهم وخلفهمُ

من بأسه المدركان : العمرُ والبر

وسوف يعفو غداً منهم بصارمه

وجيشه المخبران : العين والائر

(١) مما روي في الخريدة الجزء الاول ص ٥٤٥ قسم الشام .

وَلَوْ رَقَوًا فِي ثُرَى نَهْلَانِ اسْلَمَهُمْ

لسيفه العاصمان : الحِصْنُ والوزرُ

قضى بتفضيله عن تقدمه

ما استودع المُخْبِرَانِ : الكُتُبُ والسِيرُ

مكارم جُمِعَتْ فِيهِ تَوَافُقٌ فِي

تفضيلها الأكرمان : الخُبْرُ والخَبَرُ

فاسلم وعش وابق للإسلام ما

جرت الأفلاك والنيران : الشمسُ والقمر

بنجوة من صروف الدهر يقصر عن

منالها المفسدان : الخطب والغيرُ

وكتب في آخر الكتاب معذراً عن تخلفه من اللحاق بالناصر صلاح الدين
« المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد انكر الزمان فما هو الذي كان وأوهت الأيام
ما ابقته من يسير قوته ، واسترجعت ما اعارته من ضعيف نهضته ، واذاقته طعم
الاعتراب وادخلت عليه الهمَّ من كل باب ، فهو في زاوية المنزل عن كلمات
الناس فيه بمعزل :

أنا في أهل دمشق وهمُ

عدد الرمل وحيـدٌ ذو انفراد

ليس لي منهم اليـف وشجـتُ

بيننا الألفـة أسباب الوداد

يحسبونني إن رأوني وافدا

قد اتاهم من بقايا قوم عباد

وانفرادي رشـدٌ لي والهوى

أبدأ يصرف في سبيل الرشاد

وسجل له العماد : رسالة كتبها جوابا على كتاب بعث به اليه القاضي الفاضل كبير كتّاب عصره ورئيس وزراء صلاح الدين ، اتخذها العماد نموذجا لثوره بعد ان اختار له كثيراً من شعره ، وقد بدأ بتسجيل رسالة القاضي الفاضل : قال العماد : « وأردت ان اوردَ من ثثره ما يُزهرُ فجره ويهر سحره فوجدت له جواب كتاب كتبه القاضي الفاضل ابن اليسانى اليه من مصرَ عند عودته اليها ونحن بدمشق سنة احدى وسبعين واثبت اولاً الرسالة الفاضلية وهي أدبية غريبة وصنيعة بديعة ، جامعة للدرر لامعة بالغرر تجدها^(١) .

قال العماد : وجواب مؤيد الدولة قرأته عليه فسمته :

وصل الكتاب انا الفداء لفكرة

نظمت نفيس الدر فيه اسطرا

وفضضته عن جَوْنَةٍ فَتَأَرَّجَتْ

نفحاته مسكاً وفاحتْ غنبراً

وأعدتْ فيه تأملي متحيراً

كيف استحال اللفظ فيه جوهرأ

الخادم يخدم المجلس العالي الأجلى الاوحد الصدر الفاضل ، فضلهُ الله برفع درجاته في الجنان كما فضله بمعجز البلاغة والبيان ، وبلغهُ من الخيرات أمله وختم بالحسنى عمله وجمّل ببقائه نشره ويراوحه ، ودعاء لا يحجب عن الاجابة صالحه ، وثناء يضيق عن حصر فضائله منادِحه ، وما عسى ان يقول مطربه ومادحه والفضل نغبهً من بحرهِ الزاخر وقطرة من سحابه الماطر ، تفرّد به فما له فيه من نظير وسبق من تقدمه في زمانه الاخير ، فتّق من البلاغة اكماماً

(١) في الخريدة الجزء الاول ص ٥٣٨ - ٥٤١ .

تَزَيَّنَتْ الدنيا منها بالاعجاب ، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تتلى في المحارِبِ إذا استنطقت ازدحمت عليها العقول والاسماع ، ووقع على الاقرار بأعجازها الاتفاق والاجماع ، فسبحان من فضله بالبلغة على الانام ، وذلك له بديع كلام ما كأنه كلام ، تعجز عن سلوك سبيله الافهام وتحار في ادراك لطف معانيه الاوهام وهو سحرٌ لكنه حلال ، ودُرُّ الا ان بحره حلواً سلسالاً ، ولا يظن أدام الله ببقائه الزمان وأهله ويسر له اظهار مكتوم فضله ، ان الخادم يسلك سبيل التفاق في مقاله ولا اعارة شهادة في وصف كماله ، لا والله ما ذاك مذهبه ، ولا هو مراد المجلس العالي ولا أربُّه ، ولكنها شهادة ولا يحل كتبها ، وقضية جرى بقول الحق فيها حكمها ، ولولا ان الخادم قد بقي فيه اثر من اقدام الشباب لأحجم عن اصدار كتاب أورد جواب لكنه على ثقة من كريم مُساهلة المجلس العالي وحسن تجاوزه ويقين ان فضله جدير بستر نقص الخادم وسد معاوزه ، وهو يضرب ما عنده من الشوق الى كريم رؤيته والوحشية بمحجوب خِدْمته ويقتصر على ما قاله زهير :

ان تُمسي دارهم مني مُبَعَّدَةً

فما الأجرة الا هم وإن بعدوا

فأما ما أنعم به من ذكر الخادم في مطالعاته فهو كذكر موسى أخاه هرون عليهما السلام في مناجاته ولا سواء موسى من ذكر شقيقه ، والمجلس العالي ذكر رفيقه ، وهذه اليد البيضاء مضافة الى سالف أياديه مقابلة بالاعتراف بالمنّة لمساغيه ، فلقد شرفه بذكره في ذلك المقام العالي ، وإن كان لا يزال على ذكر الأنعام المتوالي تقرب رِقَّة ، واكرامه قد شرفاه وأنعامه قد أغناه عن الخلق وكفاه إن سأله أجاب سؤاله بما يحقق رجاءه وآماله ، وإن أمسك عن غنى فضله بفضله ، فأجأه بتبرع مواهبه وبذله ، فالخادم من تشریف رِقَّة ذو تاج وسرير ، ومن غزير أنعامه في روضة وغدير ، ذلك ببركات المجلس العالي ويؤمن نقيبته وجميل رأيه في الخادم وحسن نيته ، ولكن يشوب ما هو فيه من انعام لم تبلغه أمانيه ، أسفٌ قد اقضَّ لِين مهاده ، وسلك من القلب حَبَّة سواده ، على ذاهب عمره

وقوة أسرهِ اذ لم يكن أبلاها في خدمة مالك رَقَّه ، وبذل رأسه بين يديه إبانة عن صحة ولائه وصدقه ، والخادم يتسلى عما فاتَه من الخدم في المهم بخدمته بصالح دعائه في الليل المدلهم ، والله سبحانه يتقبَّلُ من الخادم فيه صالح دعائه ، وينصره على جاحدي نعمائه بمحمد وآله .

اما ما أنعم من ذكر اصغر خدمه مُرَهَفَ (١) فهو يخدم بتقبل قدمه والخادم يقول ما قاله أبو الفتيان ابن حيوس (٢) عن خدمة أبي الحسن رحمه الله لحمود ابن صالح :

على أنه لا فُلَّ غَرَبٌ لسانه

مدى الدهر لا يحتاج مني مترجما

وهو يقوم بالجواب عن شريف الاهتمام وجزيل الانعام وأما ما تطوَّلَ من ذكر كتاب « العصا » (١) وشرفه حتى توهم انه أحسن فيما صنَّفه ، وعند وصوله من ديار بكر لا يُلقِي عصا تسياره الا بمصرَ يقتص اثر عصا الكليم الى جنبه الكريم الا انه آية اقراره بالربوبية لفضله .

وأفضاله ساجد سجود الشجرة لتعظيمه واجلاله ، يتلقف من انعامه حسن التجاوز عن نقصه ويعود بكرمه عن منافئة علمه وفحصه وتشريف الخادم ولو بسطر واحد عند خلو البال والفراغ من مبهم الاشتغال يرفع من قدره ويوجده انه بالمكان المكين من حسن ذكره ورأيه أدام الله أيامه «

(١) مُرَهَفَ بن اسامة . وكان من جلساء صلاح الدين وفرسانه .

(٢) محمود بن نصر بن صالح بن مرداس صاحب حلب .

(٣) أبو الحسن يريد علي بن منقذ الملقب بسديد الملك جد اسامة .

(٤) محمد بن حيوس الغنوي أحد شعراء الشام المجيدين كان منقطعا الى

بني مرداس ولد بدمشق سنة ٣٩٤ وتوفي سنة ٤٧٣ .

(١) كتاب العصا كتاب صغير أشبه برسالة أو مقالة ألفه اسامة بن منقذ

كان القاضي الفاضل قد رأى نسخة منه فأطراه وأحب ان يتملاه فوعده اسامة ان يقدم نسخة اليه عند وصول النسخة الاصلية من ديار بكر .

وبعد : فاني لم أرَ حاجة لتسجيل رسالة القاضي الفاضل وهي تستحق ان تكتب
بماء الذهب وفيها من الادب والتوقير لاسامة ما فيه شاهد على علو منزلته ومكانته
الرفيعة لدى الكبراء والامراء والادباء وعامة الناس ، لأنه بقية من سيوف الجهاد
وصفحة من كتاب الفروسية العربية والجلاد ، وديوان أدب وقصص وذكريات
وسلالة من بيت كريم قال فيهم :

قومٌ اذا عُدَّتْ مناقبهم

كادت لهمنَّ الشمسُ تنكسف

لو حاولوا الافلاك ما قَصُرَتْ

عنها أكفُهُم ولا ضعفوا

لا عيبَ فيهم غير أنَّهمُ

في جودهم لعفتهم سَرَفُوا

أُنْني بعلمي فيهمُ وهمُ

فوقَ الثناءِ وفوقَ ما أُصِفُ

مُنْتَجَبَاتُ مِزْشَعْرِهِ

قدمت الكثير من شعره لأنني أرى سيرته وشعره متلازمين وأرى ملامح شخصيته مفتاحها شعره ، وقد استشهدت بصور كثيرة منه وفي أغراض شتى في علاقاته الرسمية وصادقاته الشخصية ، في نوازه وخلجات صدره ، في سلمه وحرابه ، في أيام عسره ويسره ، في ملله من العيش وسأمه من الحياة في شبابه وشيخوخته ومع ذلك فبقي الكثير من هذا الشعر يصلح أن ينشر مع سيرته لانه مكمل لها ، لذلك آثرت ان اختار بعض المنتخبات من ديوانه وشعره في الواقع كله منتخب وقد اصطفاه ونخله بنفسه وهو القائل عنه :

كلما رددت في شعري النظر

بان ضعف العيِّ فيه ، وظهر

ليس يرضيني ولا يمكنني

جحد ما قد شعاع منه واشتهر

فأجيل الفكر في تقليله

فاذا قلَّ اختصرت المختصر

وبه فقر الى ذي كرم

إن رأى ما فيه من عيب ستر

آثرت ان اقتبس بعض القصائد والمقطعات استكمالاً لتلك الملامح التي رسمت خطوطها العريضة واضفيت عليها الكثير من الظلال الزاهية من شعره وفي الديوان كما قلت قصائد تفيد الدارس وتفتح أمامه أفقاً واسعة للبحث والمعرفة والاستنتاج لذلك العصر الذي عاشه اسامة • ولو ان ديوانه ميسرٌ للناس لأحلت عليه الا انه قد اصبح نادراً وغير موجود الا في المكتبات العامة أو الخاصة القليلة والناس ما زالت الكثرة الكاثرة منهم لا يعرفون مراجعة المكتبات العامة •

واذن فاقباسي لشعره فيه فائدتان مزدوجتان : خدمة لسيرته وخدمة للقراء

بنشر عيونه •

قال : واصفاً وحدته وصبره :

أَصْبَحْتُ كَالنَّسْرِ خَاتَمَهُ قَوَادِمُهُ
لَا تَسْتَقِلُّ جَنَاحَاهُ إِذَا نَهَضَا
أَرْوَحُ مِنْ نَائِبَاتٍ لَا تَغِيبُ وَمِنْ
هَمُومٍ عَيْشٍ كَمَا لَا اِشْتَهَى غَرَضَا
لَكِنِّي قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ اِشْطَرَّةً
فَمَا يِرَانِي لِخَطْبِ نَابٍ مُنْقَبِضَا
الْقَى الْحَوَادِثَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَ
مَقْدُورِ الْقَضَا بِتَسْلِيمٍ لَهُ وَرَضَا
عِلْمًا بِتَغْيِيرِ أَحْوَالِ الزَّمَانِ فَكَمْ
رَأَيْتُ مُبْرَمَ أَمْرٍ عَادَ مُنْتَقِضَا

وقال في التجمل واحتمال الاحداث :

استر همومك بالتجمل واصطبر
ان الكريم على الحوادث يصبر
كالشمع يظهر نوره متجملاً
خوف السمات وفيه نار تسعر^(١)

وقال في المعنى نفسه :

الِقَ الْخَطُوبَ إِذَا عَرْضَن
بِقَلْبٍ مُحْتَسِبٍ صَبَّورٍ
فَسَيَنْقُضِي زَمَنَ الْهَمِّ
مَ كَمَا انْقَضَى زَمَنُ السَّرُورِ

(١) مما روي من شعر اسامة في المسالك ج ١ : ٥٠٨ .

وقال :

تلقَّ ذوي الحاجات بالبشر إنَّه
الى كُرِّماء الناس أشهى من الجدا
عسى من يرجئى سببك اليوم يفتني
فتصبحَ فيمن ترتجى سببه غدا

وقال :

ما كفَّ كفيَّ عن جودي بموجودي
نواذبٌ ومللمات لَحَتَّ عودي
في اليسرِ أبذل مسوري وأبذل في
عسري لطالب رفدي شطر موجودي

وقال :

نزهدت نفسي عن مَنْ الرجال وإن
علتُ بهم رتبُ الدنيا وإن شمخوا
إذا المطامع قادتني الى طمع
يزري فماذا أفادَ الشيب والشَيْخُ

وقال :

أيحسبُ دهري اني جزعت لما نال نشبي وانتهب
فقد اخلصتني أحداثه وبالنار يبدو خلاص الذهب

وقال :

لأصبرنَ لدهري صبراً مُحْتَسِبُ
حتى يرى غيرَ ما قد كان يحسبه
واستमित لما تأتي الخطوب به
ليعلم الخطب أني لست أرهبه

إن غالبتني على ووري نوائبه
فحسن صبريَ في اللأواء يغلبه

او أبعدتني عن أهلي وعن وطني
فأبعدُ الفرَجَ المرجوَّ أقربه
والدمر يهدم ما يبني ويُخمدُ ما يوري ويبعد ما يدني تقبله

وفي الفراق قال :

لا تستعِرِ جلدًا على هجرانهم
فقواك تضعف من صدود دائم
واعلم بأنك ان رجعت اليهم
طوعاً والا عدتَ عودة راغم

وقال :

شكا ألمَ الفراقِ الناسُ قلبي
ورُوِّعَ بالنوى حسي وميتُ
واما مثلَ ما ضمتُ ضلوعي
فاني ما سمعتُ ولا رأيتُ

وقال :

انظر الى حسن صبر الشمع يظهرُ
للرائين نوراً وفيه النار تستعر
كذا الكريم تراه ضاحكاً جدلاً
وقلبه بدخيل همَّ منفطر

وقال في الابهاء :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جدل
طلَّقَ "وقلبي كئيب مُكمد" باك

وراحة القلب في الشكوى ولذتها ،
لو امكنت° ، لا تساوي ذلةَ الشاكي

قال اسامة في كتاب الاعتبار :

« ولم أدر ان الكبير عام يعدي كل من أغضله الحمام ، فلما توقلت ذروة
التسعين وابلاني مرُّ الأيام والسنين صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف ،
ولصقت من الضعف بالارض ودخل من الكبير بعضي في بعض ، حتى أنكرت
نفسي وتحسرت على أمسٍ قلت في وصف حالي » :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردى (١)

وقال في اصطراع الاقوياء°

شاهدت نملاً قد تجاذب زهرة
ذا قد تملكها وهذا يسلبُ
مثل الملوك تجاذبوا الدنيا فما
حصلت لمغلوب ولا من يغلب

وقال يا آلف الهم :

يا آلف الهم لا تقنط فأياأس ما
تكون يأتيك لطف الله بالفرج
ثق بالذي يسمع النجوى ويُنجى من
البلوى ويستقذ الغرقى من اللجج

وقال :

الضُرُّ في أيماننا هذه
كالليل يغشى سائر الناس

(١) الاعتبار ص ١٦٠ - ١٦١ مرّة ذكر الابيات .

وكلهم راضٍ وفوق الرضا
يُبْلَغَةُ الطامع والكباس
ودون ما يرجونه مانع
يلقى وجوه الناس بالياس
هذه بعض المقطعات وهي في ديوانه كثيرة ومثورة في مؤلفاته ، ومنها :

قوله :

إن خانَ همدك مَنْ تَوَدُّهُ
ونأىَ فلا يحزنك فقدته
واهجره هجرك من تحب
إذا قضى وحواه لحدته
وإذا سئلت علام تهجرُ
فقل ما صحَّ عهده
وعلام أرغب في ملو لـ خائن قد بان زهده
واحذر مقالة من يقو لـ : الحب تخضع فيه أسده
إن راع قلبك هجره ففداً يلين له أشده
والصبرُ سُمٌّ نافعٌ لكنَّ منه يشار شهده
وإذا صرفت القلب فهو كأمس لا يُسطاعُ رده
غالطَ نفسك فيه والمشغوفُ يعزُّبُ عنه رشده
وظنته قصدَ ازديارك في الهوى وسواك قصده
وأنا الفداء لباخلٍ بالوعد ، والاحلامُ وعَدُّهُ
أرضيَ بباطله ويقنطني تجهمه ورده
لذن القوام يُعلِّمُ الاغصان كيف تميمس قده
يفترُّ عن عذب المقبل يُضرمُ الاحشاءَ بردهُ
لاشك لؤلؤ ثغره من عقده أو منه عقده

واختار له صاحب المسالك أبيات من القطعة التالية (المسالك ١٠ : ٥٠٢) وهي
من الرجز في الخيال العائد :

ما هاج هذا الشوقَ غيرَ الذكرِ
وزورة الطيف سرى من مصر
من بعد طول جفوة وهجير
كم خاض بحراً وفلاً كبحر
يَجوبُهُ الليلَ حليفَ ذُعرٍ
حتى أتى^(١) طلائحاً في قفر
قد انطوين من سرى وضمر
حتى اغتدين كهلال الشهر
يحملن كل ماجدٍ كالصقر
كأنه مُهنَدٌ ذو أُنرٍ
بعيد مهوى همة وذكر
للجد يسعى لا لكسب الوفر
فأمَّ رحلي دون رحل السفر
يُذَكِرُنِي طيب الزمان النضر
واهاً له من زمن وعمر
ما كان الا غرة في الدهر
اذ الصَّبَا عند التصابي عذري
وغاية المنيّة أمْ عَمُرُو
غراء أبهى من ليال البدر
بعيدة القرط هضيم الخصر

(١) طلائح جمع طليح وهو المهزول .

أحسن من شمس بغب قَطَر
تَلبُ بالالباب لِبِ الخمر
تسبم عن مثل نظم الدر
كأنه لآلئ في نحر
إذا اثنت قبل نوم الفجر
تنفست عن مثل ربا الزهر
كأن فاما جونة (١) لعطر
وإن مشت مثقلة بالبهر (٢)
مشي النسيم بيماء الدر
رأيت سحراً أو شيه سحر
راكد ليل تحت شمس تسري
ضدان فيما اتفقا لأمر
يا لائمي ان الملام يُغري
هيجت أشواقي ولست تدري
لا بك ما بي من جوى وفكر
إذا أراح الليل همَّ صدري
أبيت أرعى كل نجم يسري
كأنما حشيتي من جمر
كيف الغزاء وصروف الدهر
تقرف قرحي وتميض كسري (٣)
كأنهما تطلبنسي بوتر
والصبر لو خبرته كالصبر ،

(١) الجونة السفط . (٢) البهر التعب وانقطاع النفس من الاعياء .
(٣) تقرف تنكأ وتفرع .

وقال من قصيدة كتبها الى الملك الصالح قدمها بهذه الايات الغزلية :

ما خَطَرَ السلوانُ في بالي
فما الذي أَطْمَعَ عُدالي
وجدني بهم في اليوم كالأمس ما
غَيَّرَهُ ما حال من حالي
أهوى وما حظي منهم كما
أهوى ولا قلبي بالسَّالِ
لجاجة في الحب ما تحتها
سوى صباياتي ولبسالي
لي القلى منهم ومن لائمي
فيهم طويل القيل والقيل
وما ابالي بالذي نالني
لو انثني منهم على بال
يا قمرأ في غصن بانِ على
نقا مهولٍ غير مُنهال (١)
مَيْلَكَ الواشي فما حيلتي
في أهيف القامة مَيْال
مُسْتَهْتَرٍ بالهجر القاه في الا
حلام وهو المعرض القالي
ناظره الفتاك لا ناظر
عبي تعديه ولا والسي

(١) النقا من الرمل :: الكثيب أو القطعة تنساب محدودة .

يحكم في أرواحنا طرفه

حكم أبي الغارات في المال (١)

وقال والشئ اذا زاد تنهى :

قل لمن أوحش بالهجر جفوني من كراها
والذي أوهم عيني ان في النوم قذاها
يا مملولاً فلما استرعى عهداً فرعاها
يا ظلوماً كلما استعطفته صدّ وناها
زدت في تيهك والشئ اذا زاد تنهى
تتقضي دولة الحسن وإن طال مداها
راحتي لو سمع الشكوى اليه ووعاها
غير ان الصُّمَّ لا تسمع نجوى من دعاها
وهو لو نادى عظامي رمةً لبني صداها
مُتلفٌ بالهجر نفسي واليه مشتكاها
مُستقلٌ كل ما تلقاهُ فيه من أذاها

وقال سر المحب علانية :

ياسائلي عمّاً بيه سرُّ المحب علانية
انظر الى جسدي لتخ برك العظام العارية
من مهجة بالهجر قد تَلَفَتْ وعين جارية
وصباية لا استطير معْ أبُّها هي ماهيه
ولمن الوم ، وانما عيني عليّ الجانيه

(١) أبو الغارات يريد به ابن رُزَيْك .

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا
 فليتهم حكموا فينا بما علموا
 ما مرَّ يوماً بفكري ما يُرِيهمُ
 ولا سعت بي الى ما ساءهم قدمُ
 ولا اضعت لهم عهداً ولا اطلعتُ
 على ودائعهم في صدري التهمُ
 فليت شعري بما استوجبتُ هجرهم
 ملثوا ، فصددهم من وصلي السامُ
 حفظتُ ما ضيَّعوا ، أغضيتُ حين جنوا
 وفيتُ إذ غدروا واصلت إذ صرموا
 محاسني منذ ملوني بأعينهم
 قذيتُ ، وذكري في آذانهم صمُ
 وبعدُ ، لو قيل لي : ماذا تحبُ وما
 منك من زينة الدنيا ؟ لقلتُ همُ
 همُ مجالُ الكرى من مُقلتي ، ومن
 قلبي محلُّ المنى جاروا أو اجترموا
 تبدلوا بي ، ولا ابغي بهم بدلا
 حسبي همُ انصفوا في الحكم أو ظلموا (٢)

وقال (٣) : وفيها يتحدث عن وفائه لأحبته وصبره على النكبات التي لم تفل
 من عزمه ولم تضعف من بأسه ، فكم نكبة ظن العدا انها القاضية فاذا بها تسمو
 به وتعلي بين البرية شأنه ، فما هو ممن يستكين لحوادث الدهر ولا يملأ الهول

(١) وقد رويت القصيدة في الخريدة ج ١ : ١٠٧ ، ومعجم البلدان ٥ : ١٠
 والروضتين ١ : ١١٣ .

(٢) تمام القصيدة ص ١٤٦ من الديوان وقدمنا قسماً منها في أسباب
 هجرته الى مصر .

(٣) رويت هذه القصيدة في تاريخ دمشق لابن عساكر ٥ : ١٧٤ .

المخوف جناحه ، والدهر وإن غال وفره وما جمع من مال الا انه لم يغفل ذكره ولم
يخمل صيته وقد شاع بين الناس كرمه والثناء عليه :

اليكِ فما تثنى شؤنك شأني

ولا تملك العينُ الحسان عياني

ولا تجزعي من بغة البين واصبري

لعلَّ التثائي مُعقِب لتداني

ولا تحملي همَّ اغترابي فلم أزل

غريب وفاءٍ في الورى وبيان

وفياً ، اذا ما خان جفنٌ لناظرٍ

ولم ترع كفٌ صحبةً لبسان

فلاؤسدٍ غيلٌ حيثُ حلَّتْ وانما

يهاب التثائي قلبُ كل جبان

ولا تسأليني عن زماني ، فأنتي

أنزِه عن شكوى الخطوب لساني

ولكن سلي عني الزمان ، فانه

يُحدث عن صبري على الحدان

رمتي الليالي بالخطوب جهالةً

بصبري على ما ناباني وعراني

فما أوهنت عظمي الرزايا ، ولا لها

بحسن اصطباري في الملمِ يدان

وكم نكبة ظن العدا انها الردى

سمتُ بي ، وأعلتُ في البرية شاني

وما انا ممن يستكين لحبادث
 ولا يملأ الهولُ المخوف جناني
 وإن كان دهرى غال وفري فلم يغل (١)
 ثنائي ولا ذكري بكل مكانٍ
 وما كان الا للنوال وللقري
 وغوثاً للمهوف وفدية عان (٢)
 حمدت على حالي يسارٍ وعسرةٍ
 وبرزتُ في يومي ندى وطعبان
 ولم أدخر للدهر، إن نابَ أو نبا (٣)
 وللخطب الا صارمي وسناني
 لأنَّ جميلَ الذكر يبقى لأهله
 وكل الذي فوق البسيطة فانٍ
 وفي هذا المعنى - قال :

كم تَغْضُ الأيام منِّي وتأبى
 همتي ان تال مني منهاها
 أنا في كفِّها كجذوة نار
 كلما نكَّستُ تعالى سناها

وقال : كتم الجوى :

كتم الجوى القلبُ القريح فأذاعه الدمع الفضوح
 إنَّ الدموع لها لسانٌ بالاسىء لسنٍ فصيحُ

(١) يغل من غال اذا اتلف وعدم .

(٢) عان : العاني الاسير .

(٣) ناب بدل ، ونبا عشر .

وإذا الدموع نزحْنَ فالزفراتُ بالشكوى تبوح
 أحياناً ، كم ذا يُشْتَتُ شَمَلنا البين الطروح (١)
 وكم التفرق ؟ آنَ آنُ تدنو الديارُ وأن تروحوا
 ماذا يجنُّ من الحنين اليكم القلب القريح
 أنا بعدكم كالورق في أغصانها أبدأ تنوح
 لكنها غاضت مدامعها ولي دمع سفوح
 مزجته بالدمّ مقلّةٌ اسانها أرقُ جريح
 يالائي فيهم سهرتُ ونام عن ليلى الصبح (٢)
 يلحى المروع بالنوى وهو الخلي المستريح
 يالي من الحشرات كم تغدو عليّ وكم تروح
 لم يبق من ليدتي وأتراب الصبّا خلّ نصوح
 غالتهم الدنيا وصدّع شملهم زمن نطوح
 أنا بعدهم ميت ولي من جسمي البالي ضريح
 فيه ذمّا روح مئنتها غبوقٌ أو صبوح (٣)
 ولقلما تبقى ، وكم تبقى مع التعذيب روحُ
 أفلا لقاء يذهب الحشرات أو موت مُريحُ

وقال عليك بالصبر :

عليك بالصبر يا قلبي وإن خفيت
 سيّله عنك فاسأل عنه من فقدا
 فلن ترى واجداً في الناس فارق من
 يهوى فأجدى عليه ان قضى كمدا
 بالامس راعك بين ما احتسبت به
 عسى اللقاء الذي لم تحتسبه غدا

(١) طرحه : رماه وأبعده . (٢) في هامش الديوان (ياناصحي) .
 (٣) الذماء ، بقية النفس .

هبّ ان مصرَ جنانُ الخلد ما اشتهت
تهت النفوسُ فيها من اللذات موجود
ماذا انتفاعي اذا كانت زخارفها
موجودة ، وحبيبُ النفس مفقود
وما الحياة لمن باتت احبته
رضا ولا هو في الاحياء معدود

قال ابن الاثير (في هذه السنة (١)

جمع نور الدين محمود زنكي بن أفسنفر صاحب الشام العساكر في حلب وسار الى قلعة « حارم » وهي للأفرنج غربي حلب فحاصرها وجدّ في قتالها فامتنت عليه بحصانته وكثرة من بها من فرسان الأفرنج ورجالهم وشجعانهم الخ . وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ الكناني وكان من الشجاعة في الغاية فلما عاد الى حلب دخل الى مسجدها وكان قد دخله في العام الماضي سائراً الى الحج فكتب على حائطه :

لك الحمد يا مولاي كم لك منة
عليّ وفضل لا يحيط به شكري

نزلت بهذا المسجد العام قافلاً
من الغزو موفور النصيب من الاجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأديتُ مفروضي واسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشيبية عن ظهري (٢)

(١) يريد سنة ٥٥٧ الكامل ج ١١ - ١٢٥ .

(٢) فيكون حجه قد وقع سنة ٥٥٦ وهو ينص على ان حجه كان في ٥٥٥ هـ .

وقال ببغداد وهو متوجه الى مكة سنة ٥٥٥ هـ ولم يرها من قبل :

وصفوا لي ببغداد حيناً ، فلما
جئتها ، جئت أحسن البلدان

منظر "مُبهِج" وقوم سَراة
قد تحلوا بالحسن والاحسان

ليس فيهم عيبٌ سوى ان في كل بنان علاقة الميزان
وسمنا وما رأينا سوى أمّ ظلوم فيها من النسوان
وهي جنيةٌ كأقبح ما شوّههُ ربنا من الفيلان

ان فيها من الصبايا شمساً
في غصونٍ تهتز في كيسان

شغلنا السبعون والحجّ عنهن فقلنا بالسمع دون العيان

وقال في الحنين الى أهله وأصدقائه والقصيدة من أوائل شعره بعد نزوحه
من شيزر وتعد من غرر الشعر تصلح للفناء :

يا ناقُ شَطَّتْ دارهم فَحَنِّي
وأعطني الوجودَ الذي تُجَنِّي

ما أرزمتُ (١) وهنأ لفقدها
الأرمتُ جوارحي بيوهن

تذكّرت ألفتها فهيجتُ
لاعج شوقي وذكّرت خدني

أبكي اشتياقاً ، وتحنُّ وحشةً
فقد شجاني حزنها وحزني

(١) أرزمت الناقة حنت على ولدها .

حسبك قد طال الحنين والأسى
 وما أرى طول الحنين يُغني
 ولا تملي من مسيرٍ وسرى
 في مهمه سهلٍ ووعرٍ حزن
 حتى تُناخي تحت بانات الحمى
 سقى الحمى والبان صوب المزن
 أهوى الحمى وأهله وبانه
 وإن نأيت ، وتساءوا عني
 شطوا وشطت بي داري عنهم
 وهم إلى قلبي أدنى مني
 لم يذكروا لي قط إلا امتلأت
 بلدمع اجفاني ، وقالت قطني
 وهم اعزُّ إن نأوا وإن دنوا
 مما حوى خلمي (١) ، وضمَّ جفني
 نفسي فداءً من أورَي بالحمى
 والبان عن اسمائهم وأكني
 هم إذا قلت سقى أرض الحمى
 وبانه صوب الحيا من أعني
 ضناً بهم عن ان يطور ذكرهم (٢)
 بسمع وهم مكان الضن
 أحبتهم من قبل ينجاب دجى
 فودي عن الصبح ويذوي غصني

(١) الخلب : لِحَيْمَةٌ رقيقة تصل بين الاضلاع .

(٢) طار يطور حام ودنا .

حباً جرى مجرى الحياة من دمي
 أصمُّ عن كل نصيحٍ أذني
 فلو تعوضتُ بهم عصر الصبَا
 لبان في صَفْقَةٍ بيغي غبني
 فارقتهم اشغب ما كنت بهم
 وعدتُ قد ادمتُ بناني سني
 ألزِم كَفِيَّ فؤاداً ماله
 من بعدهم رَوْحٌ سوى التمني
 لكنني أدعو اِجْمَع شَمِلَنَا
 مَسِيرَ الشُّهْبِ وَمُجْرِي السُّفْنِ

وقال في الحنين والشوق (١) :

أعلمتَ ما فعلتَ به أجزائه
 سحَّتْ فباحَت بالهوى أشجانه
 نمت على حسراته زَفَراته
 وكذا ينم على الضرام دخانه
 وأخو الهوى مثل الكتاب : دليل ذا
 ك عيانه ودليل ذا عنوانه
 تحكي البروق فؤاده فصرامها
 أشواقه وخفوقها خفقانه
 ضمن الهوى الا يزال أخا ضنيَّ
 وضمانه (٢) فوفى بذاك ضمانه

(١) اختار صاحب المسالك لاسامة من هذه القصيدة بعض أبياتها .

(٢) الضمانة ، المرض ، ضمن تعهد .

يا مدعي السلوان عن أجابه
أين السُّلُوْ وأين منك أوانه

شَطَطَتْ ديارك عنهم وهفا بك الشو
ق المبرح والتَّطَّتْ نيرانه

وأبانَ بينمُ هواك فما عسى
بك فاعلٌ هذا الهوى وبيانه

كاتمتَ واشيكَ الهوى قبل النوى
فدا له من بعدها كتمانه

وعصاك دمعك عندَ خطرة ذكرهم
وبقدر طاعتك الهوى عصيانه

فاذا تبادر من جفونك خلته
عقدًا وهيَ مرجأته وجُمانه

لو أيقن الحقن الحسود عليهم
حظي لحالت رحمة أضغانه

بين المحب وبينهم من هجرهم
بين طويل برحُه وزمانه

ابدوا له ملل القريب مع النوى
وتناسيَ النائبي ، وهم جيرانه

وتخلَّق الطيف الطروق بخلقتهم
فاذا ألمَّ يروغني هجرانه

وهم الصَّبا : أيامه مجبوبة
وإن اعتدى في غيِّه شيطانه

وَجَمَّالِهِمْ كَفَّارَةٌ لِلْمَلَأِهِمْ
 وَالهِجْرَ ذَنْبٌ يَرْتَجِي غَفْرَانَهُ
 أَوْ يَعْلَمُونَ مَكَانَهُمْ مَا أَضْرَمُوا
 قَلْبِي بِهِجْرَهُمْ وَهُمْ سَكَانَهُ
 وَلِجَهْلِهِمْ طَرَفُوا بِطُولِ صَدُودِهِمْ
 وَمَلَأَ لَهُمْ طَرْفِي وَهُمْ أَسَانَهُ

قال رحمه الله -

مَا يُرِيدُ الشَّوْقُ مِنْ قَلْبٍ مُعْنَى
 ذَكَرَ الْأَلْفَ وَالْوَصْلَ فَحَنَّا
 حَسْبُهُ مَا عِنْدَهُ ، مِنْ شَوْقِهِ
 وَكَفَّاهُ مَنْ جَوَّاهُ مَا أُجِنَّا
 كُلَّمَا شَاهَدَ شَمَلًا جَامِعًا
 طَارَ شَوْقًا وَهَفَا وَجَدًّا ، وَأَنَا
 عَاضَهُ الدَّهْرُ مِنَ الْقَرْبِ نَوَى
 وَمِنَ الْغَيْبَةِ بِالْأَجَابِ حُزْنَا
 فَرْنِي مِنْ رَحْمَةِ عَازِلِهِ
 وَرَأَى الْحَاسِدُ فِيهِ مَا تَمَنَّى
 وَيَحَهُ مِنْ زَفْرَةٍ تَعَادُهُ
 وَهَمُومٍ جَمَّةٍ تُطْرَقُ وَهَنَّا
 بِأَزْمَانِ الْقَرْبِ سَقِيَا لَكَ مِنْ
 زَمَنِ لَوْ كَانَ قَرْبُ الدَّارِ اغْنَى
 لَمْ تَكُنِ إِلَّا كَطِيلِ زَائِلِ
 وَالْمَسْرَاتِ تَلَاثِي ، ثُمَّ تَفَنَّى

ساءنا ما سرتنا من عشنا
بعد ما راق لنا مرأى ومجنى

فافترقنا بعد ما كنا صدى
إن دعونا ، وكفاناً قول : كنا

وكذا الأيام : من عاداتها
أنها تقلب سهل العيش حزننا

خلق للدمر ما أولى إمرء
نعمة منه فملاه وهنا

وكذا الباخل ، ما أسدى يدا
قط الأكدّر المنّ ومنّا

قل لأجباب نأت دارهم
وعلى قريهم أقرع سينا

ساء ظني باصطباري بعدكم
ولقد كنت به أحسن ظناً

لا صفا لي العيش من بعدكم
ما تَمَادت مدة البين وعشنا

وعجيب والتائي دُونكم
أنكم مني الى قلبي أدنى

حيث كنتم ففؤادي داركم
وعلى أشباحكم أغمض جفننا

وقال :

لا تقربن° باب سلطان وإن ملأت°
هباته غير مأمون بها الطرُقًا

فإن أبوابهم كالبحر راكبه
مُرَوَّعٌ القلب يخشى دَهْرَهُ الفرقا

وقال واذا قضاء الله أخرنى :

لم تترك السبعون في اقبالها
مني سوى ما لا عليه موعول

حتى اذا ما عامها عني انقضى
ووطئت في العام الذي يستقبل

حطمت قواي وأوهنت من نهضتي
وكذا بمن طلب السلامة تفعل

كم قد شهدت من الحروب فليتي
في بعضها من قبل ذلك اقل

والقتل أحسن بالفتى من قبل ان
يبلى ويفنيه الزمان وأجمل

وأبيك ما احجمت من خوض الردى
في الحرب يشهد لي بذاك المتصل

واذا قضاء الله أخرنى الى
أجلي الموقت لي فماذا افعل

وكتب على حائط مسجد بظاهر مَنبِج وهو متوجه الى الحجاز وذلك سنة
٥٥٥ هجرية متخذاً طريقه الى بغداد ليرافق أمير الحاج فقال :

نزلنا به حتى اذا يومنا انقضى

رحلنا على العيسِ النجائب والجرد

نؤم بها البيت العتيق ونبغي
من النار عتقاً جاء في سابق الوعد
فيا من قصداً بيته ونيته
بك العون يا مولاي من خيبة القصد

رثاء أهله الهالكين :

وقف اسامة على أطلال وطنه وربوع أهله وهي أول أرض مس جلده تراها ،
فلم يعرف بيته ولا بيوت أبيه وأعمامه بعد تلك الزلزلة العظمى التي أتت على
شيزر وقضت على بني منقذ فأنشأ يبكيهم ويندبهم بهذه القصيدة المعبرة عن حزنه
والمعربة عن حدة الحسرة التي تعالج بين جوانحه وتفصح عن عظيم حبه لبني
عشيرته والوفاء لبني عمومته •

والقصيدة وحدة متماسكة تعين الناقد على الموازنة لشعر اسامة وغيره من
شعراء عصره ، والحكم على شاعريته التي أحلتها منزلة الزعامة بين شعراء زمانه
وقد فضله نقاد كثيرون وعدّه آخرون من فحول الشعراء ، قال :

حيّاً ربوعك من ربيّ ومنازل
ساري الغمام بكل هام هامل
وسقتك يا دار الهوى بعد النوى
وظفء تسفح بالهتون الهاطل
حتى تُروض كل ماحٍ ماحلٍ
عافٍ وتُروي كل ذاوٍ ذابل
أبكيك ، أمّ أبكي زمني فيك أمّ
أهلك أمّ شرح الشباب الراحل
ما قدر دمعي أن يُقسّمه الأسى
والوجدُ بين أحبةٍ ومنازل

أَنْفَقْتُهُ سَرَفًا وَهَذَا أَنَا مَائِلٌ
فِي مَاحِلٍ أَبْكِي بِجَفْنٍ مَاحِلٌ
وَإِذَا فَرَعْتُ إِلَى الْعِزَاءِ دَعَوْتُ مَنْ
لَا يَسْتَجِيبُ وَرُمْتُ نَصْرَةَ خَاذِلٍ
أَيْنَ الطَّبِيَاءِ عَهْدْتُهُنَّ كَوَانِسًا
بِكَ فِي ظِلَالِ السَّمْهَرِيِّ الذَّابِلِ
مِنْ كُلِّ مَكْرُوهِ اللَّقَاءِ مُنَازِلٍ
رَحِبِ الْفِنَاءِ لِطَارِقٍ أَوْ نَازِلٍ
مُسْتَمْتَعٍ صَعْبٍ عَلَى أَعْدَائِهِ
سَهْلِ الْمَقَادَةِ لِلخَلِيلِ الْوَاصِلِ
عَزَّوَا عَلَى الدُّنْيَا وَخَالَفَ فِعْلُهُمْ
أَفْعَالَهَا فَبَغَتْهُمْ بِنَوَائِلِ
حَتَّى إِذَا اغْتَالَتْهُمْ بِخَطُوبِهَا
وَرَمَتْهُمْ بِحَوَادِثٍ وَزَلَازِلِ
دَرَسَتْ مَنَازِلَهُمْ وَأَوْحَشَتْ مِنْهُمْ
مَأْنُوسَ أَنْدِيَةِ وَعِزَّةَ مَعَاقِلِ
وَاهَا لَهُمْ مِنْ عَالِمٍ وَمَعَالِمِ
وَمُمَنَّعَاتِ عَقَائِلِ وَمَعَاقِلِ
كَانُوا شَجِيًّا فِي صَدْرِ كُلِّ مَعَانِدِ
وَقَدَى يَجُولُ بَعَيْنُ كُلِّ مُحَاوِلِ
غَوْنًا لِلْمُهُوفِ ، وَمَلْجَأٍ لِاجْتِيءِ
وَجَوَارِ رَبِّ جَرَائِرِ وَطَوَائِلِ

ذهبوا ذهب الأمس ما من مُخِيرٍ
عنهم وزالوا كالظلال الزائل

وبقيت بعدهم حليف كآبة
مستورة بتجمل وتجمال

سعدوا براحتهم وها أنا بعدهم
في شقوة تُضني وهمَّ داخل

فاعجب لشقوة متعب بمقامه
من بعد اسرته وراحة راحل

دع ذا فأنت على الحوادث مروءة
تلقي الرزايا علماً كالجاهل

واصبر فما فيما أصابك وصمة
كل الورى غرض لسهم النابل

وله في البكاء على أهله ووطنه بعد تلك النكبة قصائد باكية بليغة وأشهرها قصيدته النونية التي قالها حين ترشحت إليه أخبار النكبة وكان يومئذ مع نور الدين محمود ٥٥٢ - وقد قدمت منها أكثرها في بحثي لتلك الزلازل التي اجتاحت البلاد الشامية ومحت أكثر معالمها وكشفتها للعدو لولا الجهود الجبارة التي قام بها الملك العادل نور الدين زنكي فقد أسرع بعمران جميع الاسوار واعادة الحصون والقلاع كما كانت ولا سيما التي على الثغور وأختم هذه المختارات من شعر اسامة بلون جديد أقدم منه نموذجاً سماه المسمط : وهو نوع من النظم شاع استعماله في العصور الاخيرة وذلك ان ينظم الشاعر ثلاثه اشطر ثم يأتي بالبيت من القصيدة التي يرغب الشاعر في تسميتها ، وتجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الابيات التي من القصيدة المختارة وهي الاصل :

القصيدة لقيس بن ذريح العذري وهو من كنانة أي من القبيلة التي منها بنو منقذ : ومطلعها :

سقى طللَ الدار التي أنتم بها
حنّاتِم' (١) وبلِ صَيْفٍ وربع'

التسميط :

كعهدك بانات الحمى فوق كتبها
ودار الهوى تحمي العدا سرح سر بها
أقول وسمر الخطّ حجبٌ لحجبها
سقى طللَ الدار التي أنتم بها حنّاتِم وبلِ صَيْفٍ وربع
بدارك ما بي من بلى الشموق والهوى
وبي ما بها من وحشة البين والهوى
سأروي نراها من دموعي إن ارتوى
وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى بلينَ بلى لم تلهنّ ربوع
وما الجور عن نهج السلو أعاجني
على ذي أنافٍ كالحمام الدواجن (٢)
ولكن وفاءٌ وردهُ غير آجن
ولولم يهجنني الظاعنون لهاجني حنّاتِم ورُق في الديار وقوع
هواتِفٌ يذكِرُنَ الشجى أخوا الجوى
زمان التداني قبل رائحة النوى
وطيب لياليه الحميدة باللوى
نداعين فاستبكين من كان ذا هوى نواتجٌ لم تذرْف لهن دموع
إذا ما نسيم هبَّ من جانب الهوى

(١) الحنّاتِم السحائب السود .

(٢) اناف : جمع أنفية وهي الحجر يوضع عليه القدم .

(٣) الاجن الماء المتغير .

أقول وأشبواقي تزيد تضرما
عسى وطنٌ يدنو بهم ولعلما
وان انهمالُ الدمع يليل كلما ذكرتكِ وحدي خالياً لسريع
ولو عاد يوم منك يليل قد خلا
بعمري أو شرح الشبية ما غلا
وقد عزفت نفسي عن الهجر والقلبا
وسوف أسلّي النفس عنك كما سلا عن البلد النائي المخوف نزيح^(١)
أيرجو لي اللاحي من الحب مخلصاً
وقلبي اذا ما روضته بالأسى عسى
ولو ان ما بي بالحصى فليق الحصى
الى الله أشكونية شقت العصا هي اليوم شتى وهي أمس جميع
أطاعت بنا ليلى افتراء التكذب
وصدّ التجني غير صدّ التعب
فيالك من دهر كثير القلب
مضى زمن والناس يستشفعون بي فهل لي الى ليلى الغداة شفيع
الانفة من برد انيابها العلى^(٢)
وردّ زمان كالأهله يجتلى
فقولا لها جادتك واهية الكلى^(٣)
اراجعة يليل أيا منا الاولى بذى الرمث أم لاء، مالهن رجوع
أعاذتسي مالي هديت ومالك

(١) النزيع الغريب كالنازع .

(٢) النفة الجرعة .

(٣) كلية السحاب أسفله .

لقد ساءني اني خطرت ببالك
ذريني ، فلوومي ضلّة من ضلالك
لعمرك ، اني يوم جرعاء مالك لعاصٍ لأمر العاذلاتِ مُضَيِّعٍ
أعدّ ذكرها ، أحبّ اليّ بذكرها
ودع ذنبها في حالي وفائي وغدرها
اذا أمرتني العاذلات بهجرها هفت كبدٍ عما يقلن صديع
يزيد هوى ليلى رضاها وعتبها
وبعد نواها إن تئات وقربها
ولم ينهي صدق اللواحي وكذبها
وكيف أطيع العاذلاتِ ، وحبّها يؤرقني والعاذلاتِ هجوع

الغائمه

عجم اسامة الحياة وذاق حلوها ومرها ونعم بنعيمها وصبر على بأسائها ،
وخاض الحروب وانتصر في مواقع وهزم في مواقع ، وقاد الجيوش وغزا بهم
الافرنج وحارب في شيزر وافامية وكفرطاب مع عمه وتحت قيادة أبيه ، وحارب
تحت قيادة الامراء عماد الدين ومعين الدين ونور الدين ، وأعان صلاح الدين
بمشورته يوم علت به السن ولم يقوَ على الحرب ، فاكسب صفات أصيلة يرى
ضرورة توفرها بالقائد والجندي ويوجيها فيمن ندب نفسه للجهاد ، ويراهم قوام
الظفر ومن أسباب النصر ، ومن أولى هذه الصفات الثقة بالنفس ، فاسامة شديد
الثقة بنفسه كبير الاعتزاز بشجاعته كثير التحدث عن مواقفه في ميادين القتال :

فسلّ كماء الوغى عني لتعلم كم

كربٍ كسفتُ وكم ضيقٍ قد انفسحا

أخوضها ، كشهاب القذف مبتسماً

طلقَ المُحَيَا ووجه الموت قد كلحا

وثاني هذه الصفات الصبر فاسامة شديد الاعتزاز بصبره وثباته افتخر بصبره
على المكاره ووقوفه في ميادين القتال بعزيمة أمضى من السيوف ولطالما أقدم اقدام
الحتوف على الحتوف وما اكتسب منزلته المرموقة المحسد عليها الا لانه يرخص
نفسه في القتال ويهينها يوم الوغى ، ولم يتغلب على لأواء الحرب ويتنصر على
أعدائه الا بالصبر والثبات :

إذا ما عرا خطب من الدهر فاصطبر

فان الليالي بالخطوب حواملُ

فكل الذي يأتي به الدهر زائل

سريعاً فلا تجزع لما هو زائلُ

الطريق المحفوف بالمكدره ولكنه السبيل المأمون لنيل الآمال والظفر بالامان :
الطريق المحفوف بالمكاره ولكنه السبيل المأمون لنيل الآمال والظفر باماني
اصبرْ تَلْ ما ترتجيه ، وتفضلْ مَنْ

جاراك شأوا العلاء سبباً وتبريزا

والصفة الثالثة التفاؤل بالنصر وبالحياء ، فإسامة كثير التفاؤل لا تراه عابساً
ولا متشائماً في أحلك المواقف ونظرته للحياة انها : مرة لك وتارة عليك اكتسب هذه
النظرة للحياة بعد التجارب الطويلة حصيلة الحياة المريرة التي زاولها في أسفاره
وغاراته ومطاردته للموحوش ومعاناته لصحبة اقوام لا يعرف رطاناتهم ومن الصعب
احتمال طباعهم الغليظة ، خرج من هذه المعانات والتجارب رجلاً متفائلاً لا يرى
الشر ضربة لازب ، واثقاً ان الشدائد تزول فلا داعي لليأس وليس من الرجولة
القنوط والغم :

يا آلفَ الهم لا تقنطْ ، فأيأس ما

تكون ، يأتيك لطفُ الله بالفرج ،

والصفة الرابعة حضور الذهن عند الملمات فهو حاضر الذهن على استعداد
دائم للحرب يدرك ما يفعل ويعقل ما يقرر لا يترك لليأس أو الخوف سبيلاً الى
نفسه وقد رأينا كيف كان عمه يمتحن حضور ذهنه في الخطوب والحروب •
فاذا دعا داعي الوغى لباه وهو على أهبة حسنة واستعداد وقلب شجاع :

وكنت إن ثوبَ داعي الوغى

لبيته بالطعن والضرب

أشق بالسيف دجى نفعها

شق الدياجي مرسل الشهب

انازل الاقيران يرديهم

من قبل ضربي هامهم رعي

والصفة الرابعة : رباطة الجأش ، واسامة يلقي رزايا الحرب رباط الجأش
مجتمع اللب ما خانته عزمه ولا ندَّ عنه صبره ولا يغلبه الروع ولا يرتاع
قلبه لكثرة :

القي الرزايا رباط الجأش في

احداثها مجتمع اللب

ما خانني عزمي ولا غرني

صبري ولا ارتاع لها قلبي

واسامة كثير الفخر بنفسه وبقومه وبني عشيرته كتب شعاره على طوق
خودته :

أنا تاج فرسان الهياج ومن بهم

ثَبَّتَتْ أُوَاحِي مَلِكِ كُلِّ مَتَوَجِي (١)

قوم اذا لبسوا الحديد عجت من

بحر تدافع من لظي متوهج

صبر اذا ما ضاق معترك القنا

فَرَجَّتْ سِيُوفِهِمْ مَضِيقَ الْمُنْهَجِ

واذا رجوتهم لنصر صدقوا

بعظيم بأسهم رجاء المرتجي

والاباء والشمم والاعتزاز بالمواهب من أخلاق اسامة التي لم تفارقه قط لا في
حالي رضاه أو سخطه ولا في حالي غناه أو بؤسه فلم يره اعداؤه الا صلباً قوي
الشكيمة لا يضرع لنكبة :

(١) الهياج بالكسر القتال ، واواخي جمع اخية بالتشديد وتخفف ، وهي
عود في حائط أو حبل يدفق في الارض وبرز طرفه تشد فيه الدابة .

متى رأني الشامتون ضرعاً
لنكبةٍ تعرفني عرق المدى
هم يعلمون أنني أصلب من
صمّ الصفا ، فما عدا مما بدا

والكرم صفة ملازمة له ورثها عن آبائه لا يرد سائلاً فإذا أعسر نشاطه
مسترفدي نداء ما يملك يتصدق بفك أسرى المسلمين كلما واتته الفرصة فكان
ماله مباحاً للنوال :

إن أجمعوا المال فأوعوا أتلفت
يدي طريف ما حوت والتبلدا
هم يرون المال ذخراً بقياً
وانما ذخر الفتى ان يُحمدا
وله عزيمة صارمة لا ينال منها خطب مهما بلغ :

وعندي على ما راب من حدائقها
صريمة عزم ما لما عقلتُ نشط
تهوّنُ عندي الخطبَ ، والخطبُ هائل
وتقبض عني كفه ولها البسط
وشجاعته وصبره الفآن ما افترقا فلا يطمع الدهر ان يذله ولن تراه ضرعاً
لأهواله •

قلبي وصبري الفيان مذ خلقا
تقاسما صادقين : لا افترقا
ما يطمع الدهر ان أذلّ ولا
تملاً قلبي أهواله فرقاً

أخسو ضلوعي في كل نائبة
على فؤاد لا يعرف القلقا
لا يزدنيه خوف الحمام ولا
عهدته في ملمة خفقا

ينعى اسامة على حساده والشائنين الذين يرمونه بالجهل في الحروب لاقدامه
وهجومه وسط الاعداء ، وجوابه لهم ان الفرار عن ورد المنية لا ينجيه عن ووردها
إن حَمَّ القضاء وهو شديد الايمان بالقضاء والقدر فليس له منجى عنها ولا مهربا
وهو ان خاض الحروب وجال وصال في حوماتها فلأته لا يرى من الموت موثلا
ولن ينجيه الا رباطة الجأش والاقدام واذا نازل كبش كتيبة فليس يبالي أيهما
مات أولا كما يقول :

ينجھلُ في الأقدام رأبي معاشر
أراهم اذا فروا من الموت أجهلا
أيرجو الفتى عند انقضاء حياته
وإن فرَّ عن ورد المنية مزحلا (١)

واسامة ثبت العزائم اذا هال وقع الظبا في الجمائم :

اذا ضاق بالخطي معترك الوغى
وهال الردى وقع الظبا في الجمائم
سلّ الموت غني فهو يشهد اني
على خوضه في الحرب ثبت المعزائم

ومن صفات الجندي المحارب ان يكون صبورا ثابت العزائم لا يتسرب
الخوف الى قلبه ولا يداخله الرعب اما الهزيمة فلا تخطر على باله ولا يعبأ بأمر

(١) مزحلا : زوالا ، دفعا .

مشكل لا يستكين لحادثٍ من نكبةٍ ويجعل من النكسة حافزاً للنصر يلقى الخطوب
بقلب شجاع وعقل واع اذا دجت أهوانها لاقاها بالبسالة والصبر واعدَّ العدة
لجولة ثانية :

لا يستكين لحادثٍ من نكبةٍ
طرقت ولا يعيا بأمرٍ مشكل
يلقى الخطوب اذا دجتُ أهوالها
بالصبر حتى تضمحلَّ وتنجلي
تنجاب عنه الحادثات اذا عرت
عن قلبٍ ثبت العزائم حوّل
قد جرّب الايام حتى خلته
يبدي له الماضي خفي المقبل

هذه صفات القائد المؤمن بالله المجاهد والواثق بنصر الله الذائد عن حمى
أوطانه الناصر لدين الله ، هذه هي الصفات المتمثلة في نفوس القادة الميامين من
أمثال خالد وأبي عبيدة وسعد والمثنى ومسلمة وعقبة وموسى بن نصير وطارق
وهرثمة ويزيد بن مزيد وصلاح الدين يقودون جيوشهم الى النصر ونفوسهم
مشبعة بالايمان مخبته لعظمة الله مجردة عن الزهو والخيلاء يعدون العدة قبل
النزال ويسبرون قوى العدو قبل خوض المعركة شعارهم لا غالب الا الله ، يرجون
منه تعالى الفوز بالشهادة لهم دوي بالقرآن لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل الحرب
ولا ترهبهم كثرة الاعداء وما النصر الا من عند الله •

ومن صفات القائد ان يكون يقظاً حذراً فلا يترك غرةً يهتبلها العدو ولا
يهمل فرصة يستفيد منها الخصم وقد تكون السبب في الخذلان وتغير ريع المعركة،
يقرر الماوردي « على القائد أن يتبع المكامن ويحوط سوادهم بحرس يأمنون به
على أنفسهم ورحالهم ليسكنوا في وقت الدعة ، ويأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة ،
وان يوفر ما يحتاجه الجيش من عدد الحرب ليكونوا على الحرب أوفر وعلى

منازلة العدو أقدر ، وان يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح أحواله حتى يخبرها ويسلم من مكره ويلتمس الغرّة في الهجوم عليه ، وان يرتب الجيش في مصاف الحرب والتعويل في كل جهة على من يراه كفوّاً لها ، ويتفقد الصفوف من الخلل فيها ، ويراعي كل جهة يميل العدو عليها بمدد يكون عوناً لها ، وان يقوي نفوسهم بما يشعروهم من الظفر ويخيل اليهم من أسباب النصر ليقبل العدو في أعينهم فيكونوا عليه أجراً وبالجرأة يتسهل الظفر ، قال تعالى : « اذ يريكم الله في منامك قليلاً ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر » ، والمشورة لأهل الرأي ، وان يلتزم الجيش بما أوجه الله تعالى من حقوقه وأمر به من حدوده حتى لا يكون بينهم تجور في دين ولا تحيف في حق ، فان من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه ، والفصل بين حلاله وحرامه ، وقد روى حارث بن نبهان عن ابان بن عثمان عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« انهوا جيوشكم عن الفساد فانه ما فسد جيش قط الا قذف الله في قلوبهم الرعب ، وانهوا جيوشكم عن الغلول فانه ما غلّ جيش قط الا سلط الله عليهم الموتان » (٢) .

ملحوظة :-

اننا وجدنا ناحية الشعب أو حياة الجماهير خافتة لا اثر لها في حياة اسامة ولا سيما بعد مبارحته شيزر ، فقد برزت حياة الحاكم وظهرت علاقته بالامراء الذين عمل معهم ، واختفت حياة الجماهير من حديثه ولم تبرز مظاهر المجتمع الشامي أو المصري في شعره أو أحاديثه وإن حفل كتاب الاعتبار بمظاهر شتى عن المجتمع اذ عاشه اسامة في شيزر وتعدى ذلك الى التحدث عن العلاقات التي كانت سائدة بين المسلمين وبين الفرنجة ومرد ذلك فيما أحسب يعود الى الزمان والى

(١) الغلول : الطمع ، وجمع الغنائم واخفاؤها عن القيادة .

(٢) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٤٣ انظر شروط أمير الجيش وما يجب أن يكون من الثقافة العسكرية العربية وراجع مختصر سياسة الحروب للهرثمي صاحب المأمون دونها خبرات العسكريين العصريين .

العرف والنظام اللذان كانا سائدين يوم ذاك ، توارت ارادة الجماهير وكأنهم قد عاشوا بمعزل عن الاحداث وإن وقع عليهم الغرم وللحكام الغنم ولهذا لم تتبين أي أثر للشعوب التي عايشها اسامة لا في شعره ولا في كتبه لم نلمح ملامح المجتمع الشامي ولا المصري ولا الموصلية ، وقضى في حصن كيفا نحواً من عشرة سنوات والف فيها كتباً كثيرة فلم نجد وصفاً لذلك الحصن ولا لتلك المكتبات التي جمعها الارتقيون والتي أمدته بمصادر كتبه ، وما ذلك الا لان التفكير كان محصوراً بين الفرد وحكامه وهذا ما نجده بارزاً في كتب التأريخ الا ما ندر منها ، وهذه الظاهرة نجدها بارزة في دواوين أكثر الشعراء من عهد الحسن بن هانئ وقبله وبعده ، وليس اسامة يبدع عنهم ، وانما يمتاز اسامة عنهم انه قليل الاكتراث بالامراء وعني أكثر ما عني بالحديث عن علاقاته بأصدقائه أكثر مما تحدث عن عماد الدين والخليفة الحافظ والظافر وابن السلار وابن باديس ولكنه لم ينس نور الدين وشكر أيادي معين الدين وابن رزيك والسلطان صلاح الدين لما بينه وبينهم من مودات وعواطف وصدقات تنضح بالاحترام والتقدير .

الملحوظة الثانية :

يحسن أن نبحثها لأنها تثير التساؤل هي امارة شيزر فلماذا لم يولَّ نور الدين اسامة حصن آبائه وهو الذي أبلى بلاء حسناً بالدفاع عنها والذي رافق نور الدين في حروبه وانتصاراته والجواب على ذلك ان نور الدين كان من خطته توحيد المنطقة فلا يفسح المجال لاعادة التمزيق والتفريق وهو الذي سعى للقضاء على الامارات القائمة قبله والتي كانت تتعرض لغزو الافرنج ولم تقوَ على الدفاع بمفردها، وان كان اسامة قد تطلع الى حكم شيزر والعودة اليها ولمسح في شعره عن رغبته ولم يصرح ، أقول هذا ولعل الايام تظهر لنا بعض مؤلفاته فتحيطنا علماً بما نجعل عنه .

مُنَاقِشَات

كتب عن اسامة مؤرخون و مترجمون قدامى ومحدثون رأيت استكمالا
للبحث ان اتاقتن بعض آرائهم •

١ - قال ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب
ج : ٥ : ص ٢٧٩ - ٢٨٢ في وفيات سنة ٥٨٤ -

« وفيها توفي اسامة بن مرشد بن علي بن نصر بن منقذ الامير الكبير مؤيد
الدولة أبو المظفر الكنانى (الشيرازي) » وقال :

وكان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم له
تصانيف عديدة في فنون الادب والاخبار والنظم وفيه تشيع ، وبقية أخباره نقلها
عن الخريدة وعن ابن خلكان والمصدران لم يقولوا : فيه تشيع ولم يذكر حجه
في ذلك ولم يورد بيتاً أو قولاً له فيه ذكر لهذا الامت •

أقول : اني لا أرى معنى للنص على تشيعه فليس فيه ما ينقصه وهو المجاهد
المسلم ولا في سيرته ما يدل على غلوه أو تعصبه والتعصب هو المذموم من أي كان
وليس من ورائه الا الكراهية والانقسام •

٢ - وقد وهم في نسبه فقال (الشيرازي) ومعنى ذلك انه نسبه الى شيراز
وشيراز في أرض فارس ، وانما هو من شيزر والنسب اليها شيزري •

٣ - قال صاحب النجوم : في ترجمته وسنة وفاته « وفيها توفي الامير أبو
الحارث مؤيد الدولة مجد الدين الكنانى ، مولده بشيزر في سنة ثمان وثمانين
وأربعمائة وكانت له اليد الطولى في الادب والكتابة والشعر ، وكان فارساً شجاعاً
عاقلاً مديراً كان يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب الجاهلية وطاف البلاد
ثم استوطن حماة فتوفي فيها في شهر رمضان وقد بلغ ستاً وتسعين سنة وله ديوان
شعر مشهور ، وكان السلطان صلاح الدين مغزى بشعره ، ج : ٦ : ١٥٧ •

أقول ان الامير اسامة لم يستوطن حماة وقد حلَّ بها أيام الغزو والخراب
مع عماد الدين زنكي ، فقد عاش أيام صباه الى ان جاوز الخامسة والعشرين من
عمره وهو في شيزر ، ثم توطن الموصل والجزيرة وجاب مدناً شتى تبعاً لميادين

القتال التي كان يخوضها مع عماد الدين زنكي ، الى سنة ٥٣٢ وعاد الى شيزر ليشارك عمه وبني عمومته في حربهم للروم ، وغادرها الى دمشق الى سنة ٥٣٩ عاشها مع الامير معين الدين أنر ثم بارحها الى مصر ومكث فيها الى سنة ٥٤٩ أي عشر سنين قضاها بصحبة الحافظ والظافر ووزيريهما ابن السلار وعباس بن باديس الصنهاجي التميمي ، وبعد فتنة عباس وقتله الظافر واخويه يوسف وجبريل ، وانتفاض الجند على عباس رجع اسامة الى الشام واستمر في خدمة نور الدين محمود يرافقه في حروبه حتى ملّ الحياة مع السلاطين والامراء فهجر الشام بحدود سنة ٥٦٠ وانزوى في حصن كيفا وأقبل على العبادة والقراءة والتأليف ، وفي سنة ٥٧١ قفل راجعاً الى دمشق برغبة من السلطان الناصر صلاح الدين الذي أكرمه واعاد اليه اقطاعاً له في المعرة وجالسه وشاوره وكاتبه ، وكانت وفاته في رمضان سنة ٥٨٤ ودفن بسفح جبل قاسيون بالشام ، وذكر ابن خلكان انه زار تربته وقرأ شيئاً من القرآن على روحه وذكر ان ديوانه كان متداولاً ، لا كما قال صاحب الشذرات انه استوطن حماة ومات ودفن في تربتها •

تفنيد أقوال ابن خلدون :

في ص ١٥٧ من الجزء الرابع ، قال : « كان لعباس ولد اسمه نصير (كذا) استخضه الظافر واستدناه ويقال كان يهواه ففاوض العادل عباساً في شأن ابنه عن مخالطته للظافر فلم ينته ابنه فنهى العادل جدته عن السماح للولد ان يدخل الى بيته فشق ذلك على نصر وعلى أبيه ، وتنكر للعادل ، وقال :

« وفلأرض الظافر في قتل العادل وحضر معهم مؤيد الدولة الامير اسامة بن منقذ أحد امراء شيزر وكان مقرباً عند الظافر وصديقاً لعباس فاستصوب ذلك وحث عليه » وتم لنصر قتل العادل •

وقال : « ولما وزر عباس للظافر وقام بالدولة كان ولده نصير من ندمان الظافر وكان يهواه كما تقدم ، وكان اسامة بن منقذ من خلصاء عباس وأصدقائه فقبح عليه سوء المقالة في ابنه وأشار عليه بقتل الظافر فاستدعى ابنه وقبح عليه في شناعة الاحدوثه فيه بين الناس وأغراه باغتيال الظافر ليمحو عنه ما يتحدث به الناس •

ورواية ابن خلدون قريبة من رواية ابن الاثير وكلاهما لا سند لهما فيما رويا وبنا الخبر على السماع والحقيقة هي ما قصها اسامة في كتابه الاعتبار .
 خلاصتها ان الخليفة الظافر أغرى نصرأ وأباه بقتل ابن السلار الملك العادل الرجل الحازم والذي كان زوج ام عباس ابن باديس ، ولم يكن لاسامة يد أو رأي في هذه الجريمة وتم لنصر قتل العادل وولي الوزارة والده على كره من الخليفة الظافر وراح من جديد يغري نصرأ بقتل أبيه ليكون وزيراً مكانه وراحت الهدايا تتوالى من الخليفة على نصر ورسله يداورون نصرأ ويحبذون اليه تحقيق رغبة الخليفة واطلع اسامة صدفة على ما يكيده الظافر فبجح الفعل ونهى نصرأ ان يقدم على مثل هذا المنكر وانه سوف لا يَهْنَأُ بعيش اذا أقدم على قتل أبيه وان هذا يختلف عما قام به من اغتيال للعادل وان كان شنيعاً .

• واطلع نصرأ به فأنفقاً على قتل الظافر الخ . . .

انظر رواية اسامة في الاعتبار .

في ١٠٧ من النجوم الزاهرة الجزء السادس ، قال ان اسامة استوطن حماة فتوفي فيها وهذا وهم من المؤلف وقع فيه آخرون والصواب انه توفي في دمشق ودفن فيها .

٣ - جاء في كتاب أعيان الشيعة لمؤلفه محسن الامين العاملي ج : ١١ : ص : ٣ ومابعدها الطبعة الثانية ١٩٦٠ بعد ذكر ترجمته قال :

« وسرُّ عدِّ صاحب الطليعة له (أي لاسامة) في شعراء الشيعة وقول ابن العماد الحنبلي فيه تشيع - وقوله انه من بيت تَشْيِيع ، الشعر المنسوب الى جده وذكر الايات :

سلام على أهل الكساء هداتي
 ومن طاب محياتي بهم ومماتي

بني البيت والركن المحلق من بني
 النسك والتقديس والصلوات

بني الرشد والتوحيد والصدق والهدى
 بني البر والمعروف والصدقات
 بهم محض الرحمن عظم جرائمي
 وضاعف لي في جهنم حسناتي
 ولولاهم لم يذك لي عمل ولا
 تقبل صومي خالقي وصلاتي
 محبتهم لي حجة وولاؤهم
 الا في بها الرحمن عند وفاتي
 ونسب صاحب الطليعة الى اسامة قوله :

يا حجج الله التي	لا استطاع تجحد
أتم لنا لبانة	في قصدنا ومقصد
وعنكم لاصدر	ودونكم لا مورد
امكم فاطمة	وجدكم محمد
وحيدر أبوكم	طبتهم وطاب الولد

ولم يعلق صاحب كتاب أعيان الشيعة على الايات بنفي أو اثبات لانه لا يرى
 أهمية لها تستوجب البحث •

واني لم أجد في شعر اسامة الايات التي نسبت اليه ولو صحت انها له فما
 غرابتها وما الحكم على قائلها أمثال فكرتها صدر ويصدر عن كثير من كبار علماء
 السنة وأي مسلم لا يجب آل البيت وأي مسلم لا يؤمن بانه قد زكا منهم الاصل
 وطاب الفرع واننا نتعبد بالصلاة عليهم ، فان قول ابن العماد « فيه تشيع » وقول
 صاحب الطليعة لهذا المعنى فنعمة اسامة فارس متدين سليم العقيدة عفا اللسان يحب الله
 ورسوله وآل بيته بل وقلبه اتسع لحب خصومه من فرسان الافرنج ، اما اذا قصدا
 التشيع بمعناه المذهبي لمجرد أبيات نسبت اليه أو لانه عمل مع الحافظ والظافر من
 الخلفاء الفاطميين ، فهذا حكم فيه تعسف ومجانفة لواقع اسامة •

لم أرَ في جميع كتبه التي وصلتنا ولا في شعره ما يدل على تعصب أو تطرف أو تصريح أو تلميح على ما نعته به ابن العماد ، وحكمنا عليه انه عربي مسلم متدين يوحد الله ويؤمن بالقضاء والقدر اتسع صدره لحب الجميع ويترضى عن السلف الصالح ويستشهد بأقوالهم ويقتبس من وصاياهم ومن يقرأ كتابه اللباب وكذلك الاعتبار يعرف اسامة على حقيقته •

٤ - ذكر في الطليعة انه بقي اميراً في مصر الى آخر أيام الملك الصالح أي الى سنة ٥٥٦ هـ ، وهذا وهم منه والصحيح انه ترك مصر قبل دخول طلائع الملك الصالح القاهرة وقبل ان يتسنى كرسى الحكم وقد فصلت أخباره مع طلائع في فصل تقدم من هذا الكتاب •

مقتل ابن السَّلَّار ، وهل لاسامة يد في اغتياله ؟

٥ - يتهم ابن الأثير اسامة بتدبير اغتيال الوزير بن السَّلَّار قال : « في المحرم من سنة ٥٤٨ هـ قتل العادل ابن السَّلَّار وزير الظافر قتله ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي أشار اليه بذلك الأمير اسامة بن منقذ ، ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فأمر ولده نصرأ فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وكانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمملكين وقلَّ مَنْ وليها أحد بعد الأفضل الا بحرب وقتل » •

أقول : اني لم أجد أحداً من المؤرخين غير ابن الاثير يوجه الى اسامة الاشتراك في قتل ابن السَّلَّار لان الصلات بين اسامة وبين الوزير « الملك العادل » وثيقة وابن السلار يعتمد على اسامة وهو الذي ندبه لحرب الافرنج زوده بمال وفير جهز به جيشا من المتطوعين حارب في عسقلان وبيت جبريل وبقي أربعة شهور يشاغل الافرنج وينازلهم الى ان استدعاه الى مصر ليوقف بجانبه خوفاً من انتفاض بعض الولاة وترك أخاه على رأس الجيش يحارب الى ان استشهد في قتال الافرنج ، وبقي اسامة يساند ابن السلار حتى قتل بيد ابن ربيبه وكان الجيش تحت امرته ويأتمنه ويعده بمثابة ولده وقد قالوا « من مأمناً يؤتى الحذر » ولنسمع راوية الاعتبار فان فيها النبأ اليقين •

قال اسامة في اغتيال ابن السلار : « واما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل رحمه الله فانه كان جهز عسكرياً الى بلييس ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس ابن أبي الفتوح بن تميم بن باديس لحفظ البلاد من الافرنج ومعه ولده ناصر الدين ابن عباس رحمه الله فأقام مع أبيه في العسكر أياما ثم دخل القاهرة بغير اذن من العادل ولا دستور فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع الى العسكر ، وهو يظن انه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من المقام في العسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ورتب معه قوماً من غلمانه يهجم بهم على العادل في داره اذا أبرد في دار الحرم ونام فيقتله ، وقرر مع استاذ من اساتذة دار العادل يعلمه اذا نام وصاحبة الدار امرأة العادل جددته فهو يدخل اليها بغير استئذان فلما نام العادل أعلمه ذلك الاستاذ بنومه فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه ومعه ستة نفر من غلمانه فقتلوه رحمه الله من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمس مئة ، وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة (الحرس) نحو من الف رجل لكنهم في دار السلام وهو قتل في دار الحرم ، فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس الى ان رفع رأس العادل على رمح فساعة ما رأوه انقسموا فريقين فرقة خرجت من باب القاهرة الى عباس لخدمته وطاعته ، وفرقة رمت السلاح وجاعوا الى بين يدي نصر بن عباس قبلوا الارض ووقفوا في خدمته ، .

الخليفة يحرض صديقه نصرا لتنفيذ الجريمة ليتخلص من ابن السلار الذي كان مهيمنا على البلاط ويده السلطة لا يترك أحداً يتدخل بادارة البلاد وكان حازما عادلا فأراد الخليفة باغتياله ان يتحرر من نفوذه فوق بشر من ذلك وسعى لحتفه بظفره ، وكانت الصلاة بين الخليفة واسامة فاترة ويعد اسامة من حزب الملك العادل فليس من المعقول اطلاع اسامة على الخطة ولو عرف بها لنصح صديقه نصراً كما فعل حين أطلعه على تحريض الخليفة لاغتيال أبيه عباس ، هذه المؤامرات كانت تتكرر وتمثل على مسرح الخليفة في بلاطه وتحت اشرافه واعداد نساء القصر ، عاد الظافر يتأمر مع نصر على أبيه عباس وتوالت الهدايا على الابن المستهتر وأحسن

اسامة بما يدبر بالخفاء فنصح الولد الا يقدم على هذه الجريمة النكراء وقال له انك ان نفذتها فسوف لا تعرف الراحة واطلع نصر أباه بما يحاول الخليفة الخليع فعاجله بالقتل ، وحامت حول اسامة التهم وانه كان له ضلع في تدبير المؤامرة اعتباراً .
واسامة يقول عن هذه المأساة التي انتهت بمقتل الظافر واخويه يوسف وجبريل ، (وكان ذلك اليوم من أشد الايام التي مرت بي لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق ، ولو كان اسامة ممن حرض نصرأ أو عباسا لما خفي امره على نساء القصر ولأطلعن طلائع بن رزيك وهو الذي يبرىء اسامة من الاشتراك فيقول له من قصيدة طويلة :

وحاشاكم ما ختم العهد مثله (١)

ولا لكم فيما جرى منه من ذنب

ومن مثل ما قد نالكم من دنوه

يحاذر ان تدنو الصحاح من الجرب

تولى الوزارة طلائع وتم له الامر ولقب بالملك الصالح ودانت له البلاد وكتب اسامة وعرض عليه ولاية اسوان بعد فترة طويلة كانت تكفي ليتحقق فيها اذا كان اسامة قد غمس يده بدم الظافر أو له مشاركة في تدبير المؤامرة ، من غير شك لو علم طلائع ان اسامة له ظلع لما أقدم على دعوته ولما أعاد الدعوة بقصائد عديدة •

اما المطاعن التي أوردها ابن الاثير لنصر وتحريض اسامة لوالده بذلك الاسلوب الرخيص فانه لا يتفق مع أخلاق اسامة من ناحية ولا يأتلف مع مجريات الاحداث ، فلو كان نصر كما وصفه ابن الاثير وكانت العلاقة بينه وبين الخليفة على تلك الحال البشعة التي حكاها صاحب الكامل لما ولي قيادة في الجيش ولما كان أهلاً لصداقة اسامة ومدحه ولما ارتضاه الخليفة وزيرا بعد أبيه ، واني ليأخذني العجب كيف ارتضى ابن الاثير ان ينزلق قلمه فيسطر تلك الاتهامات

(١) يقصد عباسا •

السوقية، ويقبل روايتها في كتابه قبل ان يعرضها على محك العقل ويحاكم صحتها من كذبها بفكره الثاقب، ولكن ابن الاثير لم يكن وحده الذي يسطر مثل هذه الاخبار لمجرد الاثارة والغرابة .

وبعد :

اذا كان هناك ما يؤخذ عليه أبا المظفر اسامة في هذه المسألة فيؤخذ على سكوته ويلام على اشتراكه في مرافقة ذلك السفاح عباس الى الشام ووقوفه بجانبه مما أثار عليه سخط الجند فذهبوا داره وصادروا أمواله وجزاه الله شر الجزاء وكان خليقاً أن يثور وان ينفي عن نفسه بوثائق تلك الفتنة .

ملاحظاتى :

١ - ملاحظتي الاولى على المقدمة القيمة التي كتبها الدكتور فليب حتي فقد ذكر في ص (ك) ان السلطان صلاح الدين قد استدعاه من حصن كيفا بعد ان تجاوز التسعين سنة الخ . . .

والصحيح انه قفل راجعاً الى دمشق سنة ٥٧١ هـ فهو قد جاوز الثمانين بثلاث سنوات .

٢ - وذكر كتاباً من مؤلفات اسامة باسم « تاريخ البلدين » والصحيح تاريخ البدرين .

٣ - وذكر كتاباً له وقال انها موجودة في خزائن الغرب وكان يقضي البحث العلمي أن يذكر مواطن الخزانات التي تحتويها .

٤ - ملاحظتي على محققي الديوان انهما انجرفا مع الآخرين من غير تحقيق فقالا (لم يشأ اسامة في أول الامر أن يزج بنفسه في الاحداث السياسية المصرية حتى اذا ولي القى بنفسه في خضم هذه الاحداث حتى ليروي المؤرخون انه اشترك في المؤامرات التي انتهت بقتل ابن السكّار والخليفة الظافر) وردد ما رده الكتاب ممن ترجموا له هذه الاتهامات ولم يكلفا نفسيهما تمحيص هذه الاقوال وما حقيقتها وما قدر نصيب اسامة في مشاركة أحداثها وفي الديوان نصوص صريحة

تلقني ضوءاً واضحاً على بطلان هذه الاتهامات وكان عليهما ان يشيرا اليها من
قصائد طلّاع والقاضي ابن الزبير .

٥ - وعرفا اسم مرشد بانه جد اسامة والصحيح أبوه في قوله :

كظوم على غيظ يضيق به الحشما
فلست وإن آد اصطباري أبثه

ولم أرت الصبرَ الجميل كلاله
ولكنه عن مرشد لي أرته

انظر هامش ص ١١٩ وتكرر ذلك منهما .

٦ - ملاحظتي على دائرة المعارف الاسلامية انها وصفت كتاب المنازل والديار

انه ترجمة كتبها عن نفسه سنة ٥٦٨ هـ أثناء اقامته في حصن كيفا .

والصحيح ان المنازل والديار لم يكن ترجمة أو سيرة لاسامة وانما هو كتاب

أدب وشعر جمع فيه ما قاله الشعراء في ندب ورتاء المنازل والديار والاطلال والربع
والدمن وكانت غايته التفريغ والتأسي بعد الزلزلة التي قضت على أهله ودياره
وارجح انه شرع في جمع مادته وهو في الشام على أثر وقوفه على أطلال دياره

٧ - ملاحظتي على الاستاذ العلامة أحمد أمين رحمه الله انه جعل دخول اسامة الى

مصر سنة ٥٤٩ في مقاله القيم الذي كتبه في الثقافة في الجزء الرابع من فيض
الخاطر من ١٣٧ قال : دخل اسامة مصر سنة ٥٤٩ وقد نيف على الخمسين :
والصحيح ان دخوله مصر كان سنة ٥٣٩ وسنة احدى وخمسين سنة وخرج منها
سنة ٥٤٩ وسنه قد تجاوز الستين .

٨ - وجمل هجرته الاولى الى دمشق ، والصواب كانت هجرته من شيزر

الى الموصل التحق بجيش عماد الدين زنكي ولم تكن الشام تابعة له .

اما هجرته الثانية سنة ٥٣٢ فكانت الى الشام وكان حاكمها صديقه معين الدين

أثر وزيراً لشهاب الدين طفتكين وبقي فيها الى سنة ٥٣٩ .

٩ - ملاحظتي على الاستاذ المحقق عبدالسلام هارون انه نشر كتاب العصا على النسخة التي وجدها أحمد أمين ولم يقابلها مع النسخة التي حققها ونشرها المستشرق (درنبرغ) سنة ١٨٩٣ وهي نسخة ليدن ، والمحقق الفاضل لا يجهد وجودها كان بإمكانه أن يحصل عليها من باريس ولو قابلها مع نسخته لوجد فيها مواضع كثيرة للتصحيح كما فعلت في مقابلي بين النسختين •

١٠ - كتب الاستاذ عبدالكريم الاشرى مقالا في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١٠ : المجلد الثاني والاربعون ، كانون الثاني ١٩٦٧ • كتب مقالا بعنوان صفحة من تراثنا الحي ، ملاحظاتي عليه ما يأتي :

(١) المقدمة كرر ما قاله فليب حتي ولم يشر اليه •

(٢) جعل هجرة اسامة الى الشام سنة ٥٣٢ والصحيح انه هاجر الهجرة الاولى الى الموصل والتحق بعماد الدين وبقي فيها الى سنة ٥٣٢ أي مدة سبع سنوات فلما حاصر الروم قلعة شيزر جاء مع جيش عماد الدين وعاد الى شيزر ودافع عنها الى ان انسحب الروم عنها سنة ٥٣٢ ورجب البقاء فيها ولكن عمه جاهره بضرورة ترك شيزر فرحل الى الشام وبقي فيها مع معين الدين أنر الى سنة ٥٣٩ فبارحها الى مصر •

(٣) وقال ان رحلته الى مصر سنة ٥٤٠ وبقي فيها تسع سنوات والصحيح ان رحلته كانت ٥٣٩ وبقي فيها الى سنة ٥٤٩ أي عشر سنوات •

(٤) قال انه غادر مصر الى حصن كيفا وهذا خطأ • فقد رجع الى الشام والتحق بنور الدين زنكي وبقي معه الى سنة ٥٦٠ وشهد ٥٥٢ الزلزلة التي أودت بأهله •

(٥) المقال لم يخرج عما كتبه فليب حتي على مقدمة الاعتبار واعتماده الاعتبار في جميع ما اقتبس •

ملاحظتي على الدكتور يعقوب صروف انه في مقاله الذي نشره في المقتطف في عدد مايس ١٩٠٨ - مجلد ٣٣ ص ٤٧٩ - ٤٨٣ • (قال انه كان في مصر

سنة ٥٤٧ في عهد الملك العادل مع ان الملك العادل خلف الملك الصالح سنة ٦٥٥)
وكلام اسامة صحيح اذ ان ابن السلار كان يلقب بالملك العادل كما ان نور الدين
محمود كان يلقب بنفس اللقب •

١١ - ملاحظتي الاخيرة اني قرأت كل ما كتبه الاستاذ محمد كرد علي في
الرسالة واحمد محمد شاكر في مقدمته على اللباب ومقالاته في مجلة الكتاب واحمد
أمين في فيض الخاطر الجزء الرابع ويعقوب صروف في المقتطف وقد وقع بأغلاط
كثيرة عقب عليها الاستاذ أحمد محمد شاكر فلا أرى ضرورة لاعادتها •
وفليب حتي في مقدمة الاعتبار ومجلة الكلية في جامعة بيروت وما كتبه
المحققان للديوان وما كتبه الناشرون لمقدمة المنازل والديار وجدت ما كتبه الاساتذة
الأفاضل لا يخرج عما في الاعتبار ورددوا ما قاله وكتبه ابن خلكان وياقوت •
وبعد :

فاني لا أدعي قد ابتدعت وانما وجدت لَبِيناً فَبِينت وتيسرت لي مصادر فكتبت
ما كانت مسيرة يوم كتب عنه أصحاب المقالات ، ولا شك ان القارىء الكريم يقدر
الفرق بين من يكتب مقالة وبين من يكتب كتابا الاول معذور ان اختصر أو طوى
أخباراً وأبرز اخرى واقصر على نواحي معينة أراد ابرازها اما الثاني أقصد
المؤلف ^(١) فلا يعذر ان أهمل أو اقتضب من أجل ذلك جاء بحثي مفصلاً مقرونا
بكثير من شعره والذي أعده مفتاح شخصية اسامة قد يتهمني البعض باني افطرت
بالاقتباس منه والحقيقة اني تركت كثيراً من شعره الذي ينير للقارىء الدرب ويلقي
اضواء كاشفة على حياته ولكل نهجه ووجهته في العرض والابانة والبحث ، وحسبي
اني قدمت خدمة للقارىء العربي على قدر عزمي وعلمي عسى ان تحظى برضاه
ومن الله التوفيق •

(١) كتب محمد أحمد حسين كتابا عن اسامة مختصراً نشره سنة ١٩٤٦
ونقدته مجلة الكاتب المصري سنة ٤٦ - ٣٣ - ج - ١٠ ونهجه يختلف عن نهجي
وعذره ان المصادر كانت غير موفورة لديه ولا سيما كتب ومؤلفات اسامة مثل
المنازل والديار ، والبديع ، والديوان ، وكتاب العصا ، ومن المصادر : مثل
الرضتين لابي شامة ، والخريدة للعماد الكاتب •

١٢ - في ص ٩٩ من كتاب نور الدين محمود :

(١) اتهم الدكتور حسين مؤنس صراحة بنى منقذ بالعمالة للافرنج وقال :
« انهم فرحوا بانخذال السلجوقيين » وقال : « فلم تنهض بهم الهمة الا الى الاتصال
بالصليبيين وعرض المعونة عليهم وتقديم الادلاء اليهم اذا هم تركوهم بسلام » ،
ويقول : « ولقد لقي بنو شيزر من الهوان على أيدي الصليبيين وقبلوه على ذلة » ،

(٢) وتجننى على اسامة في صفحة ١٦٩ ونفى عن اسامة كل نصرة لقضية
الاسلام بل كان من المتعاونين مع الاعداء العاملين على تأييد سلطانهم •

(٣) وجعل من اعجاب المستشرقين لكتاب الاعتبار مدعاة للتهجم عليهم ومنفذاً
لائهاماته وحملاته على اسامة والخط من اسلوبه ومن شعره •

(٤) تشفى من اسامة حين انتهب الافرنج في عكا امواله وكان من بينها أربعة
آلاف كتاب كان قد انتقى انتخابها وجود تجليدها •

وفي الكتاب ردد اتهامات لا اثاره له فيها من علم أو مستند • أقول : ان
اتهاماته لم يقيم عليها دليل من فعل أو قول ولم أجد مؤرخاً من المؤرخين سواء
ممن عاصره أو ممن جاء بعد عصره من ذكر هذه الاسرة بأنها والت الافرنج أو
عملت لهم ، وقد أطرى المؤرخون والشعراء والكتاب بطولات هذه الاسرة وصمودها
أمام الاعصار الغربي وقفوا يدافعون زحفهم ويهاجمون قلاعهم ، والثابت ان
الافرنج لم يتمكنوا من احتلال شيزر واقامة حكومة افرنجية كما اقاموا في كثير
من الاصقاع •

لم يتخاذل بنو منقذ أمام هجمات الافرنج والروم معا ووقفوا كالطود الشامخ
يدافعون زحوف الروم سنة ٥٣٢ وعاد ملك الروم الى انطاكية خائباً ، ان البطولات
التي قام بها مرشد واخوه أبو العساكر الامير سلطان وما كان يقوم به اسامة من
خوض المامع ومهاجمة القلاع وما كان يحتمله من الجلاذ والساعات الطوال في

ميادين القتال مما كان يثير اعجاب الفرسان وكان مدعاة لحضور قائد من قواد الفرنجة
ليهنيء اسامة على شجاعته وفروسيته بحضور عمه حاكم شيزر •

اما اتهام الدكتور مؤسس اسامة بالعمالة والخيانة لمجرد صداقته مع رجال
(الداوية) فاسامة يذكرها في كتابه الاعتبار وهي لا تعدو اعجاب الشجاع بشجاعة
خصمه واسامة كان يردد اطراءه في غير موضع من كتابه (الاعتبار) بشجاعة
الافرنج وما عدا الشجاعة فهم كالبهائم ، ويظهر لي ان الدكتور غفل تلك
الصلات التي كانت سائدة بين المتحاربين ولا سيما ايام تقع بينهم وبين المسلمين
الهدنة ، وذم اسلوب كتاب الاعتبار • واسامة لم يرد الا اعطاء فكرة عن الحروب
الصلبية باسلوب القصاص على طريقة المذكرات كتبها أو الاصح أملاها وقد تجاوز
التسعين عاما فجاء كتابه خير وثيقة تاريخية لتلك الحقبة بصورة واضحة القسما
للحياة الاجتماعية التي كان يحيها امراء الشام من جهة وما كان يقع بينهم من
المنافسات والانقسامات بدافع التسلط وحب التملك ، وما يقع بينهم وبين الافرنج
من جهة اخرى ، كانوا يتزاورون ويتبادلون البضائع والصنائع ويستفيدون من
حضارة المسلمين •

فانهم على الدكتور أمر هذه العلاقات فراح يتهم اسامة ومعين الدين أنر
وغيرهما من الابطال المجاهدين بالخيانة والعمالة والذلة ، وطمس على جهادهم
ونسى ما لقيه اسامة في الحروب التي خاضها مع عماد الدين زنكي ، ومعين الدين
ونور الدين وابن السلار •

في الواقع ان الصواب قد جانف بحث الدكتور مؤسس في كتابه نور الدين
محمود عن آل منقذ وعن اسامة بالذات •

- ابان بن عثمان ٣٣٧
ابراهيم عبدالقادر المازني ١١٠
ابراهيم بن كنيف ١٥٠
ابراهيم مصطفى ٢٠٥
ابراهيم بن هرمة ١٤٨
ابن الاثير ٢٩ ، ٣١٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧
ابن تدرس النصراني ٢٣٩
ابن جعفر ١٤٢
ابن حيوس (ابو القتيان) ٢٩٧
ابن الخطيم (قيس) ١٩٣
ابن خلكان ٨٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥١
ابن خلدون ٣٤٢ ، ٣٤٣
ابن الخياط ١١
ابن دريد الازدي (ابو بكر) ٢٢٩
ابن رشيق القيرواني ٢٠٥ ، ٢٠٨
ابن الزبير (القاضي) ٣٤٩
ابن السلار (الوزير) ٢٢ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٩٠ ، ٢٧٣ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
٣٤٥ ، ٣٤٦٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١
ابن سنان الخفاجي ١١
ابن عباس ١٨٦ ، ١٩٤
ابن عساكر (الحافظ المؤرخ) ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٩ ، ٣١١
ابن عمر ١٨٩

ابن العماد الحنبلي ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥
ابن فارس ٢٢٩
ابن قتيبة ١٧٦
ابن قسيم الحموي ٣٢
ابن مصال (الوزير) ٤١ ، ٤٢ ، ٩٠
ابن المعتز (الخليفة الاديب) ١٤٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٦
ابن منيرة (محمد بن يوسف) ١٤ ، ٢٥٧
ابو الاسود الدؤلي ٩
ابو بكر الصديق ١٩٥
ابو تمام الطائي (حبيب بن اوس) ١١٣ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩
ابو الحسن بن بوين ٢٢٧
ابو الحسن علي بن سالم ١٤
ابو دؤاد الايادي ١٤٢ ، ٢١٠
ابو دجانة بن فرشة ١٩٠ ، ١٩١
ابو ذؤيب الهذلي ١٤٥ ، ١٤٧
ابو رجاء العطاردي ١٩٥
ابو زيد الطائي (الشاعر المشهور) ٢٣٨
ابو سعيد الخدري ١٩٥
ابو شامة ٦ ، ٤٦ ، ٥٩
ابو طالب ٢٣٦
ابو عبيس ١٨٨
ابو العباس الاعمى ١٥٦
ابو عبيدة الجراح ٣٣٦
ابو العلاء المعري ١٠ ، ١٧٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٧٨
ابو العيص بن حزام ١٤٨
ابو فراس الحمداني ٢٦٢

ابو نواس (الحسن بن هاني) ٢٢١

ابو هريرة ١٤٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٥

ابو يوسف القزويني ٢٢٧

احمد امين (الدكتور) ٣٩ ، ٨٠ ، ٢٢٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١

احمد احمد بدوي (الدكتور) ٨٣ ، ٨٤ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٢٠٥

احمد شوقي (امير الشعراء) ٥

احمد بن علي ٢٨٧

احمد محمد شاکر (الشيخ) ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٢٧ ، ٣٥١

ارسطاطاليس ٢٠١

الاشتر بن الحارث ١٩٣

الاصمعي (عبدالملك بن قريب) ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢٣٤

الاهشي (الشاعر الجاهلي) ٢١٧ ، ٢٢١

افلاطون ٢٠١

الافوه الاودي ٢١٩

ام معدان الانصارية ١٤٤

امرئ القيس ٢١٠ ، ٢٣٢

انس بن مالك ١٧٧ ، ١٨٦ ، ١٩١

انس خالدوف ١٣٤

انوشروان ١٩٧

(ب)

البحثري (الوليد بن عبادة) ١١٣ ، ٢١١

البراء بن ربيعي ١٤٠

البراء بن مالك ١٩١

بزرجمهر ١٩٧

بيرس ٢٢

(ت)

الترمذي (الامام) ١٤٥

(ج)

الجاحظ (عمرو بن بحر) ٢٢٨
خبيريل (الامير) ٤٤
جرير بن عطية الخطفي ٢٠٩ ، ٢١٧
جمال الدين محمد بن بوري ٩٤

(ح)

حاتم الطائي ٢٣٧
الحاتمي ٢٠٥
حارث بن نبهان ٣٣٧
الحافظ المقدسي ٧٨
الحافظ لدين الله الفاطمي ٣٩ ، ٤٠
حامد عبدالمجيد ٨٣ ، ٨٤ ، ١١٠ ، ٢٠٥
الحسن البصري (الامام) ٢١٣
الحسين بن علي (الوزير المغربي) ١٢٤
حسين مؤنس (الدكتور) ٣٥٢
الحطيئة (جرول) ٢١٤ ، ٢١٩
حكم بن شريك ١٥٣
حمود بن صالح ٢٩٧
حميد بن ثور ٢٢٠
حميد بن مالك ٨٣

(خ)

خاتون بنت تاج الدولة تشش ٢٩٠
خالد بن صفوان ٢١٤

خالد بن الوليد ١٤ ، ١٦٧
خداش بن فراس النميري ١٥٦
خديجة بنت خويلد ٢٣٦

(د)

دربورغ (المستشرق) ٨٢ ، ١٠٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٣٥٠
دريد بن الصمة ١٩٢ ، ٢٢٩
دعبل الخزاعي ٢١٣

(ذ)

ذو الرمة ٢٠٨ ، ٢٢١
الذهبي (شمس الدين الحافظ) ٥ ، ١٤ ، ٧٧ ، ١٠٩

(ر)

راشد بن عبدالله ٢٣٤
الراغب الاصفهاني ١٧٦
رافع بن الليث ٩
ربيعة بن مكرم ١٩٢ ، ١٩٣

(ز)

زبان بن منظور ١٤٣
الزبير بن العوام ١٩٠ ، ١٩١
زهير بن أبي سلمى ٢١٢ ، ٢٩٦
زياد بن ابيه ١٩٥
زنكي (ملك الامراء) ٩٤

(س)

ساطع الحصري ١٧٧
ساليه م (المستشرق) ٨٢

السري الرفاء ٢١٣
سعيد بن أبي وقاص ١٩٢ ، ٣٣٦
سعيد بن الربيع الانصاري ١٨٧
سعيد بن جبير ١٨٦
السكاكي ١٠٦
سلطان بن علي ٩
سلمة بن عياش ١٥٥
السليك بن السلكة ١٩٢
السمعاني (عبدالكريم ابو سعيد) ١٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١١٢

(ش)

الشداخ بن عوف ٩
الشمردل بن شريك ١٥٣

(ص)

صالح الراوي ١١٠
صالح بن مرداس ١٠ ، ١١
صفي الدين الحلبي ٢٠٦
صلاح الدين الايوبي ٢٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١٢٥ ، ٢٧٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٨

(ض)

ضرار بن الازور ١٦٧
ضياء الدين النقيب الموصلبي ٢٨٥ ، ٢٨٧

(ط)

طارق بن زياد ٣٣٦
الطالوي ١٣٤
الطبراني ١٤٥

طرفة بن العبد ٢١٩

طفيل الغنوي ٢١٣

طلائع بن رزيك (الملك الصالح) ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ١١٤ ، ١٢٨ ،

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣١٠ ، ٣٣٨ ،

٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩

الطليطلي (ابو عبدالله) ١٤

(ع)

عائشة (ام المؤمنين) ١٩٤ ، ١٩٦

عاتكة الخزرجي (الدكتور) ٢٢٣

عامر بن الطفيل ١٩٣

عامر بن الجراح (ابو عبيدة) ٩

عباس بن الاحنف ٢٢٣

العباس بن مرداس ٢٢٩

عباس بن باديس (الوزير المغربي) ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ،

٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦

عبدالله بن حسن ١٥٤

عبدالله بن عمرو ١٥٤

عبدالله بن مغل ١٩٥

عبدالله بن وهب ٢٢٢

عبدالرحمن الراوي ١١٠

عبدالسلام هارون ٨٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٨ ، ٣٥٠

عبدالمجيد الملا ٢٢٣

عبدالغني بن عبدالواحد الحافظ ٧٩٠

عبدالغني النابلسي ٢٠٦

عبدالكريم الاشر ٣٥٠

العتابي ٢٠١

العقبي عبدالرحمن ١٥٢

عثمان بن عفان ٢٣٨

عروة بن الورد ٢٣٧

عميس بن سلامة ١٨٧

العسكري (صاحب الصناعيين) ٢٣٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٥

عماد الدين زنكي ١١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٧٢ ، ٩٤ ، ١٧١ ، ٢٤٩ ، ٣٤١

العماد الاصفهاني الكاتب ٩ ، ١٣ ، ٥٥ ، ٧٥ ، ٢٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٩ ،

١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٣٨

عمارة اليمني ١٢٨

عمران بن حطان ١٩٣

عمر بن سعيد ١٩٥

عمر بن عبدالعزيز ١٥٠

عمرو بن معدي كرب الزبيدي ١٩٢

عنبرة بن شداد ١٩٣ ، ٢١٩

علي بن أبي طالب ١٣٧ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،

علي بن الجهم ٢١٨

علي بن محمد (ابو الحسن) ١٥١

(ف)

الفرزدق (همام بن غالب) ١٤١ ، ٢٣٥

الفضيل بن حذيج ١٩٣

فليب حتي (الدكتور) ٥ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٣٤٨ ، ٣٥١

(ق)

قاسم محمد الرجب (ابو محمد الرجب) ٥ ، ٩١ ، ١٧٦ ، ٢٢٧

القاضي الفاضل ١٢٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨

قدامة بن شريك ١٥٣

قيس بن ذريح ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٣٢٥

(ك)

كثير بن عبدالله ١٤٩

كسرى قباذ ١٩٧

كليام ربور ٩٧

(ل)

لويس سر كيس ١٧٥

(م)

المأمون (الخليفة العباس) ٢٠٩

مالك بن نويرة ١٦٧

الماوردي (الامام) ٣٣٦ ، ٣٣٧

المتنبي ابو الطيب احمد ٣٩ ، ١٢٨ ، ٢٢٠ ، ٢٨٥

المتلمس ٢٣١

متم بن نويرة ١٦٧

مجد العرب العامري ٩

محسن الامين العامري ٣٤٣

محمد احمد حسين ٣٥١

محمد بهجة الاثري ١١٣

محمد بن الحسن الملحي ٧٨

محمد بن خالد بن الوليد ١٥٠

محمد بن عبدالله رسول الله (ص) ٨٩ ، ١٣٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، ٢٠٦ ،

٢٠٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧

محمد كردعلي ٣٥١

محمد بن المنيرة (ابو عبدالله) انظر : ابن منيرة

محمود بن تاج الملوك بوري ٢٦٨

محمود شهاب الدين بوري ٣٣

محمود محمد شاكر ١٧٥

محمود المسترشدي ٣٥
المخبل السعدي ٢١٠
المدائني ١٩٠
المذحجي ١٤٤
مرهف بن اسامة ٢٩٧
مسلم بن الوليد ٢٦٣ ، ٢٢٠
مسيلمة الكذاب ١٩١
مصعب بن الزبير ١٩٣
مصعب بن عبدالله الزبيري ١٩٠
معروف الرصافي ٧٦
معن بن اوس ٢٣٦
معين الدين انر ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ١٠٢ ، ١٢٧ ، ٢٦٨
مقاس بن شريك ١٣٩
المنذري الحافظ عبدالعظيم ١٨٨ ، ١٩٥
منقذ بن عبدالرحمن ١٥٣
موسى (النبي) ٢٩٦
موسى بن الخطيب ٢٤٠
موسى بن نصير ٣٣٦
المهذب بن الزبير ١٢٨
مهيار الديلمي ٢٣٣

(ن)

النابعة الجعدي ٢١١
النابعة الديباني ٢١٧ ، ٢١٩
نصر بن سيار ٩
نصر بن عباس ٤٢ ، ٤٩
نظام الدين (الوزير) ٢٨٣

نور الدين زنكي ٤٥ ، ٥٢ ، ١٦٥ ، ٢٧٩ ، ٣١٥ ، ٣٥٠
نور الدين محمود (الملك) ٢٢ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ،
٣٢٥ ، ٢٧٤ ، ١٣٣ ، ٧٢ ، ٥٧

نوري القيسي (الدكتور) ٢٣٨
نهار بن نوسعة ١٤٠

(و)

وائل بن شريك ١٥٣
ورقة بن نوفل ٢٣٦
وكيع بن ابي سور ١٥٣
الوليد بن عبد الملك ١٩٦

(هـ)

هارون الرشيد (الخليفة العباسي) ٩
هارون (اخي موسى النبي) ٢٩٦
هاشم بن عتبة ١٩٢
الهريمي ٣٣٧
هشام بن عبد الملك ٢٣٥

(ي)

ياقوت الحموي ١٣ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٢٢ ، ٣٥١
يحيى الحصكفي ٢٤٠
يحيى بن زكريا ٢٣٦
يحيى بن نجاح ١٨٨
يزيد بن ضبة ١٣٨
يزيد بن الطرية ٢٣٧
يزيد بن مزيد ٣٣٦
يعقوب (النبي) ٢٠٨
يعقوب بن ابي الغريب ١٠٠
يعقوب صروف ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٣٥٠

مراجع الكتاب

- ١ - الاعتبار - اسامة بن منقذ - تحقيق ، فليب حتي - برنستون - ١٩٣٠ م •
- ٢ - لباب الاداب - اسامة بن منقذ - تحقيق ، أحمد محمد شاكر - مطبعة سركيس - ١٩٣٦ م •
- ٣ - ديوان اسامة بن منقذ ، تحقيق ، الدكتور أحمد أحمد بدوي - وحامد عبدالمجيد - القاهرة ١٩٥٢ م •
- ٤ - المنازل والديار - تحقيق ونشر المكتب الاسلامي - دمشق - ١٩٦٥ م •
- ٥ - العصا - تحقيق المستشرق درنبرغ - باريس - ١٨٩٣ م •
- ٦ - العصا - تحقيق عبدالسلام هارون - القاهرة - ضمن سلسلة - نوادر المخطوطات •
- ٧ - البديع - اسامة بن منقذ - تحقيق - الدكتور أحمد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد القاهرة ١٩٦٠ •
- ٨ - النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة - الجزء السادس - لابن تغري بردي دلاتابكي - دار الكتب - •
- ٩ - الكامل - ابن الأثير - الجزء الحادي عشر - الطبعة الاولى - •
- ١٠ - السلوك في معرفة دول الملوك - المقرئزي - الجزء الاول - تحقيق ، الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة •
- ١١ - البداية والنهاية - ابن كثير - الجزء الثاني عشر - الصحيفة ٣٣١ •
- ١٢ - أعلام النبلاء في تزيخ حلب الشهباء - راغب الطباخ - الجزء الثاني - الصحيفة ١٨٦ - •
- ١٣ - تاريخ ابن خلدون - بيروت - الجزء الرابع •
- ١٤ - معجم الادباء - ياقوت الحموي - طبعة اوربا - الجزء الثاني - صحيفة ١٧٦ - ١٩٦ •
- ١٥ - معجم البلدان - ياقوت الحموي - بيروت - (مادة - شيزر) •
- ١٦ - وفيات الاعيان - ابن خلكان - الجزء الاول - (صحيفة ٧٨ - ٨٠) - الطبعة الاولى - بولاق •

- ١٧ - العبر في من غير - للذهبي - الجزء الرابع - الكويت (الصحيفة ٢٩٢) •
- ١٨ - الخريدة - للعماد الكتب - الجزء الاول من قسم الشام - (الصحيفة ٤٩٨)
- ٥٤٧ - دمشق - •
- ١٩ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لابي شامة في مواضع عدة •
- ٢٠ - مرآة الجنان ج ٦ : ٤٢٧ - ٤٢٨ لليافعي طبع الهند •
- ٢١ - الحياة الادبية عصر الحروب الصليبية ، الدكتور أحمد أحمد بدوي •
- ٢٢ - الحياة الادبية في العصر العباسي ، الدكتور أحمد أحمد بدوي •
- ٢٣ - أعيان الشيعة ج ١١ : ٣ - ٢٦ السيد محسن الامين العاملي •
- ٢٤ - سيرة صلاح الدين لابن شداد •
- ٢٥ - مفرج الكروب لابن واصل الاجزاء الثلاثة في مواضع عدة •
- ٢٦ - الحركة الصليبية الدكتور سعيد عبدالفتاح الاول والثاني •
- ٢٧ - زهر الآداب لابي اسحق الحصري ، تحقيق زكي مبارك •
- ٢٨ - أدب الحروب الصليبية للدكتور عبدالمطيف حمزة •
- ٢٩ - تأريخ ابن الفرات الجزء الاول من المجلد الرابع تحقيق الدكتور حسن محمد الشماح •
- ٣٠ - الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والملوكي الاول •
- ٣١ - الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري ، حيدرآباد ١٩٦٤ •
- ٣٢ - خطط الشام للاستاذ محمد كردعلي •
- ٣٣ - تأريخ لبنان وسوريا للدكتور فليب حتي •
- ٣٤ - الفاطميون في مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن •
- ٣٥ - كشف الظنون حاج خليفة ٧٢ ، ٢٣٥ ، ٧٧٥ ، ١٣٩٣ ، ١٤٠١ •
- ٣٦ - الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الاصفهاني الكاتب القاهرة •
- ٣٧ - معجم ما استعجم للبكري طبعة القاهرة •
- ٣٨ - نكت الهميان في نكت العميان تحقيق أحمد زكي ، القاهرة •
- ٣٩ - نهاية الارب في فنون الادب ، النويري •
- ٤٠ - معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ج ٢ : ٢٢٥ •

- ٤١ - الاعلام لخير الدين الزركلي ج ١ : ٢٨٢ . الطبعة الثانية .
- ٤٢ - رحلة ابن جبير في مواضع عدة . طبعة بيروت .
- ٤٣ - تأريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم حسن ج : ٣ .
- ٤٤ - المنتظم في تأريخ الملوك والامم لابن الجوزي طبعة الهند ١٣٥٩ .
- ٤٥ - الحروب الصليبية حسن حبشي القاهرة ١٩٤٧ .
- ٤٦ - نور الدين والصليبيون حسن حبشي ١٩٤٨ .
- ٤٧ - زمباور : الاسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي ١٩٥١ .
- ٤٨ - المجلات الرسالة أحمد بدوي ١٨ : ٦٦٤ - ٦٦٦ ، ٦٩٢ ، ٦٩٦ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ .
- ٤٩ - محمد كرد علي م ٣ .
- ٥٠ - عبداللطيف حمزة الثقافة ج ٨ : ٦٩١ - ٦٩٣ .
- ٥١ - مصطفى الماجي العرفان ٤٠ : ٩٧٩ - ٩٨٣ ، ١١٢٠ الى ١١٢٣ .
- ٥٢ - أحمد محمد شاكر الكتاب ١ : ٧٧٣ - ٧٧٨ .
- ٥٣ - فليب حتي مجلة الكشف ٤ : ٤٧٣ - ٥٠٢ .
- ٥٤ - فيض خاطر ج ٤ : ١٣٣ - ١٤٧ .
- ٥٥ - اسامة بن منقذ محمد أحمد حسين ١٩٤٧ .
- ٥٦ - الكتاب المصري م ٣ / جزء ١٠ نقد وتعريف .
- ٥٧ - المقتطف في عدد نيسان ١٩٠٨ مجلد ٣ : ٣٠٨ - ٣١٣ .
- ٥٨ - خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر نشره الدكتورة أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس ج ٢٢١ والقاهرة ١٩٥١ .
- ٥٩ - الحروب الصليبية في المشرق والمغرب للاستاذ محمد العروسي المطوي ، تونس ١٩٥٤ .
- ٦٠ - نور الدين محمود للدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٦١ - لسان العرب طبعة بيروت .
- ٦٢ - القاموس المحيط الفيروزآبادي .

جدول أخطاء والصواب

الصواب	الخطأ	س	ص
هاجها	أهاجها	١١	٦
يحادون	يجادون	١٦	٩
تنافس في	تنافس على	٦	١٩
لا ترضى	لا ترضَ	١٠	٢٧
العدى	العدا	٦	٣٤
القفر	القبر	١٩	
لكنّ ودنه أمم	الشطر	١٠	٣٦
والنفس الابية اذ	واذا	١٧	٣٧
اذا الواو زائدة	واذا	٣	٣٧
الخليفة	الخيفة	١٩	٤١
ثمان مئة	مائة	٢٣	٤٣
عظات	عظاة	٧	٤٦
فوصلوها	فوصلوها	٢٠	٤٩
نلت في مصر كل ما يرتجي	الشطر	١٣	٤٩
ولا في الضراب يوما ضريب	المشطر	٨	٥١
للافرنج	الافرنج	١٣	٥١
وأحلّ	وأجلّ	٢١	٥٤
سقب	شغب	٥	٦١
غيظاً	غيضا	١٠	٦٤
يُودي	يؤدي	٢١	٦٧
تعش به	تعش	١٤	٧١
احدى عشرة	احدى عشر	١٣	٧٣
اهناً	أهنى	٢٣	٧٤
ويقضِ	ويقضي	١٠	٧٦
وأسيّ	وأسى	١١	٨١
بحجر واحد	واحد بحجر	٢١	٩٠
الردى	الردا	١٩	١٠٤
أو اشتطوا	واشتطوا	١٢	١١٤
يوما ضريب	المشطر	١٢	١١٦

ص	س	الخطأ	الصواب
١١٦	١٨	الرهييب	الرحيب
١٢٠	٥	مقهورا	مقهور
١٢٣	٧	الشطر	طلق وقلبي كتيب مكمدا بك
١٢٨	٢٣	وتشنيبيها	وتشذبيها
١٣٩	١١	وذو العلق	وذا
١٥٤	١٢	بأمري	بأمريء
١٥٧	١٣	بط	بخط
١٦١	٢	ربي	ربا
١٦٢	٤		يا منزلا كان فيه العزم مقتونا
١٦٣	١	أحمّل	أوحمل
١٦٤	الهامش	دامية	اهية
١٧٦	٨	اثنين	اثنتين
١٧٧	٤	ومسوداه	ومسوداته
١٧٨	٢		يضيق بالنفس فيه صدر ذي الباس
١٨٢	٤	او ساء	أو ما ساء
١٨٢	٢٠	يخلوا	بخلوا
١٨٣	٥	احذر	اخبار
١٨٥	١٢	فا منا	فاما منا بعد واما
١٨٦	٢٤	ف قتل	مأقتل
١٨٩	١٠	جنى	جنبي
١٩٠	١٢	المشك	المشرك
١٩٢	١٩	ابن الصمة	بن
١٩٢	٢٠	مكدّم	مكدّم
١٩٣	٢٢	لا يكرنه	لا يكرنه
١٩٦	١٤	يتقيك	يتفك
١٩٧	١٧	ذي العلم	ذوي العلم
١٩٨	٨	ووزارؤه	ووزارؤه
٢١٣	٥	هو	وهو
٢١٤	١٣	ضوء نهاري	ضوء نهاري
٢٢٤	٢	البديعين والبلاغيين	البديعين والبلاغيين
٢٤٣	٢٠	استعادت	استعارت
٢٤٩	١٩	الاولى	الألى

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٥٢	٤	والسلوان	أو السلوان
٢٥٢	١٣	قد رانت	وقد رانت
٢٥٢	٢٢	درئية	دريئة
٢٥٨	الهامش	قبل	قبل
٢٥٨	١٤	كشذى	كشذا
٢٦٠	٦	يؤدني	يؤودني
٢٦٢	٩	عيّ	عيّي
٢٦٥	١٥	الرضا	الرضى
٢٦٩	٢	والعيش	والعيس
٢٦٩	٥	نارح	نازح
٢٧١	١٩	الشطّر	بك زاد الاسلام يا سيفه
٢٧٤	٤	الشطّر	أيها المنقذي
٢٧٦	٧	من سطواك	من سطاك
٢٧٦	الهامش ٢	يظللّهم	يظللهم (١)
٢٨٩	١٩	لأحضى	لأحظى
٢٩٣	١٤	الشطّر	وسيرة هي عدل
٢٩٤	١	ثري	ذرا
٢٩٦	١٤	مبعدة	مبعدة
٢٩٦	١٦	مط لعاته	مطالعاته
٢٩٨	١١	سرفوا	سرف
٣٠٢	١٧		من نشبي
٣٠٧	٢١	ليال	ليالي
٣١٠	٩	تنقضى	تنقضى
٣١٩	٥	بينهم	بينهم
٣٢٢	١٥	المتصل	المتصل
٣٢٥	٥	براحتم	براحتهم
٣٢٧	٩	اذا ما روضه	اذا روضته

ص	س	الخطأ	الصواب
٣٣٢	١	السطر مكرر	طبعه
٣٣٢	٩	المعانات	المعانات
٣٣٥	٥	والشائنين	والشائنين
٣٣٥	٧	ولا مهربا	ولا مهرب
٣٣٨	١	اللذان	اللذين
٣٣٨	٦٠٥	صوابهما كما يلي	
			ودع ذنبها فالحبُّ مُبَدِّ لَعْنِهَا
			فما زلت في عالي وفائي وغدرها
٣٤٢	٦	وانتفاض	وانتقاض
٣٤٦	٢١	الصلاة	الصِلاة

شكر وامتنان

من الاعتراف بالجميل والفضل ان أتقدم بالشكر الجزيل للسادة الافاضل الذين أسدوا اليي المعاونة في انجاز الكتاب وفي مقدمتهم أخي وصديقي الاستاذ مصطفى علي والاستاذ عبدالله الجبوري وعبد الحميد العلوجي فلهم مني كل تقدير وامتنان ولا أنس معاونة أبي أسعد صاحب مطبعة أسعد والمرتين فلهم مني الحمد لحسن معاملتهم وجميل صبرهم •

رجاء واعتذار

رجائي الى القراء الكرام أن يلتفتوا الى جدول الاخطاء ويضعوا التصحيحات في مواضعها مع اعتذاري اليهم لوقوع الاخطاء مع حرصي ألا تقع ، ولكن هذه حال طباعتنا العربية وحروفنا وحرركاتها •

المؤلف

جمال الدين الألوسي

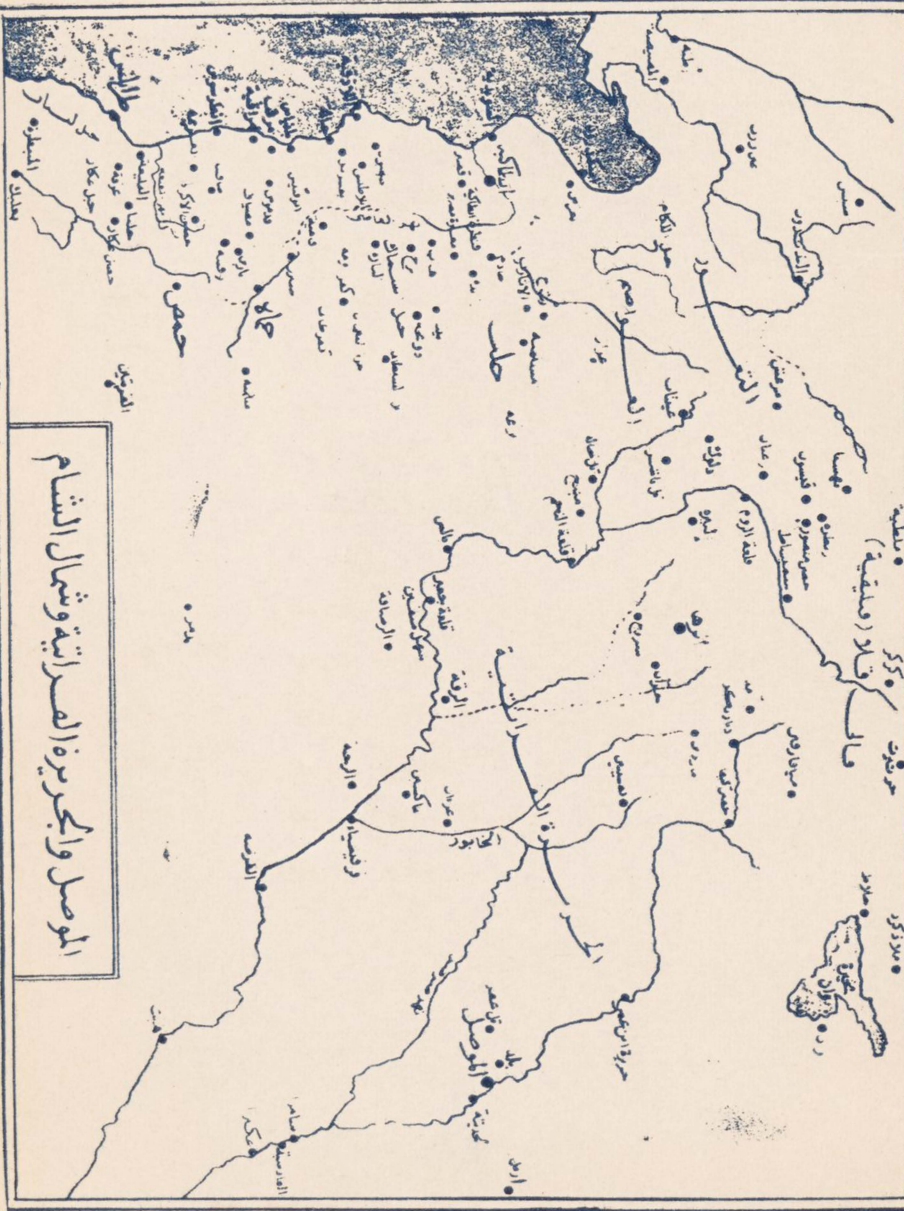
فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
بنو منقذ	٧
نسبهم	٩
حصن شيزر	١٠
علي بن مقلد	١١
اسامة بن منقذ	١٢
نشأته ومولده	١٣
ثقافته	١٤
الحروب الصليبية	١٧
اسامة الفارس	٢٣
رحلة اسامة الاولى	٢٦
اسامة يرحل الى الشام	٣٣
اسامة في دمشق	٣٥
رحلة اسامة الى مصر	٣٩
طلائع بن رزيك	٤٥
اسر الافرنج لآخي اسامة	٤٦
شكوى وذكرى	٤٩
طلائع واسامة	٥٠
مطولة اسامة على لسان نور الدين	٥٥
الزلزلة العظمى	٥٨
حول الزلزلة	٥٩
اسامة يحاول ارضاء بني عمه	٦٥

الموضوع	الصفحة
اسامة مؤمن بالقدر	٦٨
اسامة يتخطى السبعين	٧١
اسامة في حصن كيفا	٧٢
عودة اسامة الى دمشق	٧٤
أقوال العلماء في اسامة	٧٧ ✓
قول العماد الاصبهاني	٧٧
قول ابن عساكر	٧٨
أقوال المحدثين	٨٠
قول فليب حتي	٨٠
قول احمد محمد شاكر	٨٠
قول أحمد أمين	٨٠
اسامة المؤلف	٨١
كتاب الاعتبار	٨٢ ✓
كتاب لباب الآداب	٨٢
كتاب البديع	٨٣
كتاب المنازل والديار	٨٣
كتاب المنازل والديار	٨٣ ✓
الاعتبار	٨٧ ✓
عرض ونصوص	٨٩
ديوانه	١٠٧
نسخة الديوان	١٠٩
شعره	١١١
التضمين في شعره	١٢٧
موازنة بينه وبين شعراء عصره	١٢٨
النقص البارز في الديوان	١٢٩

الموضوع	الصفحة
المنازل والديار	١٣١
موضوع الكتاب	١٣٣
نسخة الكتاب	١٣٣
مقدمة الكتاب	١٣٤
فصول الكتاب	١٣٦
نموذج من فصول الكتاب	١٣٧
كلمة في الكتاب	١٥٧
لباب الآداب	١٧٣
تعريفه	١٧٥
منهج الكتاب	١٧٦
باب الجهاد أو الشجاعة	١٨٢
باب السياسة	١٩٤
البديع في نقد الشعر	٢٠٣
مقدمته	٢٠٥
مقدمة المؤلف	٢٠٨
نماذج من أبواب الكتاب	٢٠٨
باب طبقات التطبيق	٢١٢
باب الظرافة والسهولة	٢١٥
باب التفريط	٢١٦
باب السابق واللاحق	٢١٨
باب الاستعارة	٢٢١
كلمة أخيرة في الكتاب	٢٢٤
كتاب العصا	٢٢٥
عرض وتلخيص	٢٢٩
نماذج من شعر اسامة مما لم يرد في ديوانه	٢٢٩

الموضوع	الصفحة
اخوانيات ومراسلات	٢٤٨
نماذج من أشعاره الاخوانية	٢٤٩
شعره الى والده	٢٥٦
اسامة لا يؤرخ شعره	٢٥٩
اسامة يسترفد طلائع بن رزيك	٢٨١
منتخبات من شعره	٢٩٩
رثاء أهله الهالكين	٣٢٣
الخاتمة	٣٢٩
مناقشات	٣٣٩
أقوال القدامى والمحدثين في بعض جوانب حياة اسامة ومعتقده	٣٤١
ملاحظاتي	٣٤٨
نقدتهم القدامى والمعاصرين الموجهة الى اسامة	
فهارس الكتاب	٣٥٥
فهرس الاعلام	٣٥٥
فهرس المراجع	٣٦٧
فهرس الخطأ والصواب	٣٧١
فهرس الموضوعات	



الموصل والجزيرة الصراية وشمال الشام

